

Princeton University Library



32101 062275308

22
255
333

2271.255.333

al-Hakim

Fann al-adab

DATE

ISSUED TO

Bindery

DATE ISSUED

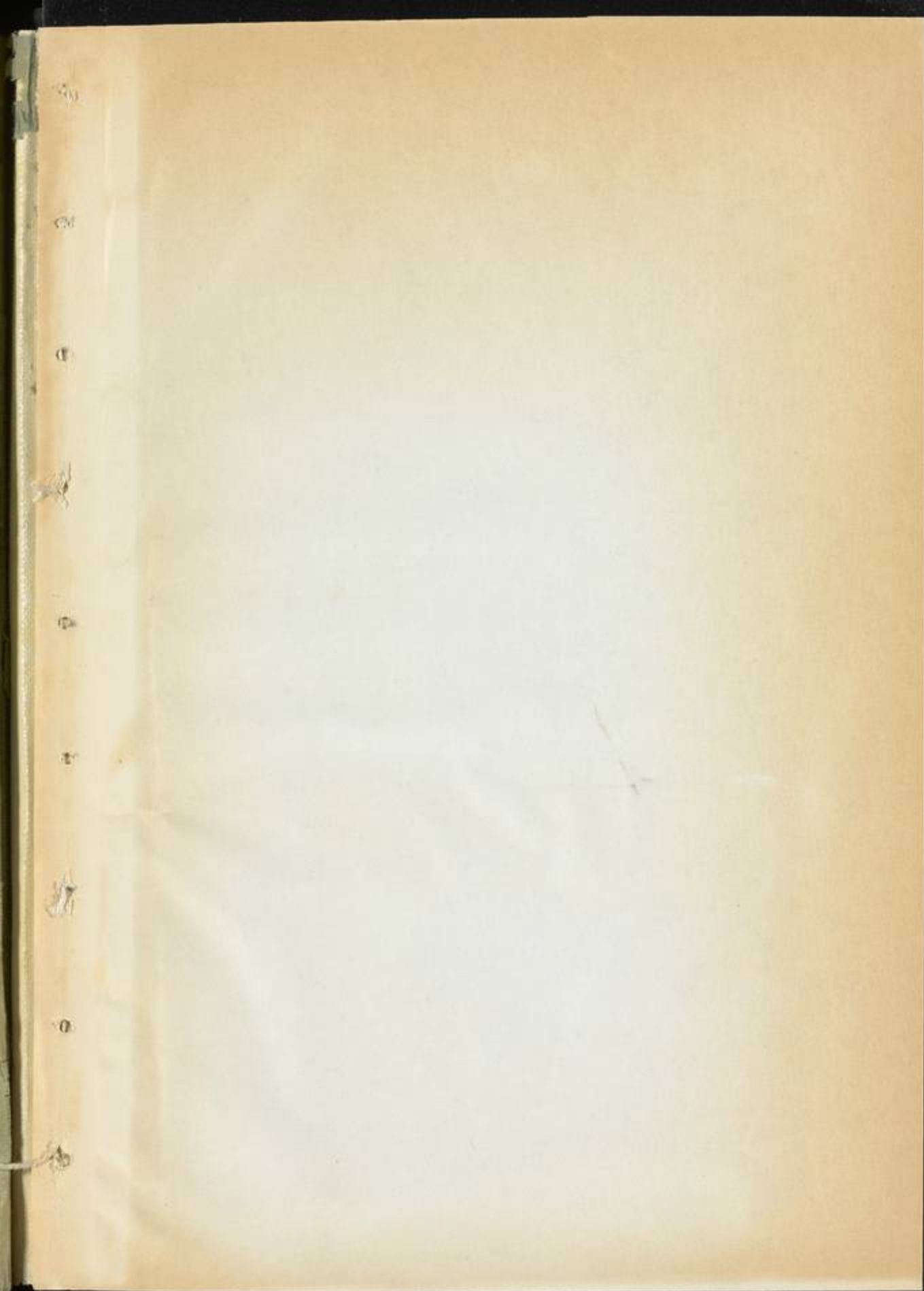
DATE DUE

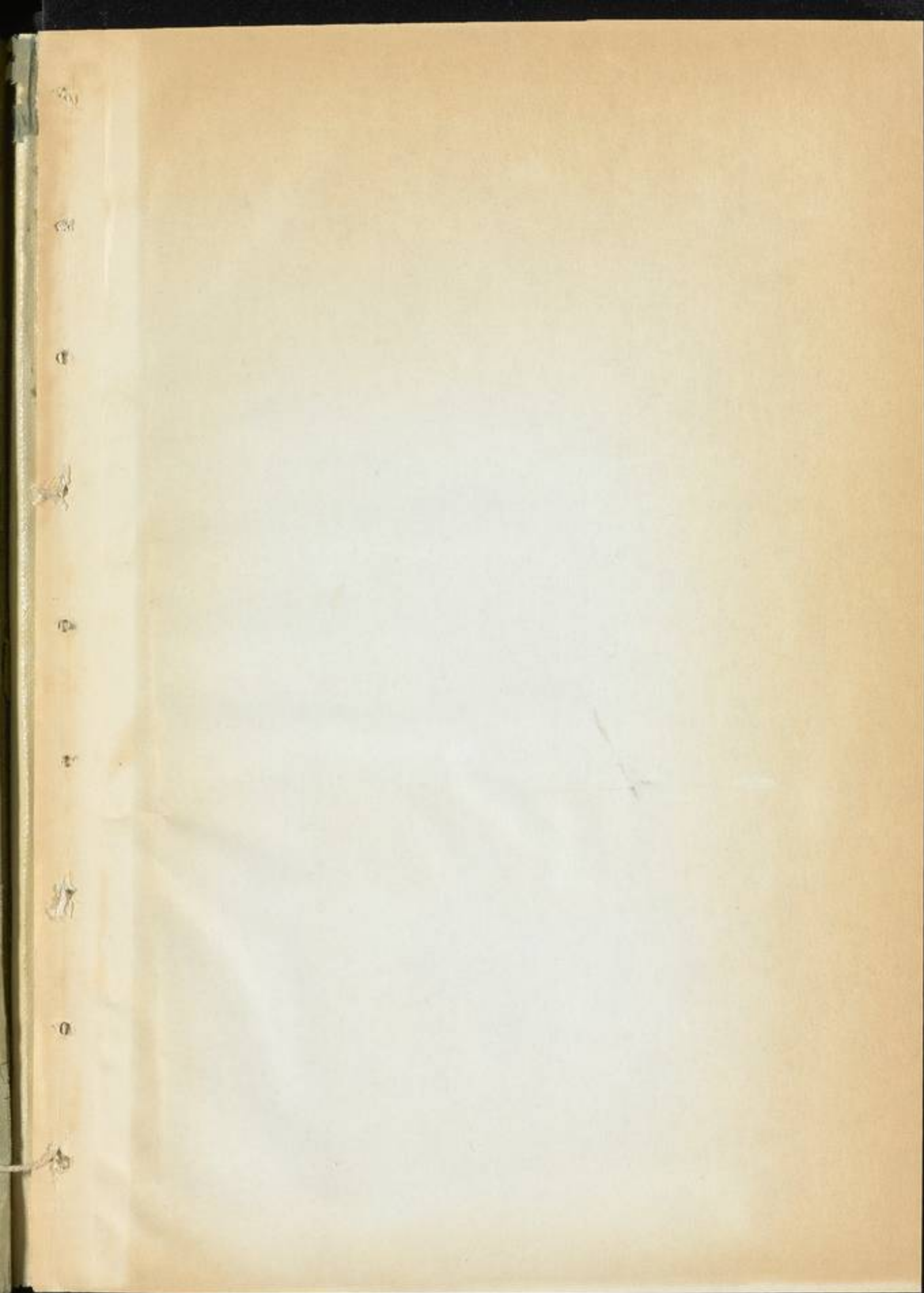
DATE ISSUED

DATE DUE

MAR 1

MAR 29 65





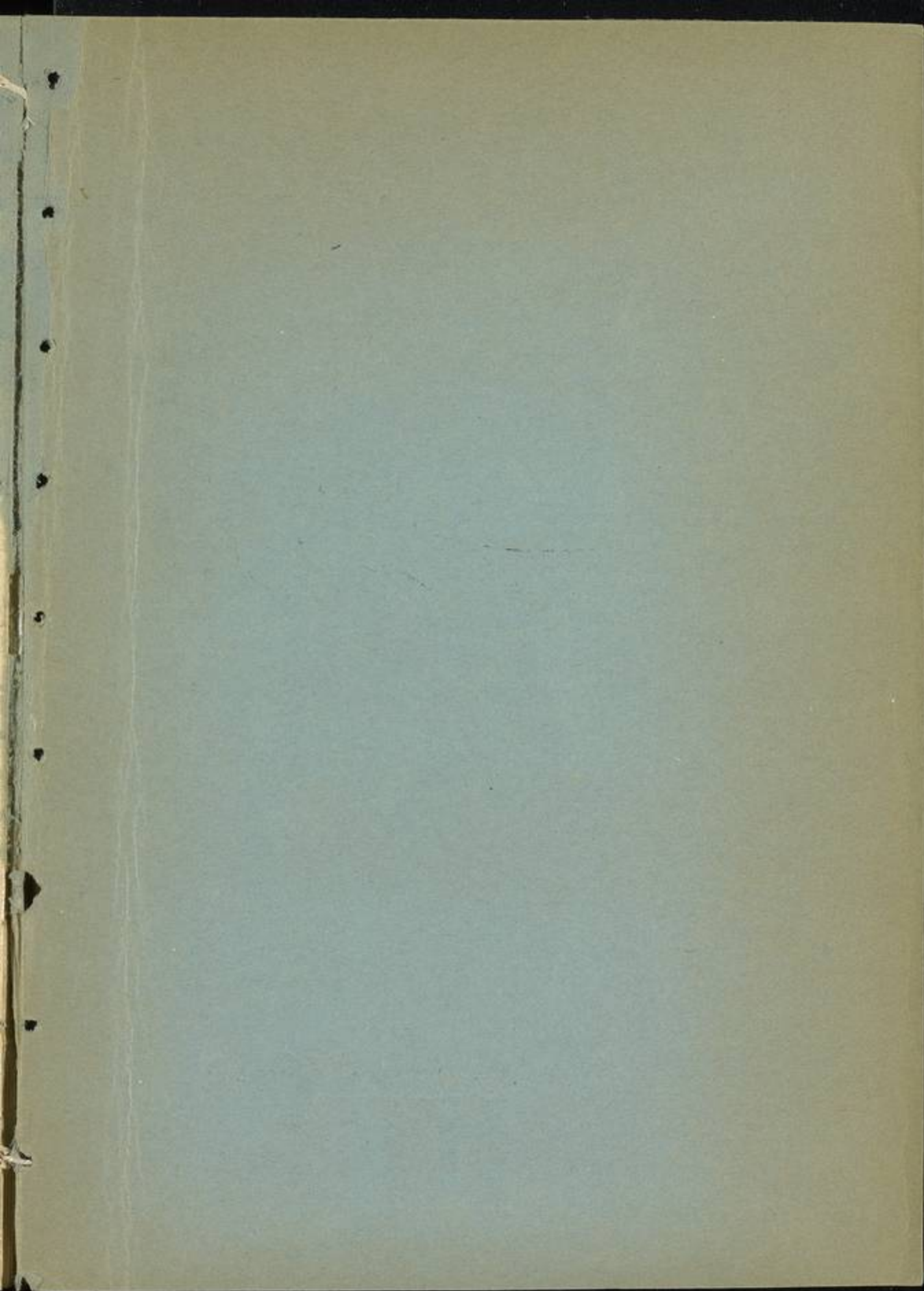
توفيق الحكيم

فنّ الأدب

الناشر — مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميزت: ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشاويكة بالحيّة الجديدة



توفيق الحكيم

al-Hakim, Tawfiq

فن الأدب

Fann al- adab

الأدب هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة في الإنسان
والأمة ، الحامل الناقل لمفاتيح الوعي في شخصية الأمة
والإنسان . . تلك الشخصية التي تتصل فيها حلقات
الماضي والحاضر والمستقبل . .
والفن هو المطية الحية القوية التي تعمل الأدب خلال
الزمان والمكان . .
والأدب بغير فن رسول بغير جواد في رحلة الخلود . .
والفن بغير أدب مطية سائبة بغير حمل ولا هدف . .
ولقد كان هي دائما محاولة الجمع بين الرسول وجواده . .
ولقد رأيت دائما الأدب مع الفن ، والفن مع الأدب . .
لذا سميت هذا الكتاب : « فن الأدب » . . .

مقدم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعها بالجمايز : ت ٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ مكتبة الشاذلي بوعت بالهامة الجديدة

2. The following is a list of the
names of the persons who have
been appointed to the various
committees of the Board of
Education, for the year 1901-02.
The names are given in the
order in which they were
appointed, and the names of
the members of the Board of
Education are given in the
order in which they were
elected.

Board of Education
for the year 1901-02

فهرس

صفحة

الباب الأول

الأدب ويدا

- الخلق الذى يبتكر . . . ١٢
النقد الذى يفسر . . . ١٨

الباب الثانى

الأدب العربى وتجدره

- أثواب الأدب العربى . . . ٢٦
الجاحظ وعصرنا . . . ٣٢
فن جديد عند الجاحظ . . . ٣٥
نظرة حديثة إلى أبى العلاء . . . ٣٨

الباب الثالث

الأدب والفن

- مع فن الطفولة . . . ٤٤
مع أهل الموسيقى . . . ٥٠
مع أهل التصوير . . . ٥٩
مع أهل الإنشاد . . . ٦٨

الباب الرابع

الأدب والدين

- السماء هى المنبع . . . ٧٦
الماء الحى . . . ٧٩
الحقيقة الكاملة . . . ٨٢
ثورة العقل . . . ٨٥
معجزة الدين . . . ٨٩
الايمان بالحياة . . . ٩٤

الباب الخامس

الأدب والعلم

- باب العلم المغلق . . . ٩٨
قل الروح من أمر ربى . . . ١٠١
العلم متغير . . . ١٠٦
وجدتها . . . وجدتها ! . . . ١٠٩

2271
. 255
333

8-3-61. O.L.L.

١١٨	الحضارة في الغد . .
١٢١	الحضارة والشرق . .
١٢٤	تراث الحضارات . .
١٢٧	شمس الحضارات . .
١٢٩	الحضارة روح . .
١٣٢	الحضارة في دم الانسان .
١٣٥	الانسان والغريزة . .
١٣٨	الحضارة تتزين بالفن .

١٤٤	فن المسرحية . . .
١٥٠	الحوار
١٥٥	البناء
١٦١	الطبائع عند شكسبير .
١٦٤	عوائق المسرحية عندنا .
١٦٧	المسرح إتقان وتجويد .
١٧٠	الاصلاح الخلقى والتمثيل .
١٧٤	من صفات الكاتب المسرحى .

١٧٨	غذاء الشعب العقلى . .
١٨٠	الأدب خادماً للجماعة حافظ للقيم
١٨٣	الأدب طريق إلى إيقاظ الرأى
١٨٥	تربية الرأى العام . .
١٨٧	الذوق العام . . .

١٩٠	الأدب والسينما . .
١٩٦	الأدب والاذاعة . .
٢٠٠	نجوم العين والأذن .

الباب السادس

الأدب والحضارة

الباب السابع

الأدب والمسرح

الباب الثامن

الأدب والصحافة

الباب التاسع

الأدب والسينما والاذاعة

٢٠٨	نهر الحياة الكبرى
٢١٢	الشعر وأشعته
٢١٥	مستقبل الشعر
٢٢١	أدب القصة
٢٢٦	حياة الشخصية القصصية
٢٣٤	القدر في الخلق القصصى
٢٣٩	الفنان والجمهور
٢٤٢	الشهرة الادبية
٢٤٥	شخص الفنان
٢٥٠	منطق الفنان
٢٥٣	الفنان لا يشيخ
٢٥٥	أدركته حرقه الأدب
٢٥٩	الأدب والسعادة
٢٦٣	الأدب ومصير العالم
٢٦٨	حلقات الأجيال
٢٧٢	تبعات الأجيال
٢٧٧	انفصال الأجيال
٢٨٠	تصادم الأجيال
٢٨٣	تجاهل الأجيال
٢٨٦	حرمان الأبناء
٢٨٨	صنع الأجيال
٢٩١	أجيال الطبيعة
٢٩٤	نوع الأجيال
٢٩٧	مبدأ الأجيال القادمة
٣٠١	شبح جيل
٣٠٨	الأديب يلتزم
٣١٥	الأديب وليد عصره
٣٢٢	الأدب لا يلتزم
٣٢٥	الأدب لكل عصر

الباب العاشر

الأدب ومشكلاته

الباب الحادى عشر

الأدب وأجياله

الباب الثانى عشر

الأدب والتزاماته

كتب للمؤلف

نشرت في اللغة العربية

- | | |
|--|------------------------|
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) | محمد |
| الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦) | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥) | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤) | شهرزاد |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤) | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢) | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٢٣) | أهل الكهف |
| الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣) | |
| الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠) | |
| الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥) | |
| الطبعة الخامسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨) | |
| الطبعة السادسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣) | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة الرغائب عام ١٩٢٣) | عودة الروح
في جزئين |
| الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦) | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥) | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | نحت شمس الفكر |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) | |
| الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥) | |
| الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤) | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | تاريخ حياة معدة |
| الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥) | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | عهد الشيطان |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) | براكا أو مشكلة الحكيم |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) | |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) | |
| (مطبعة مصر عام ١٩٤٠) | راقصة المعبد |
| | |
| (مطبعة مصر عام ١٩٤٠) | نشيد الإنشاد |
| | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) | حمار الحكيم |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢) | |

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)	سلطان الظلام
(مطبعة التوكل عام ١٩٤١)	من البرج العاجي
(مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)	نعت المصباح الأخضر
(مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)	أهل الفن
الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)	بجماليون
المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رسالة في القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)	مسرحيات
بالاشتراك مع الدكتور طه حسين (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)	القصر المسحور
المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة . أمام شبك التذاكر . الزمار . حياة تخطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)	مسرحيات
الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده : مصر عام ١٩٣٧) الطبعة الثالثة : (مطبعة مدرسية) (النموذجية ١٩٤٩) الطبعة الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣) الطبعة الخامسة : (مدرسية) (النموذجية ١٩٥٤)	يوميات نائب في الأرياف
الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)	عصفور من الشرق
الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)	سليمان الحكيم
الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤) (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)	زهرة العمر رسالة في القلب

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

الرباط المقدس	{ (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)
حمارى قال لى	{ (مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)
شجرة الحكم	{ (مطبعة النوكل عام ١٩٤٥)
الملك أوديب	{ (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
قصص توفيق الحكيم	{ المجموعة الأولى والثانية (مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)
مسرح المجتمع	{ (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)
فن الأدب	{ (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)
ذكريات الفن والقضاء	{ (مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)
أرني الله	{ (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)
عصا الحكيم	{ (مطبعة دار الهلال عام ١٩٥٣)
دقت الساعة	{ (مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)
نأملات في الحياة	{ (مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)
التصادمية	{ (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥)
لايزيس	{ (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٦)

كتب المؤلف

نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ايكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . في دار نشر نوفيل
ايديسيون لاتين وترجم إلى الانجليزية ونشرت
مختارات منه في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار
النشر (كراون) بنيويورك . في عام ١٩٤٥

شهر زاد

ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل
للنشر) . وبالإنجليزية ونشرت مختارات منه في لندن
عام ١٩٤٢

عودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام
١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العربية عام ١٩٤٥
وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في (دار هارفيل) للنشر
بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الإسبانية في مدريد عام ١٩٤٨

يوميات نائب
في الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون قبيط الأستاذ بالسكوليج دي فرانس ثم ترجم
إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

عصفور من الشرق

ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠

بجمايوت

ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠

أوديب

» » » » » » » » :

سليمان الحكيم

» » » » » » » » :

نهر الجنون

» » » » » » » » :

عرف كيف يموت

» » » » » » » » :

المخرج

» » » » » » » » :

بيت النمل

» » » » » » » » :

الزمار

(في مجلد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر « نوفيل ايديسيون لاتين » باريس »

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

منكلة الحسك	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣
السياسة والسلام	:	» » » » » » » »
الشيطان في خطر	:	» » » » » » » »
وين يوم وليلة	:	» » » » » » » »
العش الهادي	:	» » » » » » » »
أريد أن أقتل	:	» » » » » » » »
الساعة	:	ترجم ونشر باللغة الفرنسية في باريس عام ١٩٥٣
دقت الساعة	:	» » » » » » » »
أنشودة الموت	:	» » » » » » » »
لوعرف الشباب	:	» » » » » » » »
الكنز	:	» » » » » » » »

الباب الأول الأدب ويداہ

منه الخلق الذى يفتح وينكر .
وسراه النقد الذى ينظم ويفسر ...

المخلق الذى يبتكر

ماهو المخلق فى الأدب ؟ .. ماهو الابتكار الأدبى ؟ ..

سؤال ليس من السهل الجواب عنه فى عبارة .. فالمخلق ليس معناه أن تخرج من العدم وجوداً . إنما المخلق فى الأدب وفى الفن — وربما فى كل شىء — هو أن تنفخ روحاً فى مادة موجودة .. كذلك صنع أعظم الخالقين يوم أوجد آدم . فهو تعالى لم يمد يده العلوية إلى الفضاء قائلاً : « كن ! » فكان ، ولكنه مديده أولاً إلى الطين — مادة أوجدت قبل آدم — فسوى منه ذلك المخلوق الحى ...

لاشىء إذن يخرج من لاشىء .. كل شىء يخرج من كل شىء .. ذلك هو الدرس الأول فى المخلق .. أريد لنا أن نتلقاه عن الخالق الأكبر ...

كذلك ، ليس الابتكار فى الأدب والفن أن تطرق موضوعاً لم يسبقك إليه سابق ، ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك ... إنما الابتكار الأدبى والفنى ، هو أن تتناول الفكرة التى قد تكون مألوقة للناس ، فتسكب فيها من أدبك وفذك ما يجعلها تنقلب خلقاً جديداً ، يبهز العين ، ويدهش العقل .. أو أن تعالج الموضوع الذى كاد يبلى بين أصابع السابقين ؛ فإذا هو يضىء بين يديك ، بروح من عندك ..

وإذا تأملنا أغلب آيات الفن ، فإننا نجد موضوعاتها منقولة عن موضوعات سابقة موجودة ؛ فالكثير من موضوعات « شكسبير » نقل عن « بوكاشيو »

وبعض «مولير» عن «سكارون»، و«لوب دى فيجا»، و«جوته» فى قصة «فاوست»؛ عن «مارلو»، و«ماتى» «راسين»؛ عن «ماتى» «ايروبيدس»، و«ايروبيد» و«سوفوكلى»، و«اشيل»؛ عن «هوميروس»، وشعراء الشعب المجهولين المتنقلين بالأساطير... فإذا عرفنا على الأدب العربى القديم، فإننا نجد فى الشعر معنى البيت الواحد وموضوعه، ينتقلان من شاعر إلى شاعر، ويلبسان فى كل زمن حلة وصياغة، حتى اختلف النقاد والباحثون والأدباء فىمن يفضلون: أهو أول من طرقت الفكرة والموضوع أم خير من صاغها وأجرأها على الألسن وأتاح لهما الذبوع؟... على أن أرجح الرأى هو أن الموضوع فى الفن ليس بذى خطر. وليست الحوادث والوقائع فى القصص والشعر والتمثيل بذات قيمة، ولكن القيمة والخطر فى تلك الأشعة الجديدة التى يستطيع الفنان أن يستخرجها من هيكل تلك الموضوعات والحوادث والوقائع.

إن الفن ليس فى الهيكل. إنه فى الثوب. الفن هو الثوب الجديد الذى يلبسه الفنان للهيكل القديم. إنه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير.

وليس هذا بالمطلب اليسير. فما أشق الإتيان بجديد فى موضوع غير جديد...! وما أعسر الكشف عما لم يكشف فى بناء تقنيته العيون وتنقب فيه العقول، فى كل الشعوب وكل الأزمان. ومن أجل هذا كان عمل «راسين» فى قصة «أندروماك» — تلك الشخصية التى تناولها من قبله كثير من الموهوبين والأذهان: — أعظم فى تاريخ الأدب من عمل «بونسون دى تيراي» فى روايته «روكامبول» تلك الشخصية المفتعلة التى اخترعها من رأسه اختراعاً، ونسج حوادثها العجيبة من مخيلته نسيجاً.

قال «شسترتون» فيما أذكر، «مقدماً لكتاب من كتب «ديكتر»: «إنه ما من علامة أفصح فى الدلالة على انعدام الابتكار عند بعض الشعراء، من نزوعهم

إلى البحث عن الموضوعات الغريبة . إن أرفع مراتب الابتكار قد يتسببها شاعر يتغنى في « الربيع » ؛ فغناؤه يقطار دائماً جدة ونضارة ، شأنه شأن الربيع ذاته ، ذلك الجديد النضر دائماً ، مهما تتعاقب عليه القرون والحقب ... »

فلا ابتكار إذن لا شأن له بفكرة جديدة أو قديمة ، غريبة أو مألوقة ، ولا بالموضوع الطريف أو المطروق ... وقد تسألني بعدئذ : ما هو الابتكار الفني ؟ فأقول لك بسرعة وبساطة : هو أن تكون أنت .. هو أن تحقق نفسك ، هو أن تسمعنا صوتك أنت ، ونترك أنت .. إن أعظم معجزة في الكون للخالق الأعظم جل شأنه ، هي « شخصية الإنسان » .. ملايين الملايين من البشر تتوالد وتتعاقب : فلا تطابق شخصية منها شخصية أخرى تمام الانطباق ، في الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع .. كل شخص يظهر في الأرض جديد ، جدة تنبثق معه وتختفي معه ، إلى أبد الآبدين . فالإنسان هو الإنسان ، ولكنه في كل مرة يولد ، إنما يولد جديداً .. لا يكرر بالضبط إنساناً غيره .. ولا يشابه بالضبط شخصاً سواه .. فلايين الملايين من الناس في كل زمان مثلهم كمثل بصمات الأصابع لا يمكن أن تتطابق كل التطابق ... ياله من معين لا ينضب من الخلق الإلهي ! ... على أن هذه الجدة التي تخلق مع الناس — هذه الجدة في المشاعر والعقل والروح والإحساس — لو لازمتنا طويلاً لرأينا بها العجب ، ولكن أوضاع الحياة الاجتماعية ، وناموس القوى والضعف ، وجاذبية الأجسام الكبرى للصغرى التي تسرى على الأدميين كذلك : — كل هذا يفعل فعله .. فما نكاد نولد ونفتح أعيننا الصغيرة ، حتى يتلقفنا الكبار من حولنا ، ويقودونا ويلقنونا : فلا نبصر الأشياء إلا بأعينهم ، ولا نسميها إلا بما وضعوا لها من أسماء ، وما أضفوا عليها من صفات وسمات ... لقد كتب علينا هذا المصير : أن نفقد جديتنا ونحن في المهد ، وأن نلف في

أردية القدم منذ الطفولة ، وأن ينقأ آباؤنا عيوننا الجديدة باللمسة الأولى ، وأن يصموا آذاننا بالصيحة الأولى . ومن فرمنا ببعض البصر ، وواجه الدنيا بعينه هو فأنهر ؛ — فهو ذلك الذى نطلق عليه فيما بعد اسم « الشاعر المبكر » . . . بل ليت الطفولة أيضاً تبقى حويلاً ؛ فهى — على ما فيها من توجيه الكبار — تحتفظ بعالم خفى خاص يتصل مباشرة بأسرار الطبيعة المتحررة من منطق الناس .

هذه الطفولة — بعالمها المشيد فى أحضان الطبيعة الطليقة تستطيع — أن ترى الأشياء فى جنتها السحرية . . . وصدق ذلك الذى قال : من استطاع أن يبق طفلاً ، فقد استطاع أن يصير شاعراً . . . على أن الخطر رابض بعد ذلك فى محيط الأدب والفن أيضاً ؛ فهناك الشخصية القوية كالنواة فى الذرة ، شدت إليها الشخصيات الصغرى ، فأعمت أبصارها ؛ فلا ترى إلا ما ترى الكبرى ، ولا تقول إلا ما تقول . . .

فإذا سئلت عن « الربيع » قالت ، لا ماتحس هى وترى ، بل ما سمعت ورأت من خلال أسطر نفس كبيرة مشرقة فى عصرها أو فى عصور الغابرين . إلى أن تتحطم الذرة ، وينفطر عقد النواة ، ويتحرر من تمكشفت له نفسه . . . فيقول قولاً ندرت من ساعتنا أنه له ؛ فالصوت صوته ، والنبرة نبرته ، والفرحة فرحته ، والدمعة دمعته . فنصبح معجبين : هذا قول مبكر ، وهو ما زاد فى حقيقة الأمر على أن يحقق نفسه .

لكن . . . ما أصعب ذلك على الأديب والفنان ! . . . ما أصعب إظهار الفنان شخصيته هو لا شخصية سواه ، وإسماع صوته هو لا صوت غيره ! . . . قديبدو ذلك سهلاً لأول وهلة ، وقد يعتقد الفنان أو الأديب اعتقاداً جازماً أنه ينطق بلسانه هو ، دون أن يدري ، أو يفطن إلى أنه إنما يردد لغة من سبقوه ، ويدور فى فلك عظيم من

عباقرة الأدب والفن ، وهو لا يشعر أو يريد ...

نعم .. ما أصعب تحطيم الذرة فى الأدب والفن أيضاً ! وأى دوى وانفجار
أيضاً لهذا الحدث فى تاريخ الآداب والفنون ؟! ... إن بروز الشخصية ، مفروزة جلية ،
هو معجزة الفنان . كم من الجهد بذل « يتهوفن » ؛ لينطلق من نواة « موزارات » ؟! ... إن
آثار هذا الجهد لم تزل باقية فى سائفونيته الأولى ، وما أروع كفاح « جوته » فى
شبابه - مع أقرانه الشعراء ، فى سبيل التحرر من تأثير « فولتير » والخروج عن نطاق
جاذبيته ! ... إنها المضنية مؤلمة ، تلك الجهود التى تبذلها النجوم ؛ لتضىء فى حضرة
الشموس ! ... وإنما لتعيش فى انتظار الساعة ، التى تصبح فيها شمساً بدورها ،
تجربى من حولها النجوم .

إن مجال الخلق الأدبى والفنى لمفعم بالعجائب ، وقد يدرك المتأمل له أنه تابع
لنظام الذرات والكواكب ؛ فأسلوب الخالق الأعظم واحد ، فى أصاغر المخلوقات
وفى أكبرها ، فى طاقتها المادية ، وفى نشاطها المعنوى ...

إن الفنان أو الأديب يظل يبحث عن ذاته وشخصيته ، إلى أن يجدها ، فإذا هى
تملكه بعد ذلك إلى الأبد ، وتطبع كل ما يلبسه بذلك الطابع ، الذى لا يزول ولا
يتحول . وإذا هو يعرف بطابعه ، لا فيما ينشئ فقط ، بل فيما يحاكي أيضاً . ولو
تأملنا الأدب العربى لوجدنا من شعرائه الأكبر من تعمّد محاكاة غيره ، أو تقليده ،
أو معارضته فى بعض قصائده ؛ فإذا هو - على الرغم من إرادة المحاكاة - يخرج فناً
مبتكراً محتوماً بطابعه هو لا طابع من حاكاه .. ذلك أن الشخصية الفنية ، بعد أن
تسكون ، يصبح لها من القوة ما يجذب إليها كل شئ ، وينخضع إلى أشعتها كل فكرة
أو صورة أو موضوع . فكل ما تتناوله يُصبَغُ فى الحال بلونها . فالفنان أو الأديب
ذو الشخصية مبتكر ؛ حتى وهو يريد أن يقلد . والفنان - الذى لم يستقل بعد بشخصيته -

يقلد، وهو يريد أن يبتكر .

ولكن طغيان الشخصية شديد . . فالفنان يظل يدور حول «نواة» غيره ، طالباً الانفصال عنها والاستقلال بذاته . فإذا انفصل واستقل دار حول ذاته ، وسيطرت عليه شخصيته . كل فنان ذو طابع، هو حبيس طابعه . انقطع شهوراً لدراسة فنان بارز الشخصية ، هب نفسك لـ«شيطان أعماله كلها مجتمعة» ، فلن يمضي بك الوقت حتى تكون قد عرفت وأحببت ، وسئمت وألفت ، في كل إشارات ولفظاته ، وارتفاعه وانحطاطه ، وقدرته وعجزه . إن تأمل آثار الفنان كاملة تكشف لك عن شخصيته الكاملة ، فتعرف أسلوبه في التفكير والتعبير ، وطريقته في تناول الأشياء . ولكنك - وقد أحطت به - ونفذت إلى لبه ، لا بد صائح يوماً بلهجة المحبة والآلفة : دائماً هذه الطريقة . . . دائماً هذا الأسلوب . . . لو يخرج عن ذلك قليلاً . . . ! ! !

يخرج عن ذلك إلى أين ؟ . . . وكيف يخرج عن طريقته وأسلوبه ؟ . . . إنها ذاته . . . تلك مأساة الطابع والشخصية : مادام قد صار له طابع ، فلن يخلع عنه أبداً . . . ولا بالموت . كل خالق ذو أسلوب يحين أسلوبه . إن أسلوب الفنان ذى الشخصية كملاحمه ، لا يمكن أن يغيرها أو يبدلها أو يتخلص منها . . ذلك هو ما يسمى بالابتكار في الفن والأدب .

النقد الذى يفسر

مامن شئ أكثر فيه الخلاف مثل النقد، وقواعده ومذاهبه...

ما هو النقد؟... يقولون إنه الحكم الفصل، وهو الميزان الدقيق...

إذا كان «النقد» هو حكم وميزان، فلا بد له إذن من دستور وقانون.
ما هو الدستور أو القانون الذى يمكن أن يوضع أو يسن؟ لنعلن بمقتضاه أن
هذا الأثر الفنى جيد أو غير جيد؟

اجتهد أعلام النقد وأئمة البلاغة فى التقنين والاستنباط، وخرجوا بأصول،
قالوا: إن فى المقدور أن نقبس بها الخلق الفنى؛ فنعرف جيده من رديئه، ونميز
معدنه الطيب من معدنه الخبيث. ولو صدق هذا الاختراع فى الفن كما صدق فى
التعدين، وكانت لهذه الأصول التى تقاس بها أعمال الفن والأدب، دقة ذلك
الجهاز الحساس الذى يعرف منجم الذهب من منجم النحاس؛— لهان الأمر على
النقد والنقاد والأدباء والفنانين.

ولكن هذه الأصول، أو هذا الجهاز، إذا طبقت على كثير من آيات الفن
والأدب؛ فإننا نجد اضطراباً ونلاحظ اختلالاً، ونقف موقف الحائر المتسائل:
هل نصدق الآية الفنية، أو نصدق الجهاز؟...

ذلك أن كثيراً من بدائع الفن الخالدة يخرج على تلك الأصول، فتراه أحياناً
لا يخلو من نقص فى البلاغة، أو رككة فى العبارة، أو أخطاء فى النحو، أو وقوع فى
«اللغو».. ولكن إلى جانب تلك المآخذ روعة، أى روعة... ثم هنالك أثر فى آخر

انطبقت عليه الأصول تمام الانطباق فلا لحن ولا غلطة... فصاحة ما بعدها من فصاحة، ومنطق كحد السيف يصيب المفصل، وقد يكل الطرف، وتكد الفطنة فلا تعثر فيه على هنة من أضال الهنات... كل شيء فيه صحيح، سليم، متين؛ — ولكننا نحس — مع ذلك — أن لا شيء فيه يحركنا... أو يهز نفوسنا.

الجمال في الفن كالجمال في المرأة!... «كليوباترا» — على الرغم من أنها غير الدقيق — آية خالدة في تاريخ الحسن النسوي!... وكما من نساء نبصرهن كل يوم لهن من الأنوف الدقيقة، والعيون النجل، والخصور النجيلة؛ — ما لم تظفر «كليوباترا» بالقليل منه، ويرغم هذا لا نراهن رائعات ولا فائنات.

ما السر في أن امرأة قد استكملت شروط الحسن، وليست بحسنة، وأخرى شابتها عيوب، وهي السحر والفتنة!؟...

في المرأة وفي الفن، هنالك شيء؛ لا ندري ما هو، يخرج على كل قاعدة، ويهزأ بكل أصول؛ — هو الذي يجعل الجميل جميلاً... من أجل هذا، انحرف النقد عن المذهب الموضوعي إلى المذهب الشخصي، وطلع نفر من النقاد يقولون: إن الذوق هو الحكم والميزان ولكن ما هو الذوق؟. هنا أيضاً مشكلة تبرز على الفور: لو عرفنا الذوق وحددناه لأصبح هو الآخر أصلاً من الأصول، ومقياساً ثابتاً جامداً، يتحطم عند أول اختبار، وتنزلق إلى المذهب الموضوعي مرة أخرى، دون أن نشعر؛ فلنكتف إذن بالقول بأن الذوق ملكة شخصية، تفرز الزائف من الصحيح، والحسن من القبيح!... ولكن — ما دامت ملكة شخصية — كيف نمرز أيضاً الشخص الذي ركبت فيه هذه الملكة، وكل الناس لا شك قائلون إن الذوق نابت فيهم مع أظفارهم؟... ونحن لو استطعنا أن نتصيد من غمرة الناس تلك اللؤلؤة الفريدة، وهي الناقد صاحب الذوق الذي لا يتازع

ولا يدافع : — لكانت فرحتنا به أضعاف فرحتنا بمن سينقد من الأدباء والفنانين .
 لكن العثور على هذا الناقد ذى الذوق يحتاج — هو الآخر — إلى ناقد ذى ذوق
 يستكشفه وهلم جرا... لا ، ليس للذوق الشخصى ضابط ، وإذا ترك الحكم فى
 الآثار الفنية والأدبية للذوق وحده : فقد ترك إذن للفوضى أو للمصادفة وهذا
 هو المطعن الذى يرمى به المذهب الشخصى فى النقد .

ولعل خير منهج للناقد أن يجمع فى نقده بين شتى الاعتبارات ، ويؤلف بين
 مختلف النظرات ، فيختار الأثر من بين مختلف الآثار بذوقه كاشفاً عن نواحي
 جماله ، ثم يحلله بغير بال عليه ، ليخرج لنا ما انطبق منه على الأصول وما لم ينطبق .
 وذلك لمجرد التحليل والبحث والدرس ، لا لإصدار الأحكام بناء على هذا الاعتبار
 وحده : فإذا فرغ من ذلك بقى أمامه الشطر الأجل من عمله النقدي : وهو تقويم
 الأثر بقيمته فى المحيط الأدبى القومى أو الإنسانى ، ووضعه فى مكانه من « خانة »
 النوع ، ومقارنته بالسابقين له فى ذلك السجل : مبينا مدى تأثره إياهم ، ومبلغ
 اتفاقه معهم فى المذهب ، أو اختلافه عنهم فى المسلك . أمكرر هو أم مؤكد أم
 مجتهد فى باب معروف ؟ ... أم هو فاتح أو ضارب فى طريق غير مألوف ؟ ... مع
 مراعاة الحقيقة لا الإسراف ، والدقة لا الإغراق : ذلك بأن النقد عندنا فى
 الأدب العربى الحديث سار طويلاً فى درب مقتضب : هو أن ينقد الأثر ، كما لو كان
 قد وجد ملقى على الأرض كاللقيط ، لا يعرف له أب ينتمى إليه : فهو فريد عصره
 ونسيج وحده... إن الأدب أو الفن فى أى أمة وعصر ، أسرة متحدة :
 فيها الآباء ، وفيها الأبناء... فيها من تكونت شخصيته فآثر ، وفيها الناشء ،
 الذى يتأثر . ولكل منهما عند الناقد عملة بها يحاسب... فالفنان أو الأديب الذى
 تكونت شخصيته فآثر ، ينبغى لفهمه درس شخصيته الفنية أولاً ، وشخصية الفنان

أو الأديب لا تتكون إلا من كتلة أعمال ...

إن العمود الفقري للشخصية الفنية هو سلسلة آثار ، يستطيع الباحث أن يتتبع في حلقاتها صفاته وعيوبه ولوازمه وعاداته ، ومزاجه واتجاهاته ؛ لهذا كان على النقد الفني أن يفرق دائماً بين فنان ، في أعماله الأولى ، يتلصص خطاه نحو شخصيته ، وفنان عرف له طريق واتجاه . فقضية النقد للبتدىء تتلخص في :

« كيف صنع هذا ؟ » . وقضية النقد للناضج هي : « لماذا صنع هذا ؟ » : الأول لم نعرف له شخصية بعد ، فعلى أن نعيّنه على معرفة طريقه إليها ؛ فنناقشه : كيف أنتج ذلك الأثر ؟ ما هو حياته ؟ وما أدواته ؟ وأى خطئ يتأثر ؟ وفي أى طريق يسير ؟ وبأسلوب من تشيع ؟ ولأفكار من تشيع ؟ أما الثاني ، وقد عرفنا شخصيته ووجهته ، فواجبنا أن نبحث : لماذا أخرج هذا الأثر الأخير ؛ ليحقق به أى جانب من جوانب شخصيته التي نعرف عنها الكثير ؟ ... لماذا صنع هذا ؟ ... أترى الغرض منه تأكيد فكرة من أفكاره السابقة ؟ أو الرجوع عن بعض هذه الأفكار ؟ أو الانحراف إلى اتجاه جديد لا نعرفه له ؟ أو الخضوع لإحساس بعينه يلاحقه في كل أثر من آثاره ؟ ... فالنقد للأديب الجديد موجّه ، وللأديب القديم مفسر ... ينبغي للنقد الفني أن يوجه الجديد إلى شخصيته التي لم تظهر ، وأن يفسر للقديم شخصيته التي ظهرت .

والأديب القديم يفاضل بنفسه ، وينقد الأخير من آثاره على ضوء السابق من أعماله . والأديب الجديد يقارن بالأديب القديم ، وينقد عمله على ضوء أعمال من فتحوا له باب النوع الذي يعالجه ، والفرع الذي يثمر فيه ... وكل أديب قديم كان يوماً جديداً . وكل أديب جديد سيكون يوماً قديماً . فتعدد النظرة في الأمس والغد فيه تعدد للجوانب . وبهذا يعرف الأديب إذا اكتمل كل وجوه

القول فيه ، وكل ما يربط إلى سابقه ولاحقه . . . فالأدب أو الفن أو العلم في كل زمان ومكان ، سلسلة طويلة ، تتسلم فيه كل حلقة من الأخرى ، ثم تسلم . . . ومهمة النقد هي أن يربط هذه الحلقات بعضها ببعض ؛ ليجعل منها هذه السلسلة الذهبية التي يزدان بها صدر البشرية . والنقد في عملية الربط بين الحلقات إنما يقوم في حقيقة الأمر بعمل إنشائي ضخيم . ولسنا بمبالغين لو قلنا إن الآثار الأدبية بغير نقد بنائي ، يربط بين أجزائها واتجاهاتها ؛ — لا يمكن أن تصنع أدباً بالمعنى المعروف في الآداب الكبرى . فمن الجائز أن تنبت قصيدة شعرية رائعة بين الزوج بلغتهم في غابة من الغابات ؛ لأن الإحساس الفني يمكن أن ينبت في أى مكان ، ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أدب الزوج ، إلا إذا وجد النقد الذى ينظم آثار هؤلاء القوم ، ويكشف عن مصادرها وأهدافها واتجاهاتها . . . شأن النقد في الأدب كشأن الفقه في القضاء . . . فليس الحكم العادل وحده هو الذى يصنع علم القانون ، كما يعرف في الأمم الكبرى . . . فما أكثر الأحكام العادلة التي تصدرها مجالس التحكيم عند البدو أو عند كثير من القبائل الفطرية . . . فهل نستطيع أن نسمى هذه الأحكام قضاءً بالمعنى القانوني ؟ . . . لا . . . لماذا ؟ . . . لأنه ينقصها الفقه ، الذى يجمعها ويمحصها ويرتبها ، ويستخرج منها الاتجاهات والنظريات والمذاهب والمبادئ ؛ فالفقهاء في الشريعة الإسلامية والقوانين الرومانية والأوربية ، قديماً وحديثاً ؛ هم الذين بغوصهم في أعماق النصوص ، وتفسيراتهم للأحكام قد شيدوا هذا البناء الضخم المتناسق المتماسك لهذه الشرائع والقوانين . كذلك النقاد أى فقهاء الأدب والفن ، بانبكبابهم على الآثار الأدبية والفنية ، يستخلصون منها التفسيرات والمقارنات والمذاهب والاتجاهات ؛ — قد أقاموا بجهودهم المتصلة صروح الآداب والفنون . فالأدب العربى القديم ، ما عاش حتى اليوم أدباً خصباً ، وما بق لنا تراثاً غنياً ؛ —

إلا بفضل رواته ونقاده وباحثيه الذين تنقهبوا في درسه، ووازنوا بين شعرائه وأدبائه، وأظهروا لنا أسرار أساليبه، وآيات بلاغته، وكشفوا عن مؤثراته ومراميه، ومدارسه واتجاهاته، في مختلف العصور والأزمان... فالأدب الفنى لا بد له من نقد إنشائي؛ كما أن القضاء العظيم لا بد له من فقه عميق. ولعل ما يبدو على الأدب العربي الحديث من فقر، بالنسبة إلى الأدب العربي القديم -راجع- لا إلى ضعف الإنتاج الأدبي الحديث في ذاته، بل إلى ظهوره وحيداً غير مستند إلى نقد إنشائي في مستواه، يقوم بمهمة التنظيم والتفسير، والربط والتبويب... فكان من أثر ذلك الإهمال أن بدا الأدب العربي الحديث، في صورة جهود فردية غير جدية... وسيظل كذلك إلى أن يظهر النقاد العظام الذين يتوفرون على درسه، ويخرجونه للناس والأجيال، بناء متسقاً، مرتبطاً حاضره بماضيه... على أن ظهور الناقد العظيم ليس بالأمر السهل؛ فللناقد صفات يجب أن تتوافر فيه، أهمها: أن يكون كفقيه القانون، بجرأ عميق الاطلاع في الأدب الذي يدرسه، والآداب الأخرى القائمة -ماضياً وحاضراً؛ حتى يتيسر له التقدير للقيم، والموازنة بين الأنواع، والتشريع للمذاهب. وأن يكون واسع الأفق؛ ليفهم كل الأغراض، قوى المعدة؛ ليهضم كل الألوان.

فذلك الذي لا يستسيغ نوعاً من الشعر، أو لوناً من النثر، أو فرعاً من القصص، أو ضرباً من التمثيل؛ - لا يجوز له أن يقدم على نقده، وإبداء الرأي فيه. وعليه أن يتنحى ويرد نفسه عن الحكم؛ شأن القاضى الذى كَوّن في القضية رأياً قبل البحث، أو اتصلت ظروفها بعلمه قبل النظر... ففي لغة القانون يقولون: «ليس للقاضى أن يحكم بعلمه»؛ ذلك أن القاضى يجب أن يحكم بناء على ما بين يديه من مستندات... لا بما يتصل بعلمه الشخصى... كذلك في لغة الفن يجب أن نقول: «ليس للناقد أن

يحكم بميله ؛ ذلك أن الناقد يجب أن يحكم على الأثر الأدبي أو الفني ، بناء على قيمته الذاتية ، لا بما يميله عليه مزاجه الخاص . . . فالناقد الذى يكره مثلاً شعر المديح ؛ إما أن يمتنع عن نقد قصيدة فى المديح ، وإما أن يتجرد من بغضه للنوع ، ويزنها بميزانها فى نوعها . . . ولكن ليس له أن يسبها لمجرد أنها فى المديح ، وهو يكره هذا النوع من أنواع الشعر . . .

هذه الصفات والملسكات لو توفرت فى بضعة نقاد ، فإنهم يستطيعون أن يقيموا ميزان النقد الفنى على نحو منتج . وبقيام هذا الميزان فى أدب من الآداب ، يقوم صرحه شامخاً على أعمدة الزمان .

في محال السبيل

الباب الثاني

الأدب العربي وتجدره

الأدب العربي حافظ لروحه دائماً على
الرغم من تجدد منابع إلهامه ، وتغير مظاهر
أثوابه . ومن ينظر إليه بعين جديدة
يصوره دائماً جديداً . . .

أثواب الأدب العربي

طالما قلت : إننا لو تأملنا الآداب القديمة ، لوجدنا أنها قد عاصرتها فنون كبرى :
فصنعت القديمة والهند والإغريق والرومان ... الخ ؛ — كانت المعابد العظيمة ، والتماثيل
الرائعة فيها « خليقة » ، أن يعاصرها أدب ، يضارعها في قوة البناء ، ودقة التركيب ،
وروعة الفن : (الملاحم ، والقصص ، والتمثيل) ولكن الذي حدث في تاريخ
الأدب العربي ، كان غير ذلك . لقد نشأت لغة نضرة زاهرة ، في بيئة قحلاء
وسط الصحراء ، ولقد كان أقصى ما عاصر لغة « امرئ القيس » أو « لبيد » أو
« زهير » من مظاهر الفنون الأخرى ؛ — تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر ،
لا يجرؤ أحد أن ينسبها إلى الفن ، في قليل أو كثير . ولعل هذا من مفاخر اللغة
العربية ، أن نراها قد برزت وحدها هذا البروز بين الرمال ؛ كأنها عرّار أو
أقحوان ، ولعل الفضل في ذلك راجع إلى الشعر ؛ فالشعر زهر قد ينبت في الخلاء ، أما
النثر فيحتاج في نموه ، إلى العمران ... لكن جاء العمران بعد ذلك ، بظهور
الإسلام ، وتكونت حضارة إسلامية ، واسعة الأرجاء ، فأقيمت المساجد
الجميلة على أنقاض الهياكل القديمة ، وشيدت القصور ، وملئت بالبدايع والطرائف
والتحف ، وتقدمت الصناعات ، وازدهرت الفنون ، وابتلعت الحضارة الإسلامية
في جوفها كثيراً من الحضارات ، ومع ذلك ، لم يحاول الأدب العربي أن يزيد
في قوالب نثره ، أو أن يساير تلك الفنون المعاصرة ، ولم يخرج — في الناحية
الإنشائية — عن ثوبه المعروفين ، وهما : « الرسائل » و « المقامات » .
والمقامات أعمال قصصية ، ، قمد بها سرد حكاية ، وتصوير أشخاص ، ولكن

الإغراق في الوشى اللفظي، والاحتفال بالوضع اللغوي؛ — صرف الكاتب عن التعمق في التحليل، والإفاضة في السرد، والإجادة في البناء. فالأدب العربي الإنشائي في تلك الأزمان، قد عني باللفظ أكثر مما يجب، ولم يشأ أن ينزل عن تكلفه الذي يعتبره فصاحة وبلاغة؛ ليصور ما يحيش في نفس الشعب من إحساس، وما يهيجه من خيال.

وهنا حدث أمر عجيب: فروح الشعب لا يقهر... هذا الشعب في عصور الحضارة الإسلامية المختلفة، قد تعطش للون جديد من الأدب غير لون البداوة الأولى، لون من الأدب مستمد من إحساسه بالحياة الجديدة المتطورة المتغيرة... أدب جديد قائم على فن مسائر للفنون الزاهرة المعاصرة. فلما لم يشأ أدباء الفصحى أن يمدوا الناس بحاجتهم، لجأ الناس إلى أدباء من بينهم لا يملكون أداة اللغة، ولا جمال الشكل، ولكن يملكون السليقة الفنية وروح الخلق... وهنا ظهر الأدب الشعبي... فما ظهور الأدب الشعبي أحياناً إلا علامة قصور، أو تقصير من الأدب الرسمي، أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء.

هكذا ظهر القصص الشعبي العربي في صورة «عنترة» و«مجنون ليلى»، وسارت الحضارة الإسلامية، فسار معها الأدب الخيالي الاجتماعي الشعبي، فإذا نحن أمام عمل فني رائع هو «ألف ليلة وليلة»... ثم نبت في كل شعب من شعوب الإسلام قصصه التي تطبعه بطابع عصره: فكان في مصر قصة «أبي زيد الهلالي» و«سيف بن ذي يزن» و«الظاهر بيبرس» وغيرها وغيرها إلخ...

ومن الغريب أننا إذا تأملنا «التصميم» الفني، والبناء الروائي لهذا الأدب الشعبي وجدناه من حيث الفن — لا اللغة — هو السائر في الطريق الصحيح، محاذياً تلك الفنون والعلوم التي ظهرت بظهور الحضارة الإسلامية ولقد كان من المستغرب

حقاً للباحث أن يرى هذه الحضارة ذات فنون وعلوم، ولا يجد في أديها آثاراً إنشائية تماثل ما عند جيرانها، حتى كادت تهتم العقلية الإسلامية بعقم خيالها. ولكن الأدب الشعبي الإسلامي صحيح الوضع أمام التاريخ، وأثبت أن حضارة الإسلام سارت في مجراها الطبيعي، مع فارق واحد: وهو أنه في الحضارات الأخرى: مثل الهندية أو الفارسية أو الإغريقية، كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقين لتلك الآثار. أما في حضارة الإسلام: فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة أدباء الشعب وشعرائه، ووقفوا بعيدين عن كل تعبير أو ابتكار... حتى القرآن، ما حاولوا أن ينتفعوا به انتفاعاً فنياً: فلقد أتى القرآن بجديد في فن الكتابة—لا اللغة وحدها—بل القصص والأساطير. لقد استخدم «الفن القصصي» في التعبير عن المرامي الدينية. ولكن المدهش أن الأدب العربي لم ير في القرآن إلا نموذجاً لغوياً... ولم ير فيه النموذج الفني. فلم يخطر له استلهام قصصه، أو استغلال أساطيره استغلالاً فنياً مستفيضاً... إن وحي الأدب العربي لم يرد أن يتحرك... لا إلى أعلى، ولا إلى أسفل... لانحو القرآن، ولانحو الشعب. غير أن من الإنصاف أن نستثنى واحداً من أعلامه، هو «الجاحظ»، فهذا الكاتب شمر بالخطأ، فسلك مسلكاً آخر، ونزل إلى الشعب يستوحيه، ويصور أسواقه وبجلائه ولصوصه وتجارته وشرفاءه وخبثاءه، في أسلوب بسيط حتى، يعد مثلاً طيباً للنثر التصويري في عصور الحضارة العربية، وهو بعينه الأسلوب الذي أثار على «الجاحظ» المسكين نقد المنتطعين من أدباء عصره، فرموه بالعامية والركاكة والابتذال. ونستطيع أن نستثنى أيضاً بعض الجانب الفني لمقامات «الحريري» و«بديع الزمان». فهذه المقامات من حيث رسم أشخاصها، وتصوير المجتمع في عصرها تكاد تعطينا أحياناً صوراً ناطقة على صغرها: كأنها صور «المنياتور» الفارسي. ولم يفسد هذه الآثار الفنية

إلا أسلوبها اللغوى ، وكأنها لم تكتب إلا لإبراز رصانة اللغة ، وثناء اللفظ ، وبراعة السجع . أما الخلق الفنى فلم يخطر — فيما يظهر — للكاتبين على بال .

وهكذا انطوت قرون ، وما زال هذا السد قائماً بين النثر العربى ، بسجعه وبلاغته المصطنعة ، وبين خيال الشعب ورغباته وآماله . . . ولو أن أدباء الفصحى هدموا هذا السد من قديم ، ونزلوا عن بعض جمودهم ، وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم : — لكان الأدب العربى اليوم فى مقدمة الآداب العالمية ، فهذا الأدب بما لديه من قرآن عرف القصص والأساطير ، وما راج فى مجتمعه من أشباه « عنتره » و « ألف ليلة وليلة » ، وما وضع فى لغته من « مقامات » تعد أساساً لفن الاقصوصة : — هو أحق من يزعم للآداب الأخرى أنه أحد أساتذة الفن الروائى . لكن وأسفاه . . . إنه الأدب الرسمى اللغوى ، قد وقف حائلاً دون مجرد الاقتراب من كنوز الشعب ؛ كأنما هى شىء مزر بمقام فضلاء الأدباء : لهذا لم نجد أديباً عربياً جرؤ على النظر فى كتاب « ألف ليلة وليلة » مستلهماً منه . متغاضياً عما فى لغته من قصور . . . لأن الأدب فى عرفهم مرادف اللغة الفصحى المنمقة الرصينة المتحذقة . حتى أتى « الجاحظ » بتجديده : محاولاً منذ قرون تغيير تلك الفكرة قليلاً فى مسألة اللغة والتصوير الشعبى ، ولكن التجديد والجمود يتعاقبان فى الأمم والآداب والفنون : تعاقب النهار والليل . ومنذ أن وطئ « المغول » بسنابك جيادهم حضارة الإسلام ، والأدب العربى يعيش فى ذلك الليل الطويل .

إلى أن طلع أخيراً فجر العصور الحديثة ، فبزغت أشعة التجديد مرة أخرى . فإذا نظرنا الآن إلى الأدب العربى فى رده الحديث ، أى منذ انتهاء الحرب الكبرى الأولى حتى اليوم : — رأينا ظاهرة تسترعى الالتفات . . . هى استئناف

الاتجاه الذى بدأه « الجاحظ » ، ولكن على نطاق أوسع ، وبخطوات أسرع . فالأسلوب الكتابى قد تحرر نهائياً من السجع ، وتخلي عن الوشى اللفظى ، وانطلق إلى البساطة والسهولة والمرونة . والوحى الفنى لم يعد يفرق بين مصدر الخاصة ومصدر العامة ؛ فقد تحطم السد بين الأدباء الرسميين ، والأدباء الشعبيين فى نظر أدباء هذا العصر .

وإذا نحن نرى الشعراء ... يستلهمون القصص الشعبى العربى القديم فيما ينظمون ، ونرى الأدباء يستوحون « ألف ليلة وليلة » فيما ينشئون ويدرسون . كما أن إهمال القدماء للأساطير الإسلامية فى القرآن وغيره قد صحح ، واتجه الأدب اليوم إلى استغلال هذا المصدر استغلالاً فنياً ... !

على أن المهم ، فى كل ذلك ، هو استخلاص الصفة المميزة لاتجاه الأدب العربى فى ردائه الحديث ، وإن استخلاص ذلك ليس بالأمر السهل ؛ فإن النظرة العجلى توقع فى الخطأ ... ولقد خدع بعض المستشرقين والباحثين بمظهر بعض قوالب هذا الأدب ، وخصوصاً قوالب القصص والتمثيل ؛ فأسرع يقرر أن الصفة المميزة لهذا الأدب اليوم هى تأثره المطلق بالأدب الأوربية ... والنظرة المتعمقة ترى أن الأدب العربى — ككل أدب حى — لم يغمض ولا يستطيع أن يغمض عينه عن الحضارات المحيطة به ... ولقد فعل ذلك فى كل أطواره الغابرة . فتأثره ، فيما مضى ، بالثقافة الهندية والفارسية والفلسفة اليونانية ، لا يقل عن تأثره اليوم بالثقافة اللاتينية والانجلوسكسونية ... ذلك أن من الحق أن نطالب أدباً بالاحتفاظ دائماً بردائه القديم ، أو نطالب شخصاً بأن يبقى على جسده ثوبه العتيق ؛ حتى نستطيع إذا قابلناه أن نميز شخصيته . هنالك فرق بين الشخص والرداء ، والأدب العربى محتفظ بشخصه وروحه دائماً

على الرغم من تغير أريدته بتغير الأزمان . فهو في نظر الباحث المتعمق يسير سيره الطبيعي ... والطبيعي هو أن يرتدى ثياب عصره ، ويخرج في زى زمانه ... فلا يسخر منه أحد ويقول : إنه يرتدى في القرن العشرين ثيابا تاريخية كالممثلين ... كلا... إنه يعيش عصره مع العالم ، ويرتدى الزى العالمى المعاصر ، ولكنه — برغم ذلك — يحتفظ دائماً بجنسيته وروحه وتفكيره ، وذاكريات ماضيه ومشاعر نفسه ... نعم ... إن الفرق كبير جداً بين الروح والرداء ... وآداب الشعوب الحية اليوم كصورتها : رداء واحد ، وروح مختلف ...!

الجاحظ وعصرنا

قلبا يحتفظ الإنسان بشيء من آثار الصبا؛ فإذا عشر على أثر من تلك الآثار — وقد وخطه الشيب؛ — كان لذلك في نفسه أجمل الوقع... وإني لكثرة التنقل في الحياة، وبعد الشقة في الزمن، قد فقدت كثيرا من آثار صباي... ولكنني عجبت ذات يوم، وقد وقع في يدي كتاب لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ... كتب على جلده اسمه فوق عبارة: «سنة أولى فصل أول»، بخطى الذى كان لى في ذلك الوقت... وما رأيت أنه مختلف كثيرا عن خطى في هذه الأيام... لقد فرحت بذلك الأثر. ورجعت بفكرى القهقرى، وأنا أتساءل: أحقا كنا نقرأ الجاحظ في مثل تلك السن؟!... أغلب الظن أن هذا الكتاب لم يكن من مقررات المدارس في ذلك العهد... إنما هو نوع من المطالعات الخاصة التى كنا نغرق فيها خارج الدرس... ذلك أنى لم أنس صفحة من صفحات هذا الكتاب الذى كنت أقرؤه كثيرا، في ذلك الحين، مع ما كنت أقرأ من آثار الأدب القديم. والحق أن الجاحظ — وقدمضى على وفاته أكثر من ألف عام — هو الأستاذ المباشر لأكثر رجال القلم في الأدب العربى المعاصر؛ لأنه رفع علم التجديد، وعلم الكتاب أن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر، لا وشى من اللغو، ولا بضاعة من الزخرف، يراد بها اللهو... وإني لموقن أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر، لما أنكر كثيرا من الأساليب التى ينشئ بها كتاب اليوم أفكارهم... بل إنه، لفرط صدقه في تصوير نفسه وعصره، وصراحته في التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفي

الناس ؛ — قد لا يرى إلا تغييرا يسيرا في المحيط الأدبي ، لا في الشرق وحده ، بل في كل مكان وزمان ، يوجد به أدب وأدباء ، وكتاب ومؤلفون ... ولنستمع إليه إذ يقول بلغته ، التي كان يكتب بها منذ عشرة قرون : « ... اني ربما ألقت الكتاب المحكم المتقن : في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ؛ فيتواطأ على الطعن فيه ، جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ... وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفا للملك ، معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والخط والرفع ، والترهيب والترغيب ؛ فإنهم يحتاجون عند ذلك احتياجا للإبل المغتلة ؛ فإن أمكنتهم الحيلة من إسقاط ذلك الكتاب ، — عند السيد الذي ألف له ؛ — فهو الذي قصده وأرادوه ... وإن كان السيد المؤلف له الكتاب نحريرا نقابا وحاذقا فطنا ، وأعجزتهم الحيلة ؛ سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألقوا من أعراضه وحواشيه كتابا ، أهذوه إلى ملك آخر ... وهم قد ذموه وثلبوه ، لما رأوه منسوبا إلى ، وموسوما بي ... وربما ألقت الكتاب الذي هو دونه في معانية وألفاظه — فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره ؛ مثل ابن المقفع ؛ — فيأتي أولئك القوم الطاعنون على الكتاب ؛ الذي كان أحكم من هذا الكتاب — لاستنساخه وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماما يقتدون به ... ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ؛ لأنه لم يترجم باسمي ؛ ولم ينسب إلى تأليقي ... الخ ما الذي تغير اليوم من هذه الصورة ، وما الذي بقى ؟ ما من ريب في أن الغرائز البشرية التي وصفها الجاحظ ، لا سبيل إلى زوالها ...

فلقد استولت على النفوس ، اليوم أيضا ، روح الاستهانة بالمثل العليا ... وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة ... ما من أحديريد أن ينقطع إلى

علم ، أو يتوفر على فن ... إنما السكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة ! ... فلم يعد للكثيرين جلد على درس ، أو صبر على كدح ... وبعضهم لا ينظر إلى الجهد الذى يجب أن يبذل ، ولكنه يبصر المراتب التى يجب أن يرقى إليها ؛ لا يريد أن يضيع وقتاً فى الغرس البطيء ، والإعداد الطويل — ولكنه يريد الثمرة عجلاً متلهفاً ... لذلك قل الاطلاع العميق ، وندرت القراءة المجدية ؛ فاختلفت الموازين ، وفست القيم ! ...

يضاف إلى ذلك شعور بالنقص ، وضعف فى الثقة بالنفس والجنس : فالفكرة المنسوبة إلى أوربي تحترم بغير بحث ، والفكرة المنسوبة إلى مصرى أو شرقى تهمل بغير فحص ... كما أن اختلاف الثقافة : من كيف وكَم ، وتباين العقلية : من قديم وحديث ، أو سطحي وعميق ، وتضارب الأذواق : من سلامة وسقم ، أو ارتفاع وانحدار ؛ كل ذلك يجعل مهمة الأدب الجدى اليوم عسيرة ، ويضيق نطاق الجديرين بالنظر فيه ...

ذلك هو العصر الذى نحياه ... وما أرى « الجاحظ » إلا راضياً عن نفسه ، قانعاً بمصيره ، لو أتبع له أن ينظر إلينا اليوم من غابر زمانه ! ...

فن جديد عند الجاحظ

خيل إلى — وأنا أقرأ كتاب «التربيع والتدوير» للجاحظ — أنه يصنع فناً طريفاً في زمانه ، دون أن يدري ؛ فقد أراد أن يصف رجلاً يعرفه ، ويتهكم عليه... فأمسك بالقلم وخط له صورة — لو كانت بالرسم ، لا بالبيان ؛ لأطلق على عمله الآن : اسم « الكاريكاتور »...!

ومن مفاخر « الجاحظ » : أن يكون تصويره بالنثر — بذلك قد يفوز في هذا المضمار بالسبق ؛ لأن فن « الكاريكاتور » في الرسم قديم ، عرفه التاريخ منذ عرف فن الرسم والتصوير ؛ فإن مضحكات البشر وحقاقتهم وعيوبهم وسوءاتهم ، ورغبة البعض في الضحك من البعض ؛ — كل هذا قديم قدم الإنسانية نفسها... فكما عرف الشعراء منذ القدم كيف يهجون ، عرف الرسامون كيف يسخرون!... ولقد وجد فن « الكاريكاتور » منقوشاً على الأواني الإغريقية ؛ كما وجد منقوشاً على جدران « الهركيولانوم » ، وفي « بومي »... بل لقد عثر عليه في آثار مصر القديمة .

أما في مجال الكتابة : فإن أقرب الأساليب شبهاً « بالكاريكاتور » ، قد نجده في القرن السادس عشر... قد نجده في كتاب « الأحلام المضحكة » لرابليه ، وقد نجده في كتاب « تمجيد الحماقة » لأيراسم... وغير ذلك من الكتابات التي تهدف إلى إبراز ما تخفيه طبائع الناس ومظاهرهم من مثالب... إذا صدق ظني ؛ فالجاحظ إذن من أسبق الكتاب إلى التصوير الكاريكاتوري.

لقد ظهر — قبله بالطبع — كثير من الهجائيين؛ شعراء كانوا أو ناثرين ولكني أعتقد أن الهجاء شيء، والكاريكاتور شيء آخر... إن في كل «كاريكاتور» نوعاً من الهجاء، ولكن ليس في كل هجاء نوع من «الكاريكاتور»!... إنك بالهجاء تريد أن تنال من تهجو: بالحق وبالباطل، بالحقيقة أو بالافتراء؛ دون أن تقصد في كل الأحوال أن تثير فينا الضحك منه، أو تظهرنا على مواضع فيه، باعثة على العبث به والتندر عليه!... كل همك في الهجاء: أن تزرى بخصمك، وأن تطعنه في عزته وكرامته ومواطن رفعة وقوته. أما في «الكاريكاتور»: فإن غرضك الأول، هو أن تبحث عن الغلطة المحسوسة في تكوينه الجسماني، وأن تنقب عن السقطة الملحوظة في تركيبه النفسي، وأن تفتش عن الخلة الممقوتة في طبعه الخلقى — حتى إذا عثرت على شيء من ذلك، وأنت لاشك واجد في أغلب الأحيان: — بادرت إلى قلبك أوريشته؛ فقامت تمنع في تجسيم هذا العيب وتضخيمه، وإبرازه على نحو يجعله في نظر الرائي أو القاري طاغياً على ماعداه من صفات!... فلا يقع البصر أو الذهن إلا على العيب وحده. قائماً؛ كأنه هو الشخص كله، وليس للشخص سواه من قوام أو كيان أو وجود... ولنصغ إلى «الجاحظ» حيث يقول في كتابه عن ذلك الرجل الذي جعله فريسة لتصويره: «كان أحمد بن عبد الوهاب مفطر القصر، ويدعى أنه مفطر الطول. وكان مربعا وتحسبه؛ لسعة جفرتة واستفاضة خاصرته مدورا. وكان جعد الأطراف، قصير الأصابع؛ وهو في ذلك يدعى البساطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة، تام العظم. وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ؛ وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل النجاد، رفيع العماد، عادى القامة، عظيم الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم، والسعة في العلم. وكان كبير السن، متقدم الميلاد، وهو يدعى أنه معتدل الشباب، حديث الميلاد... الخ...»

وعلى هذا النحو يمتضى « الجاحظ » يصور لنا ذلك الرجل تصويرا ، لا يريد به هجاءه ؛ بقدر ما يريد به إضحاكنا منه ! ... وهذا هو روح فن « الكاريكاتور » ... على أن من الشعراء من أتقن ذلك اللون بشعره أكثر مما أتقنه « الجاحظ » بنثره ... وكلنا يذكر لابن الرومي تلك الأبيات ، التي يصف بها رجلا أحذب :
 قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه مترقب أن يصفعا
 أو أنه قد ذاق أول صفعه وأحس ثأنية لها فتجمعا

وهكذا زاول العرب فن « الكاريكاتور » شعرا ونثرا ؛ حيث لم تنتج لهم الظروف أن يزاولوه رسما ونقشا ... كل شيء خطر على بال عبقريتهم ... وإنهم ليعرضون دائما ما يفوتهم في جانب ، بالإجادة في جانب آخر ! ... قانون التعويض الطبيعي كان رائدهم الخفي في حضارتهم ... حضارة كاملة شاملة ، آن للغرب الظالم المححف أن ينظر إليها بعين التقدير والتوقير ! ...

نظرة حديثة إلى أبي العلاء

ما من شيء كان يخلب لب الشرقي في «باريس» مثل مناظر الرقص في مسرح «الغولي برجير» أو «الطاحونة الحمراء»... هنالك ترى عيناها الستار، قد انفرج عن جنة من ورق، نضرت الأصبغ، وأنعشت الأنوار!... قامت فيها أشجار، تتساقط من بين أغصانها حور عاريات، يهبطن المسرح راقصات مغنيات... لا ذلك الرقص الذي نراه في بلادنا مقصورا على هز الثدي والأرداف، ولكنه رقص هو إلى الشعر أقرب؛ فما مجموعة الراقصات هناك إلا بيت من الشعر!... كل امرأة فيه كلمة!... وكل كلمة ذات معنى خاص من حسنها الذائق!... وإذا الكلمات أو الراقصات يتجمعن في عبارة من حركاتهن المنسقة، لها معنى أشمل وأعم؛ كعنى بيت منظوم له روى ونغم!... كنا نشاهد ذلك عقب الحرب العالمية الأولى، ونقول في أنفسنا معجبين: بالخيال الغرب!...

لقد أنستنا براعة الإخراج ما في بطون الكتب!... ذلك أن العجب الأكبر هو أن «أبا العلاء المعري» تخيل أكثر من ذلك منذ ألف عام!... ولنرجع إلى تصوره لحدائق الحور، ورقص الحور في «رسالة الغفران»، ولنصغ إليه حيث يصف: «ويمر ملك من الملائكة فيقول: «يا عبد الله! أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: «إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكارا، عربا أترابا، لأصحاب اليمين»...؟

فيقول الملك : « اقف اترى » ! ... فيتبعه ، فيجىء به إلى حدائق ، لا يعرف
 كنهها إلا الله . فيقول الملك : « خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ؛ فإن هذا الشجر
 يعرف بشجر الحور » ! ... فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة — أو ما شاء الله
 من الثمار — فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ... إلخ ... ومضى ، أبو
 العلاء ، يروى أن « الخليل بن أحمد » دخل الجنة ، وكانت له آيات تصلح لأن
 يرقص عليها ... فأنشأ الله شجرة من الجوز ، تونع لوقتها ، ثم تنفض عددا من الثمر ..
 تنشق كل جوزة منه عن أربع جوار يرقن الرائين ؛ يرقصن على آيات « الخليل » :

إن الخليط تصدع	فطر بدائك أوقع
لولا جوار حسان	مثل الجآذر أربع
لقلت للظاعن اظعن	إذا بدا لك أودع

أ كان ينقص هذا الخيال غير مخرج يقيمه فوق مسرح ؟ ! . ولكن الذى
 يدهشنى حقا ، هو أن فكرة « أبى العلاء » عن الرقص لا نرى لها أثرا فيما ورثناه
 من ذلك الفن . . . لقد كان ذلك الضير مثل ، « هوميير » ؛ يتخيل الأشياء فى سموها
 وعلوها ، لقد استطاع أن يرى فى الرقص على ما ينبغى له من نبل وارتفاع ... !
 ولكن المحيط الاجتماعى فيما اعتقد هو الذى طبع الرقص الشرقى بهذا الطابع الذى
 نعرف ؛ فقد كان هذا الفن — مما تزاوله الجوارى — لا يعرض أمام الجماهير ، فى
 مكان رحب ، ولكن ليعرض أمام مولى أوسيد ، فى لحظات أنس وممتعة ، فى خدر
 من الخدور ، أو مجلس من مجالس الشراب والسرور ... ! هذا المكان الضيق ،
 وهذه الظروف الخاصة حددت شكل ذلك الذى نسميه اليوم بالرقص الشرقى ...
 فكان مجاله — كما نرى — جسم الجارية ، والحركة فيه لا تتعدى حركة أعضائها ؛ فالراقصة
 بلحمها وحده : هى كل مدار الرقص ، وكل مسرحه ! ... ومعانى قنفا لا تتجاوز

إبراز محاسن أعضائها؛ على النحو الذى يروق لرجل فى يده كأس... أما الرقص الغربى فقد ورث أصوله عن الإغريق... والمجتمع الإغريق عرف الرقص فنا يعرض فى الهواء الطلق أمام الجماهير... وكان لشيوع الألعاب الرياضية «الجمناز»، وازدهار النحت، و«التراجيديات» أثر - ولا ريب - فى طبع الرقص الإغريق بذلك الطابع الذى ترى صورته اليوم على بقايا الأوانى، وأفاريز المعابد!... رقص ليس المجال فيه جسم الراقصة وحده، بل حركة ذلك الجسم - فى إطار المكان - وليس رويه ونظمه ونغمه فى التناسق، بين حركة ردف وبطن، بل بين تماوج راقصة وراقصة!... فى الرقص الشرقى، يدور الحوار دائماً، بين عضو وعضو فى جسم راقصة!... أما الرقص الغربى، فالحوار يدور بين الراقصة والهواء، وبين مجموعة من الراقصات والفضاء!... وإن الأذرع والسيقان والأقدام لتتخرج وتتماوج ولكنها لا تفقد أبدا الصلة بينها، وبين الطبيعة المحيطة بها من أرض وفضاء... إن الراقصة الشرقية دائماً فوق الأرض؛ كأنها فى الطين مغروسة. أما الراقصة الغربية: فكانها تريد أن تثبت أنها تمشى فى الهواء مرتفعة عن الأرض؛ فهى تخطو على أطراف الأنامل، وتثبت كأنها جواد!...

إن الصلة بين الجواد والراقصة يلحها كل من نفذ إلى روح الرقص... لقد حدثنا «بول فاليرى» - فيما حدث - عن المصور «دجاس»، الذى حذق تصوير راقصات «الباليه»؛ - أن ذلك الفنان لم تغب عنه تلك العلاقة بين الراقصة والجواد؛ فقد كان يدرس خيل السباق فيما يدرس من مصادر فنه!... فالجواد هو الآخر يمشى على أطراف حوافره متبخترا؛ أنامل أربع تحمله!... ما من حيوان غيره يشبه الراقصة الأولى فى مجموعة «الباليه»!... ولقد ذكر لنا أن «دجاس» وصف جواداً بيت من الشعر قال فيه: «عصبى المزاج، فى عريه الكامل، وثوبه الديباج»!

هنا أيضاً نجد شعراء العرب قد فطنوا إلى ذلك الشبه ، وتلك الصلة ، وقالوا
في الجواد مثل ذلك قبل قرون ... وها هو ذا « البحترى » يقول :

جذلان تحسده الجياد إذا مشى
عنقا بأحسن حلة لم تنسج

وقبله قاله « زهير » :

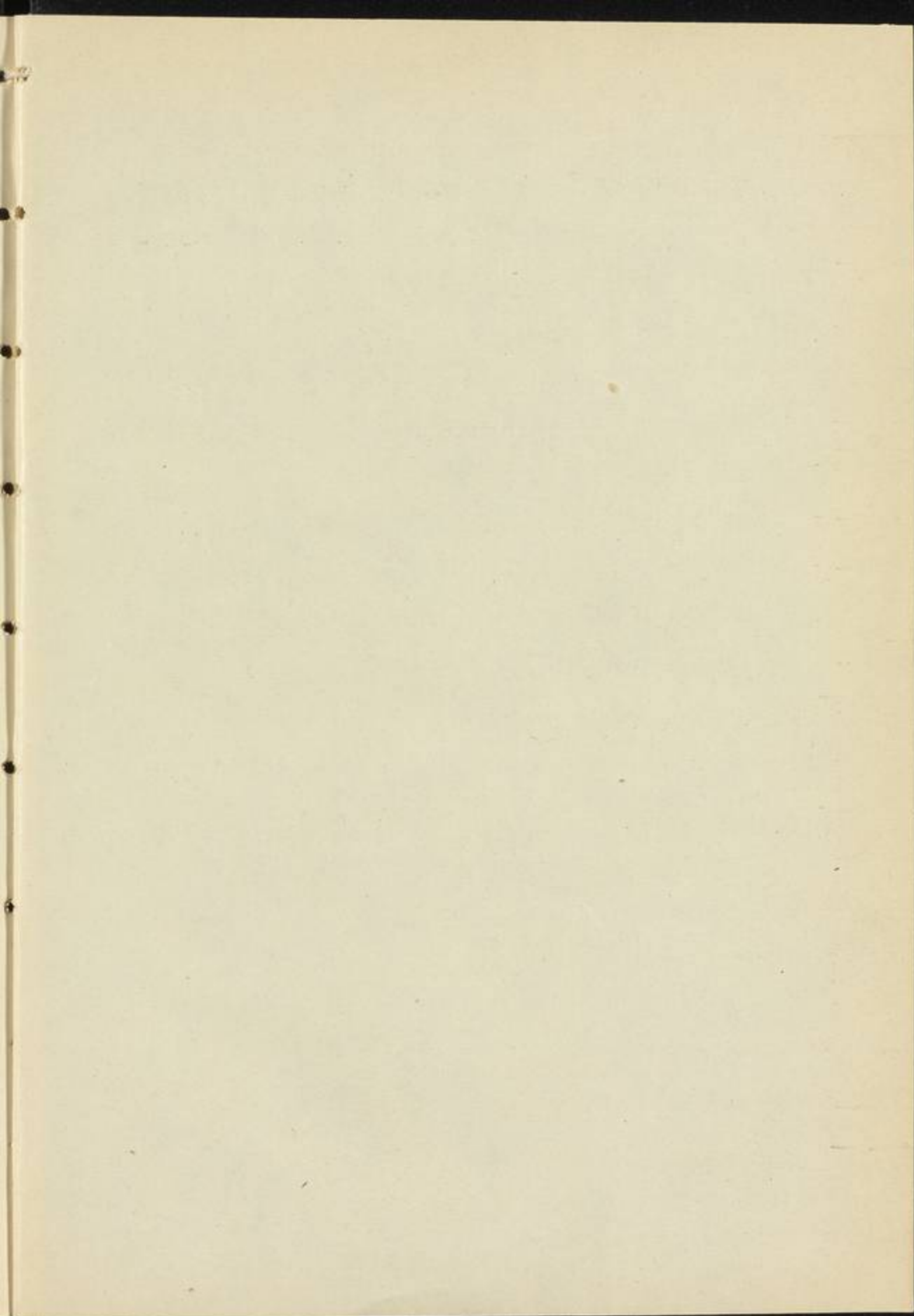
وملجمننا ما إن ينال قذاله
ولا قدماه الأرض إلا أنامله

كما قال ، كذلك « ابن المعتز » :

إذا مال عن أعطافه قلت شارب

عتاه بتصريف المدامة طافح

ما قصر شعراء الشرق إذن في فهم روح الرقص ، ولكن الذى جنى على هذا
الفن هو روح المجتمع الشرقى ! ... لولا ذلك ، لكان « أبو العلاء المعرى » هو خالق
« الباليه » الأول ...



الباب الثالث

الأدب والفن

إذا كان أحدهما الكأس
فالأخر الحجر ! . .

مع فن الطفولة

إذا أردت أن تعرف : ماهو أروع صوت كان يبهـر مشاعرنا، ونحن صغار؛ فاعلم أنه صوت الطبلـة...! لا طبلـة الجيش المظفر، يسير تحت نوافذنا مـشور البنود، ولا طبلـة حراس « المحمل »، تدق من فوق الجمال المزوقة، ولا حتى طبلـة «المسحراتي» في ليالي «رمضان» الساحرة؛ بل طبلـة صغيرة متراضعة... هي طبلـة «الأراجوز»، إذا اقترب من حيننا...

عند ذاك ترى العجب: أفواجا من الأطفال، يخرجون من بيوتهم ركضا؛ كأنهم جنود، يهبون من ثكناتهم على دقات طبل «الطابور»...! ويحتمون كأنهم في تلك الساحة، حيث ينصب «الأراجوز» مسرحه الضيق المرتفع...! يتطلعون إليه بعيون شائعة، وأبصار زائغة؛ ينتظرون ظهور تلك الأشخاص المتحركة المتكلمة الصاخبة، أو تلك التي نسميها نحن الكبار الآن: دُمى...!

لا أنسى ذلك اليوم الذي هـرعت فيه إلى الساحة، على صوت تلك الطبلـة، وفي ذيل جاري الطفل «عطية»، وقد كان أصغر مني بنحو عامين؛ يركض يركوضى، ولا يدري أين نذهب!...

فقد كان ذلك اليوم أول عهده بروية «الأراجوز»...

وقمنا ننتظر محمليين بين الجموع، حتى دبت الحياة في المسرح الصغير، وظهرت على خشبته دمية، تمثل شخصية امرأة «شرقاوية»؛ بملسها الأسود، وبرقعها الكشيف المحلى بالجزع والخرز... فما أشعر إلا ويد الطامل «عطية» تجذبني جذبا عـنيفا...!

ولقد نسيت في تلك اللحظة أن له خالة من أهل الشرقية ... فلم أعره بالا ... إلى أن
يئس مني ، فتركني وجرى مخترقاً الصفوف ، حتى وقف بأسفل المسرح ، فرفع رأسه
إلى تلك « الشخصية » ، وصاح بها في نبرة جد أعرفها منه :

— خالتي !... خالتي « أم خميس » !... !

وظن مخرج « الأراجوز » أن الطفل يعابثه ، فجاراه قائلاً بلسان الدمية :

— نعم يا بني !... !

فصاح الطفل :

— أمي بتسلم عليك !... !

— أمك مين ؟ ..

لفظتها الدمية بلمحة ساخرة ، لم يدركها بالطبع الطفل ، ومضى يجيب بكل جد :

— أمي ... « أم عطية » !... !

— سلم لي عليها !

قالتها الدمية على عجل ، فقد ظهرت عند ذاك دمية أخرى ، تمثل خفيراً

يحمل هراوة ضخمة ، اقترب من « الشرقاوية » وقال لها : « امشي من هنا يا ولية !... »

وأشبعها سباً وشتماً ، وانهاى على أم رأسها بنبوته ضرباً ، فلم يكد الطفل « عطية »

يرى ذلك ، حتى بكى بدمع سخين ، وترك الجمع ، وجرى إلى بيته صائحاً :

— أمي !... أمي !... الخفير نازل ضرب بنبوته في خالتي « أم خميس » !... !

فنهضت أمه دهشة مستغربة :

— خالك « أم خميس » !... هي فين ؟... دى في الريف... وإيش جابها مصر ؟!

— لا ... دى هنا ... وقالت لي سلم على أمك !... وطلع الخفير طردها وضربها

بالنبوت !... !

— ويطردها ليه؟ ويضربها ليه؟ ... هو له ضرب عليها؟ ! تعال يابني وريني

هي فين؟ !

وقامت إلى ملامتها، فتدثرت بها، وأمسكت بيد ابنها «عطية»، وخرجت النجدة
«أم خميس» ...

ومشيا مسرعين حتى بلغا الساحة ... وهناك وقف الطفل ووقفت أمه بوقوفه،
وأدارت بصرها في المسكان ... فلم تجد غير «أراجوز» يلعب، وصبيان وعيال
محملين فيه مشدوهين ... فصاحت في ابنها:

— هي فين خالتك يابني؟

وكان الخفير لا يزال يضرب بهراوته رأس الشرقاوية، وهي تصيح وتولول،
وتبادل له لعناً بلعن وبذاءة ببذاءة، وتستغيث بالناس، ملوثة بذراعيها في الهواء! ...
فجذب «عطية» والدته من طرف إزارها، وأراد أن يخرق بها جموع الغلمان،
وهو يبكي ويشهق وينشج، ويشير إلى الشرقاوية الغريقة في شجارها مع الخفير،
مناديا إياها: «يا خالتي ...» صائحا بها أنه قد أحضر أمه؛ لإنقاذها بما هي فيه ...
وأدركت «أم عطية» الأمر وفهمت حقيقة الموقف، وخشيت أن تتعرض
لسخرية لاعبي «الأراجوز»، فخلصت طرف ثوبها من قبضة ابنها ... وقملت
راجعة إلى بيتها، وهي تتميز من الغيظ، وتقول مخاطبة نفسها:

— يامصيتي في عبط الولد! ... قال دى خالته «أم خميس»! ...

هل حقا هو «عبط» ما وقع من ذلك الطفل؟! ... لطالماطرحت على نفسي هذا
السؤال، ... بل تساءلت: ألا يستطيع مثل ذلك الطفل أن يميز — على الأقل —
بين الأحجام؟ ... لقد كان حجم تلك الدمى الصغيرة أضال بكثير من الحجم

الآدمي، وهو مع ذلك لم يحفل بالفروق، ومضى يعتقد ما اعتقد؛ ذلك أن الطفل لا يرى الأشياء بعينه، بل يراها بخياله... إن الحقيقة عنده ليست في الإطار الخارجى للأشياء، بل في المعنى الذى ترمز له... ليس يعنى الصبي أن يكون سيفه من صفيح أو حديد أو خشب... إنه سيف وكفى!... وإنه ليعطى هذا المعنى المجرد قوة أصلب من قوة المادة، وإنه ليس يعنى الصبية أن تكون عروسها من قطن أو ليف أو طين... إنما هى معنى يثير فيها غرائز الأمومة؛ فهى تحتضنها، وتضنى عليها من الأسماء والصفات ما يخيّل إليها أنها جسم حى؛ لذلك كانت حياة الطفولة أخصب من حياة الكبر؛ لأن الطفل - ذلك الساحر أو الفنان - يستطيع أن يقلب الصفيح حديدا، والقطن جسدا نابضا، والزجاج ماسا لامعا... لا قيمة عنده لحقيقة المادة... يمكن أن يمسها بيده لتصبح لها الحقيقة التى يريد... فطن إلى ذلك أصحاب «الأراجوز»، أو صندوق الدنيا؛ فتراهم لا يكلنون أنفسهم جهدا ولا نفقة ولا حذقا، فى إخراج دُمَاهم أو صورهم، على نحو متقن كل الإتيقان... لكأنهم يقولون لأنفسهم: «وما فائدة ذلك؟...» إن المخرج الحقيقى هو الطفل نفسه!... نعم... يمكن أن يظهر له قطعة من الخشب، رديئة الحفر والنحت والنقش، يلفونها فى خرقة سوداء قائلين: إنها امرأة شرقاوية وعلى الطفل الباقي!... إنه هو الذى يلبس هذه الخشبة لحما ودما، ويمنحها حجبها وروحا، ويخلقها إنسانا حيا يعرفه ويحادثه ويعيش معه!...

أما نحن الكبار فقد ضاعت منا القدرة على الحياة فى «المعنى»، ولم نعد نستطيع العيش إلا فى «المادة»... وقد انكشفت الحقائق فى نظرنا؛ فلم نعد نبصر غير حقيقة الإطار الخارجى للأشياء، ولم يعد فى مقدورنا أن ننفخ الروح فى شئ... لا بد لنا إذن من فنان - وما الفنان إلا إنسان احتفظ ببعض قوى

الطفولة — ينسج لنا أوهاما وأخيلة وصورا ، توسع لنا قليلا من أفق حياتنا المادية الضيقة .

يقرع صاحب « الأراجوز » طبلته ، وهو يعلم أنه سيجتمع حوله رهط من الفنانين الخالقين في صورة أطفال وصبيان ويعرض صاحب المسرح روايته ، حاشدا لها خيرة المؤلفين والمخرجين والممثلين ، وهو يوجس خيفة من أن يخفقوا في رفع جمهور الكبار ، من حياتهم الأرضية إلى عالم المعنى والخيال !

شاهدت في عام ١٩٣٦ رواية « فاوست » لجوته ، يخرجها في « سالزبورج » المخرج العظيم « ماكس راينهارت » وقد رأى — إغراقا في طلب الروعة — ألا يلجأ إلى مسرح أو مناظر أو ستائر ، بل شيد — بالحجر والآجر — مدينة بأكملها في سفح الجبل ، هي المدينة التي تجري فيها حوادث الرواية ، في القرون الوسطى ؛ بكنائسها الغوطية ، وحاناتها ، وبيوتها ، ونافوراتها ، وجعل الممثلين يتنقلون بينها كما لو كانوا يتنقلون في الحياة ، والنظارة على المدرجات — في الهواء الطلق — يشاهدون ثم حضرت بعد ذلك في « سالزبورج » نفسها رواية « الدكتور فاوست » لما رلو تخرجه أفرقة « أراجوز » على مسرح الكبار ولكن أي « أراجوز » !

لقد كانت الدمى فيه بنصف الحجم الطبيعي ، زاهية في ثيابها التاريخية تتحرك في مناظر خلابة ؛ من أشجار يانعة ، وبيوت ومدن ؛ تسلط عليها إضاءة ذات فن يحير العقول لقد كانت الجحيم التي تردى فيها « فاوست » ، تكاد ، من براعة الفن ، تكون جحيما حقيقية بنار ذات لهب ، والقارب الذي أوصله إلى مملكة الموت يسكاد يمح في أمواج ذات هدير ، والعفاريت بقرونهم ، والزبانية بشوكاتهم فن لم يترك مجالاً لخيال مشاهد . ولم يعتمد على مخيلة متفرج ولا عجب فهو يعلم أنه يتقدم إلى نظارة من الكبار !

لونان من الفن شاهدتهما في موضوع واحد وأسبوع واحد : أحدهما لجأ إلى الوسائل الكبرى ، والآخر لجأ إلى الوسائل الصغرى ؛ الأول أراد أن يثير خيالنا بأكبر قدر من الحياة ، والثاني بأكبر قدر من الصناعة . أولهما طرق باب تصورنا بما رآه يناسب حاضرننا ، والآخر توخى أن يحرك مخيلتنا بما يذكرنا بماضينا ! ...

ولكن هذه الجهود المشكورة — وإن كانت قد منحتنا المتعة الفنية — لم تستطع أن تجعلنا نعيش في خيالها أكثر من لحظات : هبطنا من عليائها بهبوط الستار ! ...

لا يستطيع الإنسان أن يعيش طويلا إلا فيما يخلقه ، هو بنفسه داخل نفسه ...

إن كل فنون الأرض اليوم ، لتعجز عن أن تجعلني أرى ما كنت أراه في دُمى « الأراجوز ، الرخيص ! ... »
وإن كل فرح الدنيا لا يثير في مشاعري ما كانت تثيره دقائق طلبته المتواضعة ، وهو يقترب من حيثنا ! ...

مع أهل الموسيقى

١

فن الموسيقى في « مصر » كما عرفناه منذ ثلاثين سنة ، كان يلعب في سمائه ثلاثة نجوم : « داوود حسنى » و « سيد درويش » و « كامل الخلعى » .
ولم تكن معرفتى وثيقة بسيد درويش ، ولكن رواية غنائية لى ، عرضت عليه ، فطلب فى تلحينها ستمائة من الجنيهات ! ... فرأت « الجسوقة » أنه قد سأل شططاً ؛ فسحبته منه ، وعهدت بها إلى « كامل الخلعى » الذى رضى بثلاثين ! ...
على أننا كنا نعيش فى ذلك الجو الفنى العجيب . الذى استطاع أن يخلقه « سيد درويش » ! .. كنا نتبع آثاره الجديدة فى كل مكان ، ونعرف أحدث ألحانه — قبل أن تذاع — من فمه أو أفواه من التقطوها عنه ، فى ليلة من ليالى وحيه المنهمر ! ... على أنى فى ذلك الوقت كنت أكثر اخفاء بما يخرج هذا الموسيقى المجدد ، فى النوع الجاد من « الأوبرا » و « الأوبريت » . وإنه لمن المحزن أن نرى الجيل الجديد اليوم يصغى إلى هذا الكلام دهشاً ! ... لا يتصور كيف ازدهر هذا اللون من الموسيقى فى الماضى ، ومات فى الحاضر ؟ ! ...

* * *

كانت أغاني « سيد درويش » وألحانه الشعبية تسرى فى الناس كالنار فى الهشيم ! ... ولكنى ما كنت أرى منه ، أن هذا هو الذى يملؤه بالفخر ؛ فقد كان تواقفاً إلى الفن فى صورته العليا ! ... وإنه لعجب أن يكون لمثل « سيد درويش » بثقافته

البسيطة صورة عليا للفن! . أتراها غريزة الفنان الأصيل ، تدفعه إلى البحث والغوص فيما وراء السهل والضحل من أشكال الفن ؟ ...! ربما كان الأمر كذلك ؛ فسيد درويش لم يمكن بالفنان الذي يكتب بالإنهام ، ويقعد عن التحصيل ! ... لقد رأيت « سيد درويش » بعيني ، يأتى معنا إلى « تياترو الكورسال » ؛ ليشاهد جوقة الأوبرا الإيطالية ، تعرض « توسكا » و « مدام بترفلاي » لبوتشيني و « البلياتشو » لليون كافللو ! ... فقد كانت « دار الأوبرا » فى ذلك الوقت ترفا يستطيعه سائحونا ، ولا تطبيقه جيوبنا ، وكان المسيو « دالبانى » - صاحب « الكورسال » - باراً بالفقراء أمثالنا ، من مجانين الفن ؛ فكان يستقدم لنا فرقاً متواضعة ، تغزينا وتعلمنا بقليل من النفقة ! ... ما من شك عندى فى أن « سيد درويش » كان يرى من أسرار هذا الفن الأوربى ، أكثر مما كنا نرى وكان ينتفع ، ويتمثل ، ويهضم أضعاف ما كان يتهاى لمثل بنيتنا الفنية العادية ... وكان من أثر ذلك أن طمع فى أن يصل بفنه إلى مرحلة التجرد الأعلى - التجرد من الشعبية ، والصور المحلية - وأن يقدم موسيقى موسومة بطابعه وحده - لا طابع بيئة بالذات ؛ فقال للرحوم « محمود مراد » عندما قدم إليه رواية « البروكه » بمصره عن الرواية الفرنسية « لاماسكوت » : إنه لا يريد لها فى صورة مصرية ولا شرقية ! ... ولكنه يريد لها على أصلها ؛ بجوها الفرنجى ، وأشخاصها الأوربيين ؛ لأنه مقدم على محاولة جريئة لن يحيد عنها ! ... إنه يريد أن يفرض موسيقاه - بطابعها الخاص - على ذلك الجو الأجنبى ! ...

وتم له ما أراد ، وأخرج هذه الرواية بفرقة الخاصة ، التى كان أنشأها أخيراً ، واستأجر لها مسرح « دار التمثيل العربى » ، الذى كان مجاوراً لشارع « وجه البركة » ! ... ولا أنسى أبداً تلك الليلة التى ظهرت فيها « البروكه » لأول مرة ؛ كانت ليلة انهمر فيها المطر ورعدت السماء ، وامتألت شوارع « القاهرة » بالوحل والماء ! ...

ولكننا — نحن أنصار «سيد درويش» ومحبيه وإخوانه — ما كنا نشعر قط بما فعلته الطبيعة من حولنا! ... إنا نعرف أن الطبيعة عدو الفنان: لأنها تغار منه، وتعدده منافسا لها في الإبداع — وماذا يهم؟ ... لو أن السماء انطبقت على الأرض في تلك الليلة لما فطنا إلى ما يجري: فحبنا للفن كان أقوى من الطبيعة ذاتها! ... ورفع الستار عن «البروكه»، أمام عدد من النظارة لا يزيد على الأربعين أو الخمسين، بما فيهم الأنصار والأصدقاء! ... وجرت الألحان تصور مختلف المناظر والمواقف والعواطف: من نشيد الجيوش الظافرة مثل لحن: «املا الكاسات» ... إلى قوله: «الاحتفال بالانتصار» ... الخ، إلى وصف الريف بدجاجة وخرافه التي تصيح: «ماء.. ماء» في لحن: «أحب خرفاني السمان» الخ.. وغيرها من الألحان التي لاتسعفني الذاكرة الساعة بحصرها! ... خرجنا من تلك الرواية في شبه ذهول! ... وكان الليل قد انتصف، ولكننا لم نذهب إلى بيوتنا، أو نأو إلى فراشنا: فذاك عهد ولتي — ما كنا نعرف فيه المضاجع قبل الفجر! ...

* * *

جلسنا في قهوة — أو على الأصح «خمارة» — مجاورة لدار التمثيل العربي. وما لبث «سيد درويش» أن أقبل علينا، مع الصديق المرحوم «عمر وصفي» ... وقد نفص عنه ثياب التمثيل. وهو يقول: ما رأيكم؟ ...

لم يخطر في بال الفنان المسكين أن يسألنا عن رأينا في كساد الحفلة وخواء الصالة! ... ولا خطر في بالنا أنه يسألنا في ذلك: فقد كنا ندرك أن الرأي المطلوب هو أجل من ذلك عنده وأسمى — لالأنه كان يريد الإفلاس أو يكره المال: — بل لأن فرحة الفنان بفنه تبهره أكثر مما يبهره المال، وأن النشوة التي تبعها خمرة الفن تذهب دائما بلب الفنان في أول الأمر، فتذهله عن كل شيء! ... أدركنا

ما يريد فقلنا — لست أذكر والله ما قلنا... ولكن الذى، لاشك، قد حدث هو أنه قرأ فى وجوهنا الجواب: أنه قد انتصر!...

وفى اليوم التالى قابلت زميليه «كامل الخلقى» و «داوود حسنى»، وأبديت لهما ما خامرنى من تلك الرواية الرائعة، فhez كل منهما رأسه هزة أعرف مغزاها: كانا هما من أنصار القديم، أو على الأقل كانا فيما يبدعان — من فن شرقى جيد ممكن — يسيران فى التجديد بحذر واحتياط؛ لذلك كان لهما فى «سيد درويش» رأى: أنه فى عرفهما ملحن، خارج على القواعد والأصول، والمعقول والمنقول...! وتلك هى التهمة الأبدية لكل مجدد جرى...!

على أنى لأعتقد أن «سيد درويش» كان يعتمد التجديد قهراً أو افتعالاً، ولم أسمع به يتحدث فى ذلك؛ كما يتحدث أصحاب النظريات، أو قادة النهضة — ولكن التجديد عنده: فيما أرى، كان شيئاً متصللاً بفننه، ممزوجاً بدمه!... لا حيلة له فيه... شيئاً يتدفق من ذات نفسه؛ كما يتدفق السيل الهابط من القمم...! كانت الألحان تنمجر منه؛ كأنها تنمجر من ينبوع خفي — حتى عليه هو؛ لقد سمعته، وسمعه بعض أصدقائنا يقول ذات يوم:

«أستطيع أن ألحن كل شيء: أستطيع أن ألحن الجرائد اليومية...! نعم...! لقد أحس أن لاشيء يقف أمام نبع ألحانه المتفجر: لا النظم واجب له ولا الأوزان...! أى كلام عادى كان يستطيع أن يصب فيه لحننا يحويه؛ كما يصب ماء الحياة فى العود اليابس...! عند ذلك فهمت لماذا كان يقول لى دائماً «كامل الخلقى»: «زن لى كلامك وزنا آخر؛ حتى يستقيم مع اللحن الذى عندى...! إن «كامل الخلقى» موسيقى متمكن، وهو — من غير شك — أرسخ قدمائى أصول الموسيقى من «سيد درويش»، ولكن أين له عبقرية هذا الأخير؟...! تلك العبقرية،

أو ذلك السحر الخفى الذى مامس كلاما حتى قلبه نغما تحار فيه العقول ! .
ومع ذلك ، لم يصب « سيد درويش » قدرا كبيرا من تقدير الناس ، بل إنه
كان يقابل أحيانا بالسخرية ، كلما ظهر على المسرح بحسمة الضخم ، وصوته الفحل !...
ولا أنسى يوم مثل البطل فى رواية « شهر زاد » : لقد حزنت وثرث ، وأنا أرى
الجمهور يستقبله بالنكات ، وهو يرفع عقيرته ويغنى : « أنا المصرى كريم العنصرين... »
.. لم يعرف الجمهور أن يقدر فيه صحة النغم قبل رخامة الصوت ، ولم تهذب
بعد الحاسة الفنية للجمهور المصرى : ليدرك أن صحة صوت الرجل هى فى رجولته
وقوته ، لا فى طراوته وحلاوته !... وأنا شخصيا كنت أطرب لصوت
« سيد درويش » : لأنى ما فهمت الموسيقى قط إلا على هذا الوضع .

لا جدال فى أن الثورة المصرية كان لها هذا الأثر فى توجيه « سيد درويش » إلى
الإشادة بالمفاخر القومية ، فى إطار من الصوت الصلب ، والعواطف الملتبهة ، والأداء
القوى : كما كان لهذه الثورة فضل فى كل ما اتسم به فن هذا الموسيقى من تجديد : فقد خاض
أعوامها ، شابا مفتح القلب لكل ما تأتى به فى الأفكار والأحداث من جديد... فى حين
أن كهول الموسيقيين فى ذلك الوقت : من أمثال « كامل الخلعى » ، و « داود حسنى » : —
ما تأثروا بالثورة ، ولا أثروا !... وهل يستطيع أن يدرك أعاجيب الثورة ، أو يشعر
بحرارها إلا الشباب ؟... لقد انكشفت لعينى وقلبي معجزة « مصر » عام ١٩١٩ م ورأيت
الثورة فى كل مراحلها ، تسفر عن روح خفية ، باقية أبد الدهر ، نابضة ، تسعف « مصر »
بين حين وحين . ظل هذا الشعور يلاحقنى حتى سجلته فى « عودة الروح » : فالمعروف
أن الثورات لا ينطبع أثرها إلا على قلب جديد متهب ، ولا يملك مثل هذا القلب
إلا الشباب فى فورة شبابهم : لهذا كان « سيد درويش » - ابن الثورة - هو قلبها الجديد
المتهب الذى تأثر بها ، وأخرج فنا قاده الموسيقى الشرقية إلى أفق جديد .

٢

ما من ريب في أنهم اليوم قليلون : أولئك الذين عرفوا المرحوم « كامل الخلعي » في أوج مجده الفني . . . ومن ذا كان يستطيع أن يصاحب ذلك « الفنان العجيب » ، دون أن يتعرض لضحكات الضاحكين ؟ . . . لقد كان ذلك الموسيقى من سلالة أولئك « البوهيميين » الذين لا يعرف أحد : أعقلاء هم أم مجانين ؟ . . . كان إماما من أئمة فنه : وكان له في الموسيقى الشرقية كتاب ينم عن غزير علم ، ورسوخ قدم : فقد عرف فضله الشيخ « سلامة حجازي » ، فجاه بتقديره — وإن كان لم يسلم من شذوذه ، فلقد صادفه ذات يوم ، وقد طرح عوده وفنه ، وحمل صندوقا لمسح الأحذية ، جعل يحوس به خلال القهوة والمشارب ، فناداه الشيخ متعجبا قائلا : « جرى إليه ياسى كامل ؟ ! » ، وأراد أن ينفحه مبلغا من المال ، يعينه على عسر حاله ، فقال الفنان وكأنه لا يعرفه : « قرش تعريفه واحد . . . ثمن المسحة ! . . . » ولم يأخذ غيره ، ومسح له حذاءه ومضى — رافعا رأسه ، معتزا بنفسه ! . . .

أما أنا فقد عرفته ١٩٢٣ م : إذ كلمته فرقة « عكاشة » أن يلحن رواية لى . . . فكان من الضروري أن ألقاه من حين إلى حين ، وأن أصغى إليه ، وقد وضع على رأسه « كلبوشا » من صوف ، وارتدى معطفا قصيرا مرقعا فوق سروال من « عبك » ، ينتهى بقبقيب في قدمه من خشب . . . وفي صدره العود

يضرب عليه بأنغام رائعة ، لا يفسدها إلا صوته الأجش ، الذى يقطعه سعال
التبغ الرخيص — يخرج من حنجرتة كأنه خارج من « ماسورة » خربة ، فى
« ما كينة » طحين !... ولكن العجيب ، أنى كنت أطرب لذلك الصوت ، وأرى
كأنه يخرج من بلبل ذهبى الفم فضى الحنجرة !... حتى إذا انتهى من بعض الألحان ،
طرح العود وهب واقفا ؛ ليذهب معى إلى « التياترو » لتحفيظ الجوقة ...
فتهبط ذلك السلم — من منزله فى حى « القلعة » — الذى كان يخيل إلى فى كل مرة
أنه سينهار بنا أثناء النزول ؛ لو هنه ، ورقة خشبه ، وطقطته ، وأطيطة تحت
أقدامنا الثقيلة ، فنخرج إلى الطريق ، وأنا أحمد الله فى سرى على السلامة والعافية ،
والتفت إلى صديقى الموسيقى ، فألاحظ العجب !... إنه ينزل ويسير معى فى
الشارع بعين الثياب التى كنت أحسبها ثياب المنزل ... عجباً !... أو يستطيع إنسان
أن يمشى هكذا فى الطريق ؟... وإلى أين ؟... إلى « تياترو الأزبكية » فى أهم
شوارع « القاهرة » ، ولكن لا عجب من ذلك ، فإنى لم أنزعج من منظره وقتئذ ، ولم أخجل
من مصاحبته !... إنه « كامل الخلعى » وكفى !... وليتنا كنا نذهب راكبين -
بمنأى عن العيون — ولكنه كان يصصر على المسير ، فالمسافة فى نظره قصيرة — إنه شارع
« محمد على » ، لا أكثر ولا أقل ، فقيم ركوب « سوارس » أو « الترام » ؟...
هكذا كنا نسير ؛ هو بشيابه التى كُتِبَ الشحاذين ، وأنا بملابس « الأفندى »
الكاملة التى توحى بالاحترام . وما كنا مع ذلك نمضى توا... إن « سى كامل » له
أطوار ؛ فهذا بائع « كيزان » صفيح ، لزوم المطبخ أو الزير ، فما أشعر إلا
والموسيقى الذى يترنم بجوارى بأجمل الألحان ، قد وثب إلى البائع وصاح به فجأة:
« بكم الكوزيا جدع ؟ »... وما يمضى قليل إلا و « كامل الخلعى » قد اشترى بكل
ما معه نحو عشرة كيزان — ما يدرى كيف يحملها — وقد ربطها له البائع ووضعها

فوق كتفه ، واستأنفنا السير وأنا أقول له : « أنذهب بها إلى التياترو ؟ » فيقول على الفور : « وماله ؟ وهو أنا سارقها ؟ »

وعند ما أسأله عما دعاه إلى شراء كل هذا العدد ، يجيب : « كلها منافع ... » ، ويقص على كيف أن كوز الحمام دائماً يضع ، فأقسم أن يشتري كل كيزان البلد : حتى تبطل حجة أهل المنزل ! ... كلام معقول : إن فن « كامل الخلعي » كان يجعلني أرى كل تصرفاته معقولة ، ولكن الأمر الذي لم أستطع أن أجده له سبباً معقولاً ، هو ما حدث بعد ذلك ! ... لقد سرنا في شارع « محمد علي » ، إلى أن وصلنا إلى ميدان « باب الخلق » ، وعندئذ طلع علينا شحاذ — من أولئك الشحاذين الذين يضعون « الطرطور » على رؤوسهم ، ويلبسون رداء مرقعاً بمختلف الألوان ، ويحملون « المبخرة » النحاسية ، يلقون فيها لكل قادم أو كل تاجر أو كل حانوت بما في جعبتهم من مستكة وقرنفل وعود وعثروت وعين العفريت وغيرها من أنواع البخور — وهم يبسملون ويحوقلون : — اقترب هذا الشحاذ صائحاً :

« أهلا سي كامل ! » وتصافحنا ، ومشى معنا : كأنه صديقنا ، وما كدنا نسير إلى ميدان « العتبة » حتى لحق بنا زميل آخر بمبخرته ، فصافح هو أيضاً وسلم وانضم ، ومشينا إلى « التياترو » هكذا ثلاثة شحاذين بما فيهم « سي كامل » ، يحمل كيزانه الصفيح بدل المباخر ، وأنا زابعمهم — لم أظن إلى صفتي بينهم ، ولم ألق بالآلة من قد يصادقني من معارف وزملائي أهل الحقوق والقانون — وما هم قائلون ؟ ... إنه الفن : ما كان شئاً يعنيني ويبهرنى مثل الفن وأهله ! ... كان لكلمة الفن في أذني وقتئذيين ، ودونه نين الذهب في تيجان القياصرة ، وبريق دونه بريق الجوهر في عروش الأكسرة ! ... أي حياة تلك التي كنا نحياها في ذلك العهد ؟ ... حياة ما أرحبها وأعظمها وأجلها ، في ذلك الإطار ، من ورق « الكرتون » المزوق ، ومناظر المسرح المبطل بالخيخيش والقماش ،

تصدق في أرجائها الألحان والأغاني، وتسود الكلمات والمعاني، وترسل المصابيح أضواء، تخسف بجانبها الأقيار وتكسف الشمس! ... ذلك أن الفن هو حلم يعيش فيه الفنان! ... هو وهم، له دولته وحدوده وقوانينه وعرشه وتيجانه! ... لا يكتفى الفنان بالحياة في هذا الوهم لنفسه؛ فهو إن فعل ذلك واكتفى به، لم يعد فناناً — بل سمي في الحال مجنوناً، وكان مقره مستشفى «المجاذيب»! ...

ولكن الفرق الوحيد الذي أنقذ الفنان من هذا المصير، هو أنه نجح في أن ينقل إلى الناس وهمه ... وأن يدخلهم دولته، وأن يخلق شخصاً وهمية، يأنسون إليها كما يأنس، ويعيشون معها كما يعيش .. ما المجنون في بعض الأحيان إلا فنان، احتفظ بهمهم لنفسه، وعاش فيه وحده. وما الفنان في بعض الأحيان إلا مجنون، استطاع أن يفرض وهمه على الناس، وأن يجعلهم يحبون هذا الوهم، وما ينتج عنه من مخلوقات، لا يملكون لها دفعا، ولا عنها غنى ولا بعدا! ...

لقد اشترى الفنان إذن خلاصه بهذا الثمن ... لقد أشرك الناس معه في الاستمتاع بأوهامه وأحلامه؛ فكفوا عندئذ عن اتهامه بالمجنون، وإلا اهتموا أنفسهم معه! ... والناس منذ فجر التاريخ لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم إلا عقلاء! ... الفن جنون، ولكن المجتمع ساهم فيه وأحبه ورعاه والفنان فنان، ما استطاع العيش في خلقة وحله، فإذا خرج منهما فقد خرج من مملكته الذهبية؛ خروج المجنون من مستشفى الأمراض العقلية! ...

غير أن المجتمع يستقبل الخارج الأخير بقوله: «عدت إلى نور العقل؛ لقد شفيت إذن ... فحمد الله!»، ويستقبل الخارج الأول قائلا: «عدت إلى نهار العقل؛ لقد انطفأ سراج أحلامك، وخرجت من عبقريتك، إنا لله وإنا إليه راجعون!»،

مع أهل التصوير

لست أعلم شيئاً كثيراً عن ذلك المصور... كل ما كنت أعرف عنه اسمه «أوتو»، وأنه من أهل الشمال — النرويج أو السويد أو الدنمرك — وأن له لحية كثرة شقراء، وأنه يحمل دائماً تحت إبطه لوحات غريبة الرسوم، فاقعة الألوان؛ فقد كان ينتمي إلى تلك المدرسة الفنية، التي أثارت فضول الناس في ذلك العهد، بما كانت تلجأ إليه من وسائل غاية في الإغراب، ونظريات غاية في الإغراق!

كان هذا المذهب الفني الجديد هو «بدعة» الحرب العالمية الأولى؛ فكل حرب — فيما يظهر — بدعة فنية تأتي في أعقابها، وتملأ «باريس» حديثاً عنها وضجيجاً... كان «الكوبيزم» في التصوير هو «موضة» باريس في ذلك الحين، يتحدث الناس فيه حديث العارفين، وأغلبهم لا يعرف عنه شيئاً، ولكنه لن تصادف واحداً لا يقول لك: «الكوبيزم» طبعاً أحبه... «الكوبيزم» هذا شيء جميل جداً... دعك من كل أنواع التصوير... تلك أشياء عتيقة — ولكن «الكوبيزم»!...

وكان هذا مصدر عذابي!

لطالما وقفت الساعات والأيام، أتأمل لوحات هذا «الكوبيزم»، وأضرب رأسي يدي لأفقه ما فيها من جمال، وأتهم نفسي بالجهل تارة، وبالغباوة تارة،

وبموت الشعور تارة، ثم أتحمّل على ذهني المسكين، أرغمه على فهم أسرار الإبداع في هذه اللوحات، التي تصور (مثلثات) و (دوائر) و (مكعبات) و (مربعات)، داخل بعضها في بعض، وقد صبغت بالأحمر الكأبي، والأزرق الزاهي، والأصفر الفاقع! ... ثم أخرج من قاعات تلك المعارض الفنية أقول مع القائلين:

«جمال!... إبداع!... عبقرية!...»

لبثت على هذا الحال زمنا - وأنا أتألم؛ لعجزى عن إدراك كنه هذا اللون من الفن، وكان هذا الجهل مني بأمره شرط تعذيب، تلين به الأقدار أو قل ألهب به نفسي يدي! ... فماذا سيجري لي لو عرفت أوجهات هذا «الكوبيزم»؟ ولكنه جنون تلك المرحلة من الشباب! ... لقد كانت كارثة الكوارث أن أجهل نوعا من الفنون، أو فرعا من المعارف! ... كان نهم «المعرفة» يكاد في ذلك الحين يفقدنا صوابنا... كان أشد الألم على نفسي، أن أكتشف فيها قصورا عن العلم والتحصيل؛ وكانت تلك النقود القليلة في جيبى تبذل، عن طيب خاطر، في كتاب قبل أن تنفق في طعام أو شراب...

فما كدت أبصر ذات مساء ذلك المصور «أوتو» - وكنت قد عرفته في إحدى قهوات «مونمارتر» - حتى تعلقت بذراعه، وقلت له:

هل لك في قدح من «البيرة»؟

— أين؟

— هنا في هذه الحانة الصغيرة...

— إذا رفضت فإنني لست فنانا... أقصد فنانا مفلسا... أعني فنانا عبقريا...

من مذهب «الكوبزم» !

— آه... «الكوبزم»... هلم بنا...!!

وأدخلته إلى تلك الحانة الصغيرة، بجوار ملهى «الطاحونة الحمراء»، وجلسنا إلى خوان، وبادرت فطلبت له قدح «البيرة»، ودفعت ثمنه الزهيد في الحال — قبل أن يفيق الضيف: فيكثر من الطلب، ويهبط في النفقة. ورأيت أن أحتال في الكلام حتى لا أظهر له أنني أسأله خدمة؛ فيستغل الفرصة، فقلت له بنبرة الحديث التافه العابر: كنت اليوم في متحف «اللوفر»... أتدرى ماذا فعلت طول الوقت؟... مررت أول الأمر بالقاعة المربعة، حيث وقفت لحظات، أتأمل لوحة «أعراس قانا» لذلك المصور البندقي القديم «بول كاليارى فيرونيز»...

فصاح بي:

«فيرونيز»؟... أتسمى هذا مصورا؟ لا يا سيدى! هذا نقاش مسارح!... ما ذارأيت في «أعراس قانا» غير أعمدة قصور وهياكل، وسور شرقية من المرمر، وجمع محتشد حول موائد؟... هذا منظر من تلك المناظر، التي ترسم للتراجيديات على الكرتون والقباش!... فلم أجادله... ومضيت أقول:

— ثم ذهبت أتأمل لوحة «المسيح في القبر»، للمصور الفنلني «فان دايك»...

فقاطعنى:

«فان دايك»!... بمسيحه المطروح العارى، إلا من تلك الخرقه حول بطنه، وقد لوى عنقه وتدلّى رأسه، وتلك المرأة التي عند قدميه، تشبك يديها على صدرها حزنا!... وتلك التي عند رأسه كالولدهسى، تشير إلى السماء بعينيها. ياله من مشهد مؤثر!... ولكنك تتأثر للحادث المؤلم ولا تدخل للتصوير هنا!... «فان دايك»

يعتمد في لمس قلبك ، على عاطفتك الدينية ، لا على ريشته وحدها ...! وهذا
يا سيدى ليس بالتصوير ...!

فلم أناقش ، واستطردت :

ثم لفتت نظرى لوحة المصور الفرنسى « كورو » عن الصباح ، أو ما يسميه
« ذات صباح » ؛ تلك الأشجار الباسقة فى الريف ، وقد تنفست أوراقها بنسائم
الفجر ، والقرويون والقرويات من حولها يرقصون ، ممسكة أيدي بعضهم بأيدي
بعض ؛ كأنهم من طيور تلك الأشجار الفرحة بالصباح ...! لكأنك تلمس رقة
هواء الصبح ، تهب عليك من إطار اللوحة ...!

فهز رأسه صائحاً :

« كورو ، ...! أتظنه بما ذكرت يحسب فى المصورين ؟ ... كلا يا صاحبي ...
أدرجه فى الشعراء إذا شئت ، ولكن إياك أن تسميه مصورا ...! الشعر شئ .. ،
والتصوير شئ آخر ...

فلم أماره ، واستأنفت قائلاً :

— ثم صادفتنى لوحة المصور « هوراس فرنيه » عن « معركة وجرام » ...
ونظرت إلى « نابليون » ، فوق حصانه الأبلق ، يراقب من خلال منظاره الطويل
المعركة المحتدمة ، ودخان البارود يغطى الأفق ، وقواده العظام من حوله ،
يجذبون أعنة جيادهم الصاهلة الصاخبة ...!

فقاطعتنى محتدماً :

أظنك ستقول لى أيضاً : إن « هوراس فرنيه » مصور ...! لا يا سيدى ...
هذا كثير ! لك أن تقول إنه مؤرخ ؛ فربما صدقت ! ...! وإذا أردت الدقة
فقل « مؤرخ مزيف » ! ...! ولو كنت تعرف كيف يصور المعارك ... هذا الرجل ؟

... أقسم لك إنه لم يشاهد معركة في حياته ، حتى ولا في الحى الذى يقطنه ، بين صديقه يلعبون « السبلى » ! ... وكل ما يلهمه ، ويوحى إليه ، وينقل عنه ؛ — قد ذكره بنفسه في تلك الصورة عن « معمله » ! ... بضعة سيوف صدئة ، ودروع قديمة مدلاة ، على الجدار ، وحصان هزيل لا يجد له علفا — هو ذلك الذى تراه في لوحات معاركه ، أبلق مرة وأحمر مرة ، وأسود مرة ! ...

فلم أعارضه ، ومضيت أحدثه عن لوحات للمصورين : « بوسان » و « جيروم بوخ » و « رافائيل » ... وغيرهم ، فانتظر حتى أفرغ في جوفه آخر قطرة من قدح البيرة ، ثم وضعه على الخوان ، وقال ساخرا :

— « بوسان » — هذا الذى يجب أن يدعى « نحاتا » لا « مصورا » : — بأجسام عارياته الرخامية ووقفاتها المتصنعة ، وإيماءاتها المترفعة ؟ ... هذا يا سيدى فن يقرب من « النحت » ! ... أما « جيروم بوخ » ، بنماذجه البشرية العجيبة الخيالية ، فهو روائى ! ... أما « رافائيل » ، بتألقه في رسم يد « المادونا » وقدم الطفل ؛ فقد بلغ القمة في « الرسم » لافى « التصوير » ... ومن غيرهم ؟ ... ستذكر لى « جروز » هذا الخطيب ... و « ديلاكروا » هذا الأديب ! ...

فلم أر فائدة في استمرار الحديث معه على هذا النهج ، وآثرت الدخول إلى قلب الموضوع ؛ فقلت له :

وما التصوير إذن في رأى « الكوبزم » ؟ ...

— « الكوبزم » هو التصوير نفسه ... هو كل التصوير ... هو حقيقة التصوير ! ...

— كيف ؟

— عجباً ! ... لا تؤمن بذلك ؟

— أو من ... أو من ... ولكنى أريد الاستزادة من الإيمان ؛ ليطمئن قلبى ! ...

— التصوير — أى «الكوبزم» — يبنى على الحقيقة، لا على الوهم!... فلنفترض
مثلاً أنى أردت أن أصور دجاجة!... هل تظننى أصورها كما اصطلاح الناس على
منظرها وهيتها، فى وهمهم المجمع عليه منذ الأحقاب؟... كلا ياسيدى... إنما
أصورها طبقاً لحقيقتها الهندسية!... ولأوضح لك ذلك بطريقة عملية... أحضر
لى دجاجة!...

فحملت فيه دهشاً مأخوذاً... وقلت:

— الآن... هنا؟... دجاجة... حية؟...

— حية، مطبوخة... هذا لا يهم!...

ولم يمهلى، وأشار إلى «الجرسون»... فلما حضر، وجهه إلى حتى أطلب
أنا له ما أراد، فخرجت من فى الكلمة، ولا أدري والله كيف خرجت:
— دجاجة!...

فأسرع «الجرسون» يلبى، ثم عاد بفرش للخوان، وطبقين، وضع أحدهما
أمام الضيف، والآخر أمامى، ثم ذهب ورجع بطبق معدنى كبير فيه ورك دجاجة
محمرة سمينة!... وأنا كالمذهول أشاهد ما يحدث وأعد ما فى جيبى!.. فلما وضع بيننا
ورك الدجاجة، أدركت أن لأمفر، وعزيت نفسى، وقلت: كل شىء يهون فى
سبيل المعرفة - ولى نصيب فى هذا العشاء على كل حال - ولكنى لم أكد أثوب
إلى رشدى، حتى رأيت مصور «الكوبزم» قد مد يده بالشوكة، ونقل ورك
الدجاجة بأكملها إلى طبقه... وشرع يقول:

انظر!... ما هى الحقيقة الثابتة فى أعماق هذه الورك؟... إنها على شكل
«مثلث»... تلك هى الحقيقة الوحيدة.

ثم رفع السكين، ومزق جلدها المحمر وغرز فيه الشوكة، وجعل يلتهمها التهاماً -

وأنا أنظر إليه ، مشاهدا متفرجا !... في أعماق نفسي ، بألم وأسى :

— « كلا ... هذه ليست الحقيقة الوحيدة !... »

ولم يفتن إلى ما بي ... ومضى يطعم ويتنعم ... ويقول :

على أنى أغشك ، إذا قلت لك إن هذه كل نظر يتنافى التصوير !... التصوير ، في مذهبنا ، فن يجب أن يستقل بوسيلته ، عن كل وسائل الفنون الأخرى : فلا ينبغي أن يرتكن على موضوع ؛ لأن الموضوع من مستلزمات فن الشعر ، ولا أن يقوم على شخصيات ؛ لأن ذلك من مقومات فن الرواية ، ولا أن يستند إلى بناء ؛ لأن هذا من ضرورات فن العمارة ، ولا أن يحاكي الأجسام الآدمية ؛ لأن هذا من فن النحت ، ولا أن يعبر عن مشاعر عاطفية ؛ لأن هذا من فن الموسيقى !... فقاطعته مستغربا :

حتى الموسيقى !... ؟

— الموسيقى لا يسمعها مصور إلا بعينه ؛ وإذا تكلم عن الأنغام فإنما يعنى الألوان !... المصور الحق هو رجل ضرير الأذنين !... وسيلة التصوير الوحيدة التي يتميز بها عن كل وسائل الفنون هي : اللون !... الألوان هي وسيلة التصوير وغايته ... لا ينبغي للمصور أن يقص على الناس موضوعات ، ولا أن يمس عقولهم ولا قلوبهم ، ولكنه وجد ليخاطب حاسة واحدة فيهم : بصرهم !... التصوير شعر العين ، وسيلته وغايته : اللون ...

وكان قد أتى وحده على طبق الدجاجة ، ومسح فيه الملوث بدهنها بالمشقة البيضاء ، فالتفت إلى قائلا :

ولأوضح لك ذلك بطريقة عملية : أحضر لي طبق « سلطة » !...

ولم ينتظر هذه المرة حتى آذن للجرسون : بل ناداه وطلب إليه : كأنما قد أمسى مفهوماً أنه يتناول العشاء كاملاً ، على مائدتي ... وجاء « الجرسون » بطبق « السلطة » فنظر المصور « الكوبست » إلى « السلطة » وقال :

انظر إلى هذا البنجر الأحمر ، والخس الأخضر ، والجزر الأصفر ... ماهي الحقيقة الثابتة فيها ؟ ... هذه الحقيقة ...

— عرقها ياسيدي ! ... عرقها جيداً ! ...

قلتها مقاطعاً ، وأنا ألمح يده تمتد بالملقعة والشوكة الخشبيتين إلى أعماق الطبق ، ولكنه مضى يقول :

دعني أخبرك ! ... هذه الحقيقة ، يضع معالمها المصور الكلاسيكي وهو يصور هذا الشكل ... إنه يعنى بالدقة في رسم الجزرة ، وورقة الخس ، وقطعة البنجر ، وهذا أمر لا أهمية له — أما نحن أتباع مذهب « الكوبزم » ، فلا نخفل بهذه الخدلة التي تخفي الجوهر ! ... يكفي عندنا أن نبرز حقيقة هذه الألوان الثلاثة : الأحمر والأخضر والأصفر ... هذا هو التصوير ! ...

وفرغ من محو طبق « السلطة » وحده ... والتفت إلى منصة « البار » ، فأبصر عليها وعاء كبيراً ، تعرض فيه فاكهة نضرة طازجة ... فقال لي :

إن المصور « سيزان » له طريقته في تصوير التماح ، وقد أثارت طريقته جدلاً واهتماماً في حينه ... ولكنك قد تسألني عن طريقة « الكوبزم » ...

— طريقة عملية ... ما في ذلك من شك ! ... ولكن لا داعي لمعرفة تصوير التفاح ... خير لي أن تحادثني ونحن سائران في الشارع ؛ فلدى موعد هام ، والوقت متأخر ، والمشى مفيد للهضم ، — بالنسبة إليك ! ... يا « جرسون » ! ... وناديت خادماً المطعم ، وأنا ناهض ، ودفعت له كل ما كان في جيبتي من فرنكات

أجرا لهذا العشاء ، فتهض صاحبي المصور مرغما ، وخرج معي إلى الطريق ،
وهو يقول لي :

التصوير هو « الكوبزم » . . . و« الكوبزم » هو التصوير... هل عرفت الآن ؟ ..
— عرفت كل شيء والحمد لله ... وقد رتني لا تحتمل أن أعرف أكثر من ذلك ...
الوداع ياسيدي ! ...

مع أهل الأنشاد:

لن أنسى ذلك الشخص العجيب ، الذى قابلته ذات ليلة فى تلك الحانة من حانات « مونتارتر » . . . فى ذلك العهد البعيد ، الذى كنت أرتاد فيه تلك الحانات . . . كانت حانة صغيرة الحجم ، حقيرة الشأن ، لا يشرفها غير جوارها من ذلك الملهى الشهير « القط الأسود » . . . ولقد علمتني الأيام ألا أزدري المشرب المقفر ؛ ففيه غالبا الخدمة الطيبة ، والنفقة الزهيد ، وهو خير مأوى لأوقات الضنك وأيام الفقر ، فى أواخر الشهر . . . ذهبت ، ووقفت على « بار » الزنك ، وطلبت قدحاً من النبيذ الأبيض ، مع طبق من المحار البر تغالى الأخضر . . . والتفت حولى ، فلم أجد فى المحل غيرى ، وغير رجل إلى جانبي فى « البار » على رأسه قلنسوة ، عوجها على طريقة أوباش الحى الخطرين . . . وهو يرفع كأسه ويرشف منها جرعات كبيرة ، ويضعها ، ثم يرفع عقيرته بغناء — أو على الأصح — بإنشاد شئ ؛ كأنه شعر :

« من أنا ؟ ... »

شاعر ؟ ... ربما . . .

لا . . . لأن يراعة نفسى ما سطرت يوماً — وما تسطر — غير كلمة واحدة : جنون . . .

من أنا ؟ ... »

مصور ؟ ... ربما . . .

لا . . .

لأن ريشة نفسى ما صبغت — وما تصبغ — غير لون واحد : سواد . . .

من أنا ؟ ... »

موسيقى ؟ ... ربما . . .

لا ... لأن أوتار نفسي ما عزفت - وما تعزف - غير نغم واحد ؛ شجون ! ...
 من أنا ... إذن ؟ ...
 لقد نظرت من خلال « عدسة » إلى قلبي ؛ لأعرف من أنا ؟ ... فإذا أنا ... « بهلوان »
 يتأرجح على حبال نفسي ! ... »

* * *

ورفع الرجل كأسه ، وأفرغ ثمالها في جوفه ... وأرسل إلى ابتسامته من يتساءل :
 ما قولك أيها الزميل ! ؟ ...
 فرددت إليه الابتسامه بخير منها ... وقلت له :
 ليس من الضروري أن تكون شاعرا ، أو مصورا ، أو موسيقيا ...
 أو حتى « بهلوانا » ... المهم عندي هو ألا تكون لصا ! ...
 — أمعك نقود ؟ ..
 — لو كان معي نقود لذهبت إلى « القط الأسود » ... ولكن أوباش الحى ،
 واصوص « مونمارتر » ، من أصحاب القلائس المعوجة ، لا يفرقون بين الموسر والمعدم ،
 قبل أن يضعوا السكين في ظهره ، والأيدى في جيبيه ! ...
 — لا أظن أن فى منظرى ما يدل على أنى لص ولا فى منظرى ما يدل على أنك
 ضحية ... أغلب الظن أننا فى فصيلة واحدة ! ... يا « جرسون » ! ... املا قده الزميل ...
 ولم يدع الساقى لى وقتا للاعتراض ؛ فسرعان ما امتدت يده بالزجاجة ، يسكب
 منها فى قدحى ... فشكرت الرجل ، ثم قلت له :
 هذا الذى كنت تزشده مؤثر جداً ! ... كيف تقول إنك لست شاعراً
 وهذا الشعر جيد ؟ ! ...
 — إنه ليس لى ؛ بل للشاعر الإيطالى « بالازيتشى » ! ...

— يخيّل إلى أنه خارج من أعماق نفسك أنت ؛ فما من شك في أنك تحس كل كلمة فيه ! ...

— هذا حق ! ...

— أشعر بكل هذا القلق حقا ؟ .. لكأنى بك مكلوم الفؤاد ، وأنت تتساءل هكذا عن تكون ؟ ! ..

— اسمع ! ... اسمع ! ...

ورفع كأسه ... ورفع عقيرته بالإنشاد :

« تعال ! ... ولذلق بقاربنا في نهر النبيذ ! ... »

ولنقذف بالآلما في روح الخمر ؛ الجديد منه والمعتق ! ...

هات لى كأسا من نبيذ ... في لون الورد ورائحة المسك ...

وإذا أردت الشمس في منتصف الليل ؛

فاطرح النقاب عن بنت الكروم ؛ بوجهها المورد المحموم ! ...

إياك إياك يوم أموت ؛ أن تضع في التراب جثمانى ! ...

بل احملنى إلى الحان ، وضعنى داخل الدن ! ...

* * *

وعجبت لهذا الشعر ، واستروحت منه نسيا آتيا من بعيد ! ...

فقلت للرجل :

أنت القائل لهذا ؟ ...

— لا ، بل الشاعر الفارسى « حافظ » ! ...

— هنا فى « مونمارتر » أسمع هذا الشعر ! ... وعن ؟ ... منك أنت ؟ ... من أنت ؟ ...

— ألم تسمعنى الساعة ألقى هذا السؤال على نفسى ؟ ...

— أأست فنانا ؟ ...

— ألم تسمعى أأتلقى الجواب عن ذلك الآن ؟ ...

— إزك على كل حال رجل مثقف ! ...

— وما نفع ذلك لقلبي ؟ ... !

— ماذا تصنع فى الحياة ؟ ...

— أحب ! ...

— أقصد عملك فى الحياة ؟ ... !

— أحب ! ...

— وحييتك ؟ ...

— لها شعر غزير كغابة ، ووجه شاحب كنجم ، وجسم نحيل كطيف ...

بهذا الشعر الغزير ، والوجه الشاحب ، والجسم النحيل ، كيف كانت تستطيع العمل بيديها ، والسعى إلى رزقها ؟ ... لقد رأت أيسر الأمور لها أن تباع شفيتها ... القبلة

بكذا ... وما عليها أحد أن هذا قبيح ! ... ولقد قبل الملجأ طفلها ، أما هى فماتت فى آلام الوضع ، وهى تخرجه للندى ! ... ويالها من صيحات ، كانت تطلقها فى

فراش المستشفى ، ومن حولها الممرضات والأطباء فى الأردية البيض ! ... ياله من صراخ ، كصراخ الدابة فى المجزرة ، لتعطى لحماً ... وتعطى دماً ! ... والآن ، هى

بلا حراك ، فوق سرير الجميع ، فى دار الجميع ! ... وهى لن تصرخ بعد الآن ، ولن تصيح ...

أشلاء آدمية رثة دامية : أشلاء امرأة خلقة مهلهلة ، لا تصلح حتى للوطء بالأقدام ! ... ولكنهم مع ذلك قد أدت واجبها كمرأة ! ... واجبها كما فهمته ، وكما قدرت عليه ...

أن تحمل فى بطنها جنيناً تسعة أشهر ، وأن تمنح الوجود روحاً جديداً ... هذا هو الجوهر : أن تعطى « الحياة » وهى تبذل فيها « الموت » ثمناً ! ... فى نظر الله ، وفى

نظر البشر ، قد أدت هذه المرأة ما عليها من حساب ! ...

* * *

وسكت الرجل بعد أن قال ما قال ، بصوت حزين النبرة ، عجيب الإلقاء ، كتيب الرنين . وانحنى على كأسه : كأنما يخفي الفجيعة المعلقة بأهدابه في صورة عبرة ، خيل إلى أنها سقطت ، على الرغم منه ؛ في شرابه ، وامتزجت بخمره . . . وتمثلت لي مأساة الرجل واضحة جليلة . وأدركت مغزى الشعر الذي كان ينشده منذ قليل ، وسر التساؤل القلق عمن يكون ؟ ! ... وعما يحسن في الدنيا ، وعما يجيد ؟ ... حتى انتهى القول في أمره إلى أنه « بهلوان » ، يترجح على حبال نفسه . . . وما هو في الحقيقة كما بدا الآن لي — إلامشعرق ، يترجح على حبال قلبه ! . . . وفهمت : لماذا يريد أن يلقي بقارب حياته في نهر النبيذ ، راجيا الغرق فيه بآلامه ؟ ... نعم ! . . . لم يبق عندي شك فيما يعذب الرجل ! ...

وتملكني حزن شديد من أجله ، ولم أدر ما أصنع لأخفف عنه . . . لقد كان لبأسه ومحنته جلال ، يستخف معه كل مقال — كان الصمت خير ما ينبغي لي وله . فتركته وفؤادى يتقطع ألما لحاله ، حتى فطن إلى أمره ، فرفع رأسه : كمن يفيق من سكر ، ودفع ثمن ما شرب وما طلب لي ، وحياني بإشارة خفيفة ، ومضى خارجا من الحانة بخطى ثقيلة : كخطى من يشيع جنازة ، ولبثت أنظر إليه وهو يمضي ونبراته تطن في أذني ، حتى اختفى عن عيني ، ولم أر لي مقاما في الحانة ، فانصرفت بعده ، وبى رغبة في البكاء ، فمشيت في الطريق أنشج ، وأمسح دموعي بمندبلي ، حتى مررت بملهى « القط الأسود » ، فقلت لنفسى :

« أدخل : لأرفه عن نفسي ، وأزيل عنها الكتابة . . . ولقد تعشيت : فلن أطلب فيه غير قدح من القهوة السوداء بلا لبن ، وليكن ما يكون ! . . . »

دخلت ... وجلست مستخدياً إلى خوان صغير متواضع في طرف المكان ،
ليس بما تهافت عليه ! ... وقلت : من يدري ؟ ... قد يقع في نصيبي أحد الساقين الظرفاء ،
يرق لحالي ، فلا يعاملني معاملة الأثرياء ! ... وملهى « القط الأسود » لا يشابه غيره ، من
ملاهى « مونمارتر » ، وصناديق ليلها ! ... فالبضاعة التي كانت تعرض فيه ليست
أجساد الحسان ؛ بل ثمرات القريحة والظرف والبيان ! ... كان الساقون
و « الجرسونات » يحملون للزبائن الطلبات ، وهم مرتدون - لاثياب الخدم - بل ثياب
أعضاء المجمع الأدبي الفرنسى ، فى « التشريفة » الرسمية ؛ بلونها الأخضر
ووشيا الذهبى المقصب ... حتى إذا غص المحل - وأكثر رواده من جلة أهل « باريس »
أدبا وفضلا وثقافة وظرفا - ظهر المغنون والشعراء والمثشدون ، وتتابعوا الواحد
تلو الآخر ، يغنون الأغاني القديمة والحديثة ، ويلقون الشعر الجيد والطريف
من القديم والحديث ! ... ولقد كان لهذا الملهى أثر فى الأدب الفرنسى ، ومن بين
منشديه وشعرائه خرج فى الأدب والفن أئمة وأعلام ! ...

* * *

طفقت أصغى إلى المثشدين ، وقد برزوا تباعاً يلقون قصائد من شعر : فيون ،
وبودلير ، وفرجيل وكيكس ، وبتراك ودانو نزيو ... الخ ويغنون أغنيات من القرون
القديمة ، ومن وحى الساعة ... ويحكون نوادر ظريفة ، وكلمات لبقة طريفة - إلى أن
جاءنى « جرسون » ، فى ثياب « الأكاديمية » ، انتزعنى من إصغائى ليسألنى طلبى ! ...
فقلت له بصوت المتوسل :

باسم الشعر والأدب ، أطلب قدحا من القهوة ، بلا لبن ولاسكر ! ... فأنا
الليلة حزين على زميل مسكين ! ...

— ماذا جرى له ؟

— شتق في جبال قلبه! ...

— وترجح فيها « كالبهلوان » ؟ ...

— كيف عرفت ذلك ؟

— قلتها كالمرتاع عجباً! ...

فأشار « الجرسون » بإبهامه إلى مقدمة المكان ... وغادرني ما ضيا إلى عمله ،
يحضر القهوة ، فنظرت حيث أشار ؛ — فإذا بي أبصر منشداً ، قد ظهر يقول بصوت ،
أعرف نبرته ورنينه وإلقاءه :

من أنا ؟ ...

شاعر ؟ ... ربما ...

ومضى في القصيدة حتى أتمها ، ودخل في القصيدة التالية ؛ عن نهر النبيذ وقارب
آلامه ، والدن الذي سيجعله قبره ومرقده ، ففرغ منها ، وولج في قصة الحبيبة ؛
ذات الشعر الغزير ، والوجه الشاحب ، والجسم النحيل ! ... تلك التي استصعبت العمل
بيديها ، وآثرت العمل بشفتيها ، فرواها بصوته المتهدج المؤثر الحزين ، حتى ختمها
وقال : « إنها للشاعرة آدا نجري » ! ... فصفق الحاضرون طويلاً ، وانحنى هو للجمهور
طويلاً ، ولست أذكرها : هل صفقت له مع المصفقين ، أو صفقت لغفلي ؟ ...
كل ما أذكر هو أنني نهضت على قدمي ، وتقدمت نحوه حتى يراني ، وأنا أصبح :

« مرحى ! ... » « مرحى ! ... »

فدعني ، وعرفني ، وانحنى شاكرآ ، مبتسماً ، غامزآ إلى بعينه ! ... واختفى وقد
انتهت « نمرته » وتركني أجرع قهوتي السوداء ، وأندم على دموعي ، التي ذرفت
من أجله ! ...

الباب الرابع

الأدب والدين

الدين والأدب ، كلاهما يضيء
من مشكاة واحدة

السما هي المنج

هنالك صلة — في اعتقادي — بين رجل الفن ورجل الدين ؛ ذلك أن الدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة ، هي ذلك القبس العلوي ، الذي يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان . . . وإن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو ، الذي يغمر نفس الإنسان ، عند اتصاله بالآثر الفني . . . من أجل هذا ، كان لا بد للفن أن يكون مثل الدين ، قائماً على قواعد الأخلاق . وهذا رأيي ! . . . ولكنه ليس رأي كل المشتغلين بشئون الفن .

فلقد اشتد الجدل من قديم بين طائفتين ؛ طائفة تقول : إن الفن ينبغي له أن يكون أخلاقياً ، وطائفة تقول : إن الفن يجب أن يتحرر — حتى من الأخلاق ؛ لأن الجمال في الفن ينبع من الإتيقان ، وأن الإجابة — في تصوير الدمامة والرديلة — لا تقل فضلاً عن الإجابة في تصوير الحسن والفضيلة ! . . . هذا صحيح . . . وإلى لأشد الناس تمسكاً بحرية الفن ، وإدراكاً لقدسية هذه الحرية ، ولا أتصور فنا لا يصور الرديلة ؛ كما يصور الفضيلة ، ولا يبرز القبح ؛ كما يبرز الحسن ! . . . وإن الدين أيضاً — في تنزيله — يصور لنا رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الأشرار والمفسدين ؛ كما يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين ، ولكن المقصود ليس حرية التصوير ، فهذه مكسولة في الفن ، ملحوظة في الدين ؛ إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير ، الذي ينقله الفن والدين إلى النفوس ! . . .

ما من ريب في أن الإحساس الأخير ، الذي ينقله الدين إلى النفوس — مهما يكن لون الصورة ، ونوع التصوير — هو إحساس أخلاقي .

فهل هذا هو واجب الفن أيضاً؟ أو أن الفن حر حتى في إحداث الأثر الذى يريد؛ غير مقيد حتى في إقرار المشاعر غير الأخلاقية في نفوس الناس؟ ... يقول «شوبنهاور»: إن النية لا قيمة لها في الأثر الفنى ... أى أن نيات الفنان الصالحة أو الطالحة لا تقدم ولا تؤخر في القيمة الفنية لعمله ...

ويقول «جويو»: إن الروح الأخلاقى عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معا وفي وقت واحد من أعماق طبيعته ... وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أخط مرتبة؛ حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ... ذلك أن الفن العالى ليس ذلك الذى يثير في النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب، ولكنه ذلك الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها. إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة فيه تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته، ويستلبك إعجابك بصوره. وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض. فإذا أبدع الفن في تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط، وحملك بهذا الإبداع على أن تعطف على الانحلال وتعجب بالتدهور؛ فإن مجتمعا بأسره يمكن أن تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن.

ما مهمة الفن الحق إذن؟ أهى أن يقف في المجتمع واعظا ومرشدا وهاديا إلى سواء السبيل؟ ...

من المجمع عليه أن الوعظ والإرشاد ليسا من وظيفة الفن؛ لأن وظيفة الفن هى أن يخلق شيئا حيا نابضا، يؤثر في النفس والفكر. ما هو نوع هذا التأثير؟ ... هنا المسألة!

إن نوع التأثير هو الذى يحدد نوع الفن؛ فإذا طالعت أثرأ فنيا — قصيدة أو قصة أو صورة — وشعرت بعدئذ أنها حركت مشاعرك العليا، أو تفكيرك المرتفع؛ فأنت أمام فن رفيع ... فإذا لم تحرك إلا المبتذل من مشاعرك، والتافه من تفكيرك؛

فأنت أمام فن رخيص .

هنالك سؤال آخر : ما مصدر هذا التأثير في العمل الفني ؟ ... أهو الأسلوب أم اللب ؟ ... أهو الشكل أم الموضوع ؟ ...

إن الأثر الفني الكامل في نظري ، هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع ... وقلبا يحدث هذا إلا عن طريق السمو في اللب والأسلوب ؛ لأن ضعف « الشكل » ، وسقم « الأسلوب » يحدثان في النفس شعورا بالقبح والضيق والاشمئزاز ؛ وهذا ينافي الشعور بالجمال ، والتناسق ، والانسجام شأن الفن ، هنا أيضاً ، شأن الدين ... فما من رجل دين ، يثير في نفسك إحساساً علوياً حقاً ؛ إلا إذا كان في طريق حياته ، مستقيماً السلوك ، سليم الأسلوب بغير ذلك يختل التناسق بين الغاية والوسيلة ، وبهذا الاختلال يداخل النفس شعور الشك في حقيقة رجل الدين

لو علم رجل الفن خطر مهمته ، لفكر دهر اقبل أن يخط سطرًا ! ... ولكن الوحي يهبط عليه ، فيسعه — ومعنى هبوط الوحي أن شيئاً ينزل عليه من أعلى ؛ — شأنه في ذلك شأن المصطفين من أهل الدين ! ... وهل يمكن أن يهبط من أعلى إلا كل مرتفع نبيل ؟ ...

للدين وللقن ... السماء هي المنبع ! ...

الماء الحي

«... وكان لا بد له أن يحتاز « السامرة » ... فأقن إلى مدينته في « السامرة » يقال لها « سوخار » ، بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه ... وكانت هناك بئر يعقوب ... فإذا كان « يسوع » قد تعب من السفر ، جلس هكذا على البئر ... فجاءت امرأة من « السامرة » لتستقي ماء ... فقال لها « يسوع » :

أعطيني ؛ لأشرب ! ...

لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ، ليتأعوا طعاما ...

فقلت له المرأة السامرية :

كيف تطلب مني لتشرب ، وأنت يهودي ، وأنا امرأة سامرية ؟ !

لأن اليهود لا يعاملون السامريين ...

أجاب « يسوع » ، وقال لها :

لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذي يقول لك : « أعطيني ؛ لأشرب » ؛ -

لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا ! ...

قالت له المرأة :

يا سيد ! ... لادلو لك ، والبئر عميقة ؛ فمن أين لك الماء الحي ؟ ... ألعلك

أعظم من أيننا يعقوب ، الذي أعطانا البئر ، وشرب منها هو وبنوه ومواشيته ؟ ...

أجاب « يسوع » ، وقال لها :

كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا ، ولكن من يشرب من الماء الذي

أعطيته ، يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع إلى حيوات أبدية ...

طالعت هذا القول في إنجيل « يوحنا » ، ونحن على أعتاب عام جديد من مولد « يسوع » ... وتساءلت : كم من البشر انطفأ فيه ذلك العطش ، ونبع فيه ذلك الماء الحى ؟ ... ما من ريب أن العدد قليل : ذلك أن ملايين العطشى كثيرون فى كل جيل ! ... إن لكل إنسان ، بين جنبيه ، بئرا عميقة . ولقد رأيت من الناس من يلقي فى بئره دلوًا من ذهب ؛ فلا يجد الدلو فى القرار غير نضوب وجفاف ! ... ورأيت منهم من يلقي فى بئره دلوًا من ذكاء ؛ فلا يجد الدلو فى القرار غير حصى مرصع ، وحجارة مرصوفة ! ...

أين الماء الحى ؟ ... وبأى دلو يوصل إليه ؟ ...

إنه موجود — ليس فى كل النفوس ، ولكنه ينبع فى النفس التى تلتفت بركات السماء ! ... وقد لا تشعر هى بوجوده ، وقد لا يشعر بذلك أيضا الناس المحيطون بها ؛ لأن هذه النعمة أسمى من أن تراها كل العيون ...

هناك أمثلة كثيرة ، ولكن أبسطها ، وأقربها إلى فهم العامة ؛ مثل ذلك النجار الذى كان يعمل فى حانوته طول النهار ، فإذا جاء المساء ذهب بربح يومه إلى داره ، فتعشى هو وعياله ، ثم رفع عقيرته بالغناء ! ... فغنى ، وأنس ، وطرب بعض ليله ، ثم نام بين أسرته نوما هنيئا هادئا لذيذا حتى الصباح ، وكان له جار غنى يرى هذه الحال منه ، ويتعب ويقول فى نفسه : « كيف يكون لهذا النجار على فقره مثل هذا الصفاء ... وأنا الغنى ، لا أنام ولا أهد ، ولا ... لمال عطشى للثراء ! ... » ثم عزم على أن يدبر للنجار أمرا ... فألقى فى داره الحقيبة بكيس مملوء بالذهب ، وجعل يتربص ما يحدث ، وعندئذ حدث العجب ؛ فقد انقطع الغناء ، الذى كان يرتفع مرحا من دار النجار ، وسكت القلب المغرور السعيد ، ولغظ الذهن المفكر المكدود ، وذهب النوم الهنىء ، وحل السهاد الطويل ، وشغل النجار ،

نهاره وليله ، بأمر ذلك المال الذى هبط عليه : كيف ينتفع به ، ويستغله ، وينميه ؟ ... ومرت الأيام والليالي ، وقد خيم على دار النجار ذلك السحاب ، الذى يخيم على دار جاره الغنى ! ... سحاب الهم الذى لا يزول ؛ — لقد بدأ الجرى الدائم خلف السراب ! ... لقد غاض النبع من البئر ، وجاء العطش الذى لا ينطفئ أبدا ! ...

* * *

درس « يسوع » ليس للأفراد وحدهم ؛ بل للدول أيضا ! ... هذه الحروب — التى لا ينطفئ سعيها — إنما هى علامة عطش ! ... متى تؤمن الدول القوية أن هذا العطش ، لا يطفئه الطغيان ولا السيطرة ؟ ... كل دولة تشرب من بئر « السيطرة » تعطش أيضا ! ...

أجراس « الميلاد » تدق فى أديارك وكنائسك ، أيتها الدول الكبرى ؛ فلا تغترى ولا تظنى « القنابل الذرية » تطفى عطشك ؛ — بل ثق أن الذى يطفئه إلى آخر الأزمان ، هو ذلك الماء الحى ، الذى تحدث عنه السيد المسيح ! ...

الحقيقة الكاملة

يروى الفيلسوف الصينى «لى هتزو» هذه الأسطورة المملوءة بالحكمة :
فوق تل من تلال غابة نائية ، كان يعيش رجل شيخ ، مع ابن له وجواد ...
ذات صباح ، هرب الجواد ، واختفى ؛ فأقبل الجيران على الشيخ . يعزونه فى نكبته
بفقد جواده ... فقال لهم الشيخ :
ومن أدراكم أنها نكبة ؟ ...

فصمتوا ، وانصرفوا واجمين ! ... ولم تمض أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من
تلقاء نفسه ، لا وحده ، بل مصطحباً معه عدداً من الخيول البرية ... فعاد
الجيران إلى الشيخ ، فرحين مهنتين بهذا الغنم الوفور ، وهذا الحظ السعيد ، فنظر
إليهم الشيخ بهدوء ، وقال :
ومن أدراكم أنه حظ سعيد ؟ ...

فسكتوا مذهولين ، وانصرفوا متحيرين ، ومرت الأيام ! ... وجعل ابن
الشيخ يروض الخيول البرية ، فامتطى منها جواداً عنيداً ، فسقط من فوق صهوته
إلى الأرض ، فكسرت ساقه ، فرجع الجيران - مرة أخرى - إلى الشيخ محزونين ،
يبثونه ألمهم لما وقع لولده ، ويعزونه فى هذا الحظ العاثر ! ...

فقال لهم الشيخ برفق :
ومن أدراكم أنه حظ عاثر ؟ ...
فانصرفوا صامتين ! ... ومضى العام ، وإذا حرب تقوم ، وجند الشباب ،

وأرسلوا إلى الميدان: فلاقى أكثرهم الحنف، إلا ابن الشيخ؛ فإن العرج الذى بقدمه، أعفاه من الذهاب إلى الحرب، وأنقذه من ملاقة الموت...!

* * *

إلى هنا تنتهى قصة الفيلسوف الصينى، ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقب السعد والنحس على الحادث الواحد؛ ذلك أن لكل شىء نهاره وليله، يدور أن حوله بغير انقطاع، ولكن الإنسان، فى نظره القصيرة، وذاك كرهه الضعيفة؛ لا يرى الحادث إلا فى حلقاته المنفصلة، وأجزائه المتقطعة، ونتائج المؤقتة، ومؤثراته المفاجئة؛ فعينه لا تستطيع أن تشمل فى جملته؛ لأن جملته ممتدة فى الغد، وعين الإنسان لا ترى الغيب...!

* * *

ولو استطاع إنسان أن يشمل بنظره الأمس واليوم والغد، وأن يتتبع حادثاً واحداً أو رجلاً بعينه؛ - لرأى العجب!... فهذا الغنى الذى يملك الملايين، سيرى أمواله قد بددها وريث، وهذا الوريث سيكون له أولاد فقراء، ومن هؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة، وهكذا دواليك: يأتى المال من العدم، ويذهب المال فى العدم؛ ويولد من السعد نحس، ومن النحس سعد!... ساقية لا تكف عن الدوران، ولا تقف طول الزمان... ليس هناك فى حقيقة الأمر حظزاهر ولا عاثر؛ لأن الساقية الدوارة لا تبقى أحداً فى موضعه، ولا شيئاً فى مكانه... إن ما نسميه «الحظ»، ليس إلا وقوف نظرنا المحدود، على وضع من الأوضاع، فى وقت من الأوقات، وإن فرحنا أو بكأنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية؛ - شأننا فى ذلك شأن المشاهد لقصة تمثيلية!... إنه يضحك أويبكي لكل ما يصيب البطل، دون أن ينتظر ختام الرواية!... لعل أداة الشعور والإدراك فىنا، قد جعلت على هذا التركيب المناسب

لحياتنا القصيرة ؛ فنحن نأخذ كل حادث يمر على أنه البداية والنهاية ، لا أنه الحلقة
في سلسلة طويلة ! ...

* * *

إن الإنسان الذى أعطى الحكمة ، ليس — فى حقيقة الأمر — إلا ذلك الذى أعطى
العين ، التى ترى الأشياء فى جملتها ، لا فى جزء منها ، وفى تعاقبها ، لا فى وقوفها ...
الأديب العظيم أيضاً له ، تلك العين التى ترى الحقيقة الكاملة فى حياة البشرية ؛ —
تلك العين التى تبصر الساقية فى دورانها ... وهذا ليس بالأمر الهين ! ... إنه للبشر من
أصعب الأمور ؛ من أجل هذا كانت الحكمة فى الأرض نادرة ؛ لأن الحكمة
وحدها هى التى ترى الساقية وهى تدور ... هى التى ترى الحقيقة الكاملة ! ...

ثورة العقل

جاء في أساطير الصين أن قردا صعد إلى السماء ، وجعل يثرثر ويفاخر ، ويتباهى ويختال ، ويزعم أن « البراعة ، قد تجسدت فيه ، وأن « الخدق » ليس إلا بعض معانيه ، وأنه أحق الكائنات بمكان علوى ، لا يدنيه فيه مخلوق ... وظل يحدث في السماء من الصباح والضجيج ، ومن الثورة والاحتجاج ، ما حمل « بوذا » على النظر في الأمر ، فدعا القرود وقال له :

إذا كنت حقا بارعا - كما تقول - فاقفز من راحة يدي اليمنى ؛ فإن استطعت ذلك ؛ فإنني أضعك فوق عرش من تلك العروش ، التي تتوق إليها ... وإن عجزت عن ذلك ؛ فإنني أعيذك إلى الأرض ؛ لتفكر فيها عن ذنبك طوال السنين ، قبل أن تأتي إلى مرة أخرى بثرثرتك ... !

سمع القرود ذلك ، وقال في نفسه :

« بوذا » هذا ليس إلا مغفلا ... ! إنني أقفز مائة قدم ، وراحة يده ليست أطول من شبرين ، فكيف يعجز مثلي عن القفز خارجها ... ؟ !

وبدت الاستهانة والسخرية على وجهه ولم يجب ، فقال له « بوذا » :

ألم تسمع ما عرضت عليك ؟ ما جوابك ؟ ...

— أنت جاد فيما عرضت ؟ ... أأنت واثق من أنك ستعطيني ما وعدت ؟ ...

— بالطبع ...

— وأنا قبلت ... !

قالها القرود باعتداد وتحذواطمئنان ... ! عند ذاك بسط « بوذا » يده اليمنى ، فبدت

للقرد في حجم ورقة « اللوتس » ، واعتلاها وبدا له أنه يملأ راحتها ، فانتفخ قليلا ، وملاً بالهواء صدره ، ثم جمع كل قوته ، وقفز ... وإذا الريح من حوله تكاد تصفر لسرعته ، ومرق في الفضاء كالسهم ، والريح بأجنحتها تحمله حتى وقع آخر الأمر عند مكان ، أبصر فيه خمسة أعمدة ضخمة قائمة ، تكاد تمس السحاب ، فتأملها في سموها قائلاً في نفسه : « لقد وصلت بلا شك إلى آخر العالم ! لم يبق على إلا أن أرجع إلى « بوذا » وأسأله وعده وأطالبه بالعرش ! ... لكن مهلاً ... يجب أن تتخذ الحيلة مع « بوذا » ، حتى لا يقوم بيننا جدال ، فلنترك هاهنا برهاناً يدل على أنني بلغت هذا المكان ...

ودنا من العمود الأوسط ، وبال عند قاعدته ، ولم يجد غير هذا أثراً يتركه ، مبالغة في التكبر والاعتداد والغرور ...

ثم قفز عائداً من حيث أتى ، حتى استقر فوق يد « بوذا » اليمنى ، وصاح به صيحة الظفر :

لقد ذهبت كما ترى ورجعت ، وإنك لتستطيع الآن أن تعد لي العرش ، الذي يليق بي ويرضيني ...

فقال « بوذا » بهدوء :

أيها القرد الثرثار ! ... إنك لم تغادر راحة يدي طول الوقت ...

فصاح القرد محتجاً :

ما هذا الكلام ؟ ... إني ذهبت إلى نهاية العالم ؛ حيث أبصرت بعيني خمسة أعمدة شاهقة تلمس السحاب ، وقد توقعت تكذيبك هذا ، فتركت هناك أثراً لي ... تعال معي ، وأنا أجعلك ترى بعينك ! ...

فقال « بوذا » بهدوء :

لا حاجة بي إلى ذلك... انظر في قرار كفى انينى ، فانحنى القرد ينظر بعينه
البراقتين... فأبصر عند قاعدة الإصبع الوسطى في كف « بوذا » بلل ذلك الأثر
الذى أحدثه ! ...

° * °

ذلك القرد عندى ، ليس سوى رمز « للعقل » البشرى ! ... إنه بارع نشيط ، قفاز
براق ، وقد استطاع - بسرعة حركاته - أن يوجه أنظارنا إليه وحده ، وأن يعلق
اهتمامنا به ، وأن يقصر آمالنا عليه ؛ بل لقد نجح أحياناً فى أن يوهمنا أنه ، هو وحده ،
مصدر الحركة الكبرى فى الوجود ! ... ولقد كشف لنا حقاً ، ببريق عينيه ، عن أشياء
أثارت فىنا العجب ، فتبعه منا خلق كثيرون ، به وحده يؤمنون ، لا يرون إلا ما
يريههم ، ولا يصدقون إلا ما يضع عليه أيديهم ،... وقد تملكه الغرور ، فصاح يقول :
أنا كل شيء... ولا وجود لغير ما أكشف عنه... وفى قدرتى أن أثب
إلى كل القمم ! ...

فتجلت « القدرة الإلهية » قائلة :

أيها العقل أو القرد ! ... فى قدرتك أن تثب إلى الشجر ، ولكنك لن تثب
إلى السحب ! ...
فقال العقل :

سأثب قريباً إلى ما فوق السحب ؛ لقد عرفت سر الذرة ، وأنا فى طريق
إلى بلوغ القمر ، والوثوب إلى بقية الكواكب ، والإحاطة بكل مافى الكون ! ...
فمدت « القدرة الإلهية » يدها قائلة للعقل :

تحيط بكل مافى الكون أيها الاحتمى ؟ ... انظر إلى كفى هذه ، إنك مهما
تقفز - فلن تستطيع أن تبلغ نهايتها ، أو تخرج عن محيطها ، أو تدرك ما حولها ، وما

حارجها!... إني أتحداك أن تحاول..

فقال العقل: وأنا قبلت التحدى...

وحدثته نفسه أنه لا بد منتصر!...

فما تكون هذه اليد أمام ضوء فلسفته وبريق علمه؟... يكفي أن يسلط عليها عينيه المشعّتين بالعلم والفلسفة: ليكشف حدودها ومعالمها!... وجمع كل قواه، وقفز بكل ما في ساقه: من منطقي واستقراء، وتجارب واستنتاج، واستعان بكل ما في يديه من تصور وتخيل، وتفكير واستغراق، ووثب ووثبة، ظن بها أنه بلغ فعلا حدود الكون!... ولكن «القدرة الإلهية» قالت مشفقة به:

لا تجهد قواك عبثا. ولا تحاول المستحيل. إنك لم تنزل في كفي، نقطة حائرة، ونطفة عاجزة... لك أن تقفز ماشئت؛ لأنني خلقتك هكذا قفازا، ووضعت في طبيعتك القفز والوثب، ولا ينبغي أن تخرج عن طبيعتك التي ركبها فيك، ولا أن تكف عن حركتك التي فطرتك عليها؛ فإنك إذا جمدت وخمدت، خالفت سليقتك التي أردتها أنا لك، متحركة متجددة، ولا يجوز لك أن تقف عن الوثب، فتعارض إرادتي!... ولكن، إياك أن تغتر بمدى قفراذك، وتوهم أنك بالغ بها ما لا يمكن أن تبلغ؛ فتعرض نفسك لذل الخيبة، ومرارة اليأس، وسخرية المقدرين لنشاطك!... وأومات «القدرة الإلهية» إلى شيء لا يكاد يرى في قرار كفها، وقالت للعقل: انظر... أترى إلى هذا الأثر السائل الزائل؟... إنه كل ما أحدثت أنت: من علم، وفكر، وفلسفة، وتجربة، وخيال، وتأمل — منذ مبدأ العصور!... فنظر «العقل» متضائلا إلى آثاره النفيسة الخالدة، فرآها في كف «القدرة الإلهية» ليست أكثر من ذرة بلل فان متطاير، أقل شأنًا من ذلك الأثر الذي أحدثه القرود عند إصبع «بوذا».

معجزة الدين

لماذا لا يظهر في هذا العصر أنبياء ؟ سؤال يطرحه كثيرون ، ولا يتلقون عنه جواباً مقنعاً... لقد ظهر في هذا العصر من يدعى شفاء الأمراض ، ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى... ولكن قلنا يظهر من يدعى النبوة... لماذا ؟... السبب ولا شك هو أن المتنبئ يعلم أنه سوف يطالب بالإتيان بمعجزة ، وما هي المعجزة التي تستطيع أن تقنع الناس في عصرنا الحاضر ؟...

كان المتنبئون فيما مضى لا يحتاجون إلى عناء كبير في خداع العقول ؛ لأن أبسط الأشياء ، كان يكفي أن يعد في نظر البسطاء عجبة تحير اللب ؛ بل إن بعض مدعى النبوة ، إذا أخرجوا ، كانوا يلجأون إلى الفكاهة ؛ يفلتون بها من أعواد المشائق وأسياف الجلادين !...

والكتب القديمة مملوءة بنواديرهم ؛ فهذا رجل ادعى النبوة في أيام « هرون الرشيد » ، فلما مثل بين يديه وسأله عما يقال عنه ، أجاب بكل جرأة :

نعم !... إلى نبي كريم...

— أى شيء يدل على صدق دعواك ؟

— سل عما شئت .

وكان يقوم حول عرش « هرون الرشيد » ممالك مرد الوجوه ، فقال لمدعى

النبوة ، وهو يشير له بإصبعه إليهم :

— أريد أن تجعل هؤلاء الممالك المرد بلحي !...

فأطرق المتنبي ساعة ، ثم رفع رأسه وقال :

كيف يحل لي أن أجعل هؤلاء المردبلحي ، وأغير هذه الصور الحسنة ؟ ...

أنا أجعل لك إذا شئت أصحاب اللحي مردا في لحظة واحدة ...

فضحك منه « الرشيد » وعفا عنه .

وتنبأ شخص في عهد « المأمون » فطالبوه بمعجزة ، فقال :

أطرح لكم حصاة في الماء فتدوب ...

فقالوا : رضينا ...

فأخرج الرجل حصاة معه وطرحها في الماء فذابت .

فقالوا : هذه حيلة ، ولكن نعطيك حصاة من عندنا تجعلها تدوب .

فقال : وهل قال فرعون لموسى : لا أرضى بما تفعله بعصاك ، فدعني أعطك عصا من عندي تجعلها ثعبانا ؟ ...

فضحك « المأمون » وتركه ، وإذا رجل آخر يأتي إليه ويدعي أنه « إبراهيم الخليل » ،

فقال له « المأمون » : إن « إبراهيم » كانت له معجزات ...

فقال الرجل : وما معجزاته ؟

— أضرمت له نار ، وألقي فيها ، فصارت عليه برداً وسلاماً ... ونحن نوقد لك تاراً ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمننا بك ...

فقال الرجل : أريد واحدة أخف من هذه .

فقال له « المأمون » : فمعجزات « موسى » إذن ؟ ...

— وما معجزاته ؟ ...

ضرب بعصاه البحر فانفلق ، وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء

— هذه على أصعب من الأولى ! ...

— فمعجزات « عيسى » ؟ ...

— وما هي ؟ ...

— إحياء الموتى !

وهنا صاح الرجل :

مكانكم ... قد وصلت ! ...

وأشار إلى القاضى ، « يحيى بن أ كثم » ، الواقف بجوار « المأمون » ، وقال :

أضرب لكم رقبة القاضى ، وأحييه لكم الساعة ...

فقال القاضى « يحيى » من الفور :

أنا أول من آمن بك وصدق : فاضرب عنق من لم يؤمن ! ...

فضحكوا منه .

وجاء فى زمن « المأمون » أيضا مدّع للنبوة ... فقال له « المأمون » :

أريد منك بطيخا فى هذه الساعة ! ...

فقال المتنبي : أمهلنى ثلاثة أيام .

فقال « المأمون » : أريده الساعة .

فقال الرجل : ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين ... إذا كان الله تعالى - الذى خلق السموات

والأرض فى ستة أيام - ما يخرج به إلا فى ثلاثة أشهر : أفلا تصبر أنت على ثلاثة أيام ؟ ...

تلك كانت مشكلة المتنبيين فى الماضى : المعجزة ! ... أما اليوم فإنه لو قام رجل

يدعى النبوة ... وقال للناس : انظروا ، ثم مديده إلى القمر فخلعه من موضعه فى الفضاء

وصره فى منديله : كأنه بطيخة ، وساربه متنقلا فى أرجاء العالم ... فما الذى يحدث ؟

يحدث أن يهب علماء الأرض لفحص هذه الظاهرة ، فيقول الفلكيون : إن هذا

العمل الخارق قد دل على أن فكرتنا القديمة عن الأجرام السماوية كانت فكرة

خاطئة ، وأن المرصد والمجاهر ما كانت تسجل وتظهر غير أوهامنا مكبرة مضخمة ، وأن القمر ، في حقيقته ، ليس أكثر من فقاعة كبيرة من «الغاز» الخفيف ، استطاع أن يجذبها رجل ، في تكوينه خاصية ، يجذب إليها ذلك النوع من «الغازات» - بهذه السرعة الهائلة ، التي أدت إلى انكماش حجم القمر الأصلي قصار في حجم البطيخة... ويقول علماء الكيمياء : إن هذا الحدث يستلزم إعادة النظر في تركيب المواد التي تتألف منها الأجسام السماوية ؛ فهي لاشك قابلة للتحويل السريع من الصلابة إلى الرخاوة ، ومن الضخامة إلى الضآلة - وما من شيء يمنع رجلا ذا طبيعة خاصة من أن يجري هذا التحول .

ويقول علماء النفس : إن الأمر لاعلاقة له بالقمر ولا بغيره ، وإن الرجل ذو قدرة نفسية ، وقوة مغنطيسية ، يستطيع بهما الإيحاء على نطاق واسع ؛ فهو منوم هائل للجماعات ، ويكفي أن يقول في الناس ، حتى لو كانوا علماء ، إنه قد محأ بيده وجود الشمس من لوحة السماء ؛ كما يمحي الرسم من فوق السبورة ، حتى يصير هذا الزعم في النفوس حقيقة ملهوسة ، وتمحى الشمس فعلا في نظر الناس جميعا على اختلاف مراتبهم وعقولهم ، وهذه ظاهرة كانت تكشف في بعض الأشخاص من حين إلى حين ، ولكن على نطاق ضيق ، وقدرة محدودة ، ولا شيء يمنع من ظهورها في شخص على نحو يخرج على كل قياس ...

وهكذا يمضي كل عالم وباحث في كل فرع : يفحص ويمحص ، ويفترض ويستنتج ، وتكثر المجادلات الفنية ، وتتلألم النظريات العلمية ، ولكن ما من واحد من هؤلاء العلماء ، يأخذ نبوة الرجل على سبيل الجد ، أو يحاول التسليم بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل و «الله» ! ...

لم تعد المعجزة ، في عصرنا الحاضر ، دليلا على النبوة : فنحن في عصر المعجزات ،

تتعاقب كل عام ؛ كأزياء السيدات - فمعجزة القنبلة الذرية ، التي ظهرت في عام
مضى أصبحت قديمة في هذا العام ! ...

والموسم القادم كفيل بأن يطلع علينا بمعجزة جديدة ، يستقبلها الناس بالعجب
لحظة ، ثم يعتادونها وينصرفون عنها ، وينتظرون غيرها في الموسم التالي ...
وهكذا دواليك - لم يعد عالمنا الحاضر يطالب النبي بمعجزة ؛ فلو أتى بها لادخلها
العلم معمل بحثه - دون أن يعتبرها برهاناً على أنه مرسل من الله ! ...

عصرنا الحاضر خليق أن يعنى النبي من المعجزة ، التي تثبت شخصيته ؛
فلماذا لا يظهر المتنبي إذن ؟ ... وقد أزيلت من طريقه العقبة الكبرى ! ...
لا يظهر ؛ لأنه سيطلب بأصعب معجزة وهي : « الشريعة » ! ...

تلك الشريعة السماوية الإنسانية في آن - التي تصلح للناس كافة ، ويكون
فيها صلاح الناس كافة ؛ في آخرتهم ودنياهم ، وفي سمائهم وأرضهم ! ... كيف
تنزل هذه الشريعة ، دون أن تكون تكراراً لما سبقها من شرائع ؟ ...
لا بد إذن من شيء جديد ! ... ولا بد أن يكون الله قد أراد ذلك فعلاً ...
كل معجزات الأرض قليل إلى جانب « المعجزة العظمى » ، وهي « الديانة »
التي يفجرها الله من نوره ؛ فيتبعها أفواج البشر مهوورين ، شاعرين أنها سكبت
في شرايينهم ، ومزجت بدمائهم إلى يوم الدين ! ...

الأيمان بالحياة

في إحدى المصحات فتاة ، قاتلت الموت حتى انتصرت ، وهي الآن في طريق الشفاء ، تجلس الساعات الطويلة من فترة النقاهة تقرأ وتفكر وتتأمل !... وهي - فيما يبدو - قد فقدت بعض الإيمان بالحياة ، وخيل إليها أن الأفق ملبد بالظلام ؛ فهي تمد يديها تلتمس النور !... إنها كسفينة غالت الأمواج ، وقارعت الأنواء ، وخرجت من زوبعة الليل - بعد أن كاد يطويها اليم - تتمايل وتئن ؛ باحثة عن الهداية في شعاع منارة ، أو خيط فجر !...

اتجهت إلى ؛ لأدعم إيمانها ، وأبدد حيرتها ، وكان الواجب أن أجيها في رسالة خاصة ؛ فالأمر يعينها وحدها ، ولكن خطابها الحامل عنوانها ضاع مني ، ووقعت أنا في حيرة من أمري ، لا أدري : أأسكت عنها أم أخاطبها في كتاب ؟! واخترت الحل الأخير ؛ لأنني خجلت أن أصم أذني ، وأقبض يدي عن نفس ، تتخبط في الشك ، وتطلب الغوث ! ..

أيها الفتاة !... أتدري أين المنارة التي تهديك إلى الإيمان بحياتك ؟... هذه المنارة قائمة بين جنبيك ... إنها قلبك !...

هذا القلب ، الذي ظل ينبض في أحلك ساعاتك ؛ كما ينبض محرك السفينة في أعنف ساعات العاصفة - هذا القلب - لماذا استبسل هكذا ؛ دفاعا عن الحياة ؟... لماذا البث يدق دقات ؛ كأنها صرخات في وجه الفناء ، يفرعها ، ويرد على أعقابها ؟... لماذا يسير بخطواته المنتظمة ، أو المضطربة الليل والنهار ؛ لاتهمد له حركة ، ولا تخمد له نبضة ، ولا يخرس له لسان ؟... إنه حارسنا ضد الموت... إنه على حصن حياتنا الديدبان !.. قلبك يذود عن الحياة ، ويناضل عنها نضال البطل ؛ لأنه يؤمن بالحياة ...

إنما الذى يشك هو عقلك — هو تفكيرك ومنطقك — هو ذلك الشيء المصطنع
فينا... ذلك الشيء الذى اخترعناه بأيدينا...

أما القلب المؤمن بالحياة، الحارس لها، الذائد عنها، دون أن نتدخل فى عمله
بأذهانتنا؛ — فهو ذلك الجزء الأصيل فىنا — ذلك الجزء الذى وضعه الله...! لا
يستطيع عقلنا؛ لحسن الحظ، أن يصدر أمره إلى القلب، فيقف نبضاته؛ كما
يصدر أمره إلى الأيدي والأقدام، فيقف حركاتها...

لا أحد، غير الله، يستطيع أن يصدر أمره إلى القلب...! ولقد أمر الله قلبك أن يصمد للمحنة فصمد، وما دمت قد انتصرت على
الموت، فلماذا لا تنتصرين على الحياة؟...!

ما الذى يخيفك من غدك؟... أشباح ربما كانت تتصاعد من جوف كتبك
ومطالعائك وتأملاتك...! ليس أقسى علينا من خيالاتنا...! ليس أفك بنا من
أيدينا وصنع أيدينا، وليس أرحم بنا من يد الله وما خلق وأبدع...! نصيحتي
إليك، أن تتركى الكتب برهة، وتأمل الطبيعة...! استيقظى مع الفجر، واستنشقى
نسيماته، واصغى إلى العصافير، وهى تفتح أعينها، وتترك أعشاشها، وتقف قليلا فوق
الأغصان المرصعة بالندى تنفض ريشها، وتسقسق وتنشر أجنحتها، وينقر
بعضها البعض مداعبا، ويفر بعضها من بعض ملاعبا...! كلها غبطة بالفجر، وكلها
فرح بالحياة؛ لا يقعدها عن ذلك سحاب ملبدة، ولا جومطير...! إنها تحتفى بالفجر
فى اليوم المشرق، واليوم المكفهر، وتحتفل بوجودها، إذا صفا الأفق، وإذا أظلم
بالبضباب...! لكانها نشودة الحياة تطير فى الجو، صادحة منذ مطلع النهار، تلقى
فى سمع القلوب اليقظة المؤمنة، ما يملؤها تفاؤلا بالوجود واستبشارا...! أيتها الفتاة...! هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك...!

لا تلتصق المعونة عند مفكر ، ولا عند عالم ، ولا عند فيلسوف ! ...

بل التمسها عند ! ... عصفور ! ... ذلك المخلوق الصغير ، الذي وضعت فيه

قدرة الله ؛ إيماناً بالحياة ! ...

الباب الخامس

الأدب والعلم

ما أعجب العلم ، إذا تراءى .
لعين الأدب ! ...

باب العالم المغلق

كلما رجعت بالذاكرة إلى أيام حداثتي ، لاحظت لي أمور غريبة . من ذلك أني لم أكن معنيا بالأدب وحده ؛ فأنا أذكر اليوم جلياً ، أني في الثامنة عشرة من عمري كنت أقرأ « هربرت سبنسر » ولست أدري : ما الذي كان يعجبني من هذا الفيلسوف ، وما الذي استطعت أن أحصل منه ، في مثل تلك السن ؟ ... وهل هي المصادفة التي أوقعته في يدي ، أو هو الزهو بأن أقرأ لمفكر ، كان يملأ أسماع الدنيا في ذلك الوقت ؟ ... كل ما كنا نعرف عن « سبنسر » يومئذ ، هو أنه مؤسس الفلسفة التطورية في « إنجلترا » ولم أقرأ له بالطبع مبادئ التطور ، في علوم الأحياء ، والنفس ، والاجتماع ؛ — بل اكتفيت بعلم الأخلاق وهذا أقصى ما يحتمله عقل شاب في الثامنة عشرة ومع ذلك فإن ذاكرتي الآن لا تستطيع أن تخبرني : أفهمته حقاً كما ينبغي أن يفهم ؟ ... من المستحيل أن أكر راجعاً بعمرى إلى الوراء كل هذه الأعوام ؛ لأعيش تلك اللحظات التي كنت أطالع فيها مثل هذه الكتب ، وأراقب عملها في ربي ، وسجل أثرها في نفسي ولكن ... ما جدوى ذلك ؟ ... فلا أكن قد عجزت عن فهم « سبنسر » ، وليكن ما فهمت منه غير ما قصد ، وليكن ما حصلت منه أضال مما يجب — هنالك حقيقة لا شك فيها : هي أن بذرة ، قد ألقيت في نفسي من كل ذلك ، دون أن أشعر ومضت الأعوام — بعدئذ بالفعل — على نحو آخر ، شغلت فيها بألوان أخرى ؛ من الكتب ، والفن ، والأدب وإذاني في شبابي — وأنا على أبواب الثلاثين — يقع في

يدى عالم آخر، هو «لامارك»، مكتشف القوانين الأساسية لتطور الكائنات الحية، قبل «داروين» بخمسين سنة! ... ما الذى أوقعه فى يدى ... هذا أيضاً؟ ... أهى المصادفة أم الصيت المدوّى؟ ... ليس صيته قطعاً؛ فإن اسم «لامارك»، لم يكن من الأسماء المعروفة إلا فى محيط الخاصة من العلماء! ... قرأت له - قبيل الثلاثين - رأيه فى العادة الموروثة، وتكوين الغرائز، وتطور العضو تبعاً للوظيفة، قبل أن أقرأ «أصل الأنواع» الذى كان قد ذاع وشاع، حتى كاد يصبح فى «أوروبا» من الكتب المقرّوة بين عامة المثقفين؛ فإن «داروين»، من الوجهة العلمية، جاء متمماً للنظرية «لامارك»؛ بأن أضاف إليها نظرية الاختيار الطبيعى، وبقاء الأصلىح، فى العراك من أجل الحياة! ... ولكنه، من حيث التأليف، قد وضع كتابه هذا بأسلوب سائغ، يتمتع الأديب الذى ليس له بالعلم صلة، ولا إلى النظريات رغبة! ... ليس بعجيب على الإطلاق أن يعجب أديب «داروين»، ولكن العجيب أن يقع لأديب هذا الاتصال بثلاثة من الفلاسفة والعلماء، فى مراحل مختلفة من حياته، ويتضح له فيما بعد، أن أولئك الثلاثة هم أنفسهم أبطال نظرية التطور فى العصور الحديثة! ...

أهى المصادفة؟ ... وما هى المصادفة؟ ... أتراها، كما يقول «هنرى بوانكاريه»، العالم الرياضى؛ مجموعة الأسباب المعقدة الخفية عن إدراكنا، التى تؤدى إلى نتيجة مقصودة بعينها؟ ... لست أدرى ... كل ما أعرف، هو أنى فى ذلك الوقت كنت أكتب رواية «شهر زاد»، ومن ينعم النظر فيها يجد فكرة تطور الإنسان - لا على نحو يؤيد التطور المطلق فى خط مستقيم - بل التطور المحدود فى دائرة مفرغة؛ كدائرة الأجرام العظمى والصغرى فى أفلاكها السماوية والذرية ... فهل نستخلص من هذا أن هناك قدراً، يدفع الشخص إلى قراءة ما سوف يلزم له فى عمله؟ ... أو أن طبيعة الشخص، هى التى تميل به إلى هذا اللون أو ذاك؛ من ألوان

الغذاء الفكرى ؟ ... ليس من السهل الجواب ، وإن كنت أعتقد أن البذرة الأولى ، التى ألقىت فى نفسى منذ الحداثة ؛ قد فعلت فعلها فى الخفاء ، وإذا الحنين إلى ذلك النوع من الكتب يعاودنى من حين إلى حين ؛ — بل لقد بلغ بى الأمر حدا قد يدهش البعض ؛ فأنا أجد اليوم عسرا فى قراءة القصص ، وأجد اللذة فى مطالعة كتاب علمى — على أن الصعوبة عندى ، هى فى أن أعثر على كتاب فى صميم العلم ، من تأليف عالم يستطيع أن يكتب ؛ فإن أكثر العلماء لا يستطيعون أن يحلوا أفكارهم إلا فى نطاق معادلاتهم الرياضية ، ومصطلحاتهم الفنية التى لا يقدر على متابعتهم فيها غير العلماء ... أما أولئك الذين يبسطون العلم تبسيطا سطحيا ، فى كتب مقروءة للناس ؛ فلا أرى لهم قيمة فكرية كبرى بالنسبة إلى ! ... بقى أولئك الذين أعينهم ، وأحب أن أقرأ لهم ، وهم فى الغالب من طراز العلماء المطعمين بالفلسفة ، أو الفلاسفة المتصلين بالعلم ؛ يتخذون من العلم مادة تفكير وتأمل — لاموضوع بحث فى معمل — ويفرغون نتائج تفكيرهم فى كتابات ، نستطيع فى أغلب الأحوال أن نتابعهم ، إن لم يكن فى مسالكها ، فعلى الأقل فى مراميها ! ...

ما أعجب العلم ، إذا تراءى لعين الأديب ! ...

إنى لأسائل نفسى أحيانا : كيف استطاع العلماء أن يطلعوا على أعاجيب الكون ، دون أن ينقلبوا أدباء ؟ ... أما الأدباء فلا ينبغى أن يطلعوا على هذه الأعاجيب إلا بقدر ، وإلا انقلبوا مجانين ! ...

قل الروح من أمر ربي

جاء في أخبار السيرة النبوية، أن «النضر» و«عقبة» أقبلتا على رؤوس «قريش»،
في حي من أحياء «مكة» صائحين :

يا معشر قريش !... قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين «محمد»؛ فقد أخبرنا أخبار
يهود أن نسأله عن شيء أمرونا به، فإن أخبركم عنه فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل
مقتول، فروا فيه رأيكم !...

فلما جاء «محمد»، تقدم إليه «النضر» سائلا :

يا محمد !... أخبرنا عن الروح : ماهي ؟

ففكر النبي لحظة، ثم قال :

أخبركم بما سألتكم عنه غدا...

وتركهم وانصرف مطرقا، وسار في سبيله مفكرا، وجاء الغد ومضى، وتعاقت الأيام
والنبي ساجد عند غار حراء، يتأمل ويفكر على غير جدوى؛ حتى أرجف أهل مكة وقالوا :

وعدنا «محمد» غدا، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها، ولا يخبرنا بشيء...!

واشتد البلاء على النبي، فصاح مستغيثا بربه :

أي رب !... إليك أشكو بلائي.. أي رب !... ابعث لي وحيك !.. لقد سألوني

عن الروح ولا أعلم بم أجيب... أي رب !... أنسيتني؟... اللهم إني لفي بلاء، اللهم إني

لني بلاء !...

وعند ذاك، هبط «جبريل» بالآيات :

« وما تنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا . . ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ، إلا أن يشاء الله . واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا . . . ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . .

* * *

إنى أجد دائماً فى هذا الحادث سمة من سمات العظمة فى النبى : فهو قد فكر فى المسألة تفكيراً صادقاً خلال تلك الأيام الطويلة ، وقلبها على وجوها ، ولم يهتد فيها بنفسه إلى جواب : فهو لم يكن بالنبى الذى يبيع لنفسه الكذب على الناس ، فيخترع لهم جواباً بارعاً يسيراً يحوز على عقولهم الساذجة فى تلك الأزمان : — ولكنه أخذ الأمر مأخذ الجد ، وحاول فى الغار حل المسألة ، فلما هاله إعجازها استنجد بربه ، فسمع منه ذلك القول الحكيم ! . . .

على أن موضع الدهشة عندى ، هو أن « محمداً » فى عصره وبيشته ، قد رأى يبصيرته المسألة فى إعجازها ، بنفس العين التى يراها بها علماء العصر الحديث ! . . . إنى لم أدهش « لجوته » يوم قال عن الروح قولاً مماثلاً فى قصته « فوست » ! . . . فجوته قد مارس علوم النبات والتاريخ الطبيعى ، ودرس من قوانينها ما وضعه أمام هذا الإعجاز وجهاً لوجه . . . إن مسألة الروح لا يمكن أن تبدو أمراً م. جزأً للطاقة البشرية حقاً إلا أمام رجل علم ، غاص ، بكل ما أعطى للإنسان من ملكات مفكرة فى أعماق الأبحاث النظرية والعملية معا . . . وحتى رجل العلم المغلق فى أبحاثه ، المخدوع بالنتائج الأولى البراقة لاكتشافاته : — قلباً يبصر بعد المرمى ، أو يفتن إلى استحالة المطلب ، حتى يخطو فى تأملاته العليا خطوات . . .

فلقد حبس نفر من العلماء أنفسهم فى معاملهم منذ أكثر من أربعين عاماً ،

واضعين نصب أعينهم هذه المسألة : « أفى مقدور العلم يوما أن يخلق — صناعيا — مادة لها كل خصائص المادة الحية ؛ أى القدرة على النمو والتمثل ؟ ... »

لقد جرأهم على هذا الماطع ، اعتقادهم أن « الحياة » — فى جوهرها — ليست سوى تفاعل القوى الكيميائية الطبيعية ؛ فهى إذن قابلة أن تصنع فى المعامل صنعا ... ولو أنهم ما اجترؤوا بعد على أن يتصوروا إمكان الوصول ، دفعة واحدة ، إلى صنع « خلية » ، فالخلية فى نظرهم جهاز ، قد بلغ فى تخصصه ودقته أسنى المراتب ، وما هى إلا نتيجة تطور استلزم الملايين من الأعوام ! ... ومع ذلك فقد انكب العلماء يبحثون ... فما استطاع أحد منهم سوى رافايل ديويوا ، ولبترا بيرك ، وهيريرا المكسيكى ، وستيفان ليدوك ؛ — أن يأتوا إلا بكائنات منسجعة فيها شبه حياة استنبطوها من الأملاح ونظائرها ، واتضح لهم بعدئذ ، أنها جميعها لا تدخل نطاق الكائنات الحية ، بمعناها الحقيقى ! ...

على الرغم من ذلك يقول لنا البيولوجى « جانروستان » هذا القول المفعم بالتفاؤل : « إذا توصل العلم يوما إلى خلق الحياة ، فإن هذا سيتم حتما بوسائل أخرى ، وبالرجوع إلى طرائق الكيمياء العضوية التى لا تقهر ، وإن النجاح الذى بلغته حتى الآن ، فى هذا المجال ، ما عاد محل جدال ، — فهى اليوم قادرة على أن تخلق — صناعيا — عددا كبيرا من مواد النشاط الحيوى ، مثل القلويات وحتى الهرمونات ... الخ »

أما علماء الطبيعة « الفيزيقياء » ؛ فمنهم من يتجه وجهة أخرى ، ويضع المسألة على أساس آخر « مثل « شرودنجر » الذى يبحث فى أصول الحياة ، وهل هى تقوم على أسس القوانين الفيزيكية ؟ ... دون أن يتفأمل أو يتشائم ! ...

أما أنا ، الذى ليس بعالم ، ويحاول جاهدا أن يتابع العلماء فى أبحاثهم ، ويلقى العنت الشديد فى مطالعة آثارهم ، ويتحامل متجلدا على تفهم كتبهم ؛ — فإنى أتساءل متشائما :

لنسلم ، جدلا ، أن هؤلاء العلماء قد نجحوا في خلق خلية حية ؛ — فما قيمة هذه الحياة الظاهرية ، إذا لم تكن منطقية على تلك الخصال الكامنة العاقلة ، التي تميز بعد نموها شخصية النوع ؛ حيوانا كان أو إنسانا ؟ ... تلك هي الروح ! ... إنها ليست مجرد حياة بيولوجية عمية صماء ، تنمو داخل معمل نمو آليا ؛ — إنما المقصود بالروح ذلك الشيء الخفي الزائد على مجرد الحياة البيولوجية ! ... فهل في مقدور العلم أن يخلق لنا يوما خلية نملة مثلا ، فيها روح النملة ، بما فطرت عليه من سليقة الادخار والكدح والنظام ؟ ...

ما أظن العلم يستطيع أن يخلق ذلك ، ولا أقل من ذلك ...
ويبدو لي أن العلم قد عرف أخيرا حدوده ، وفطن إلى قصوره ، وآمن بوجود شيء خلف تحليلاته ومركباته ... شيء خفي لا يسميه الروح ... ولكنه هو في حقيقة الأمر ذلك الروح الذي أشار إليه الدين ! ...

ولنصغ إلى العلامة « ا . م . جود » ، وهو يتحدث عن التحليل العلمي للإنسان ، قال : « لو أن علماء الطبيعة ، والكيمياء ، ووظائف الأعضاء ، والتحليل النفسي ، والاقتصاد ، والإحصاء ، وعلم الأحياء الخ ... اجتمعوا ؛ ليقروا الحقيقة عن الإنسان بعد الفحص الدقيق والتحليل العميق ، كل في دائرة اختصاصه ؛ — لما استطاعوا أن يخرجوا بحقيقة الإنسان ! ... لأن كل هذه التفاصيل المتفرقة عن الإنسان لو جمعت لما كونت الإنسان ، فالإنسان ليس هو مجموعة الدقائق ، التي يتكون منها تركيبه المادى والحيوى والنفسانى ، — إنه أكثر من هذه المجموعة . . . إنه شخصية ! ... هذه الشخصية شيء يفلت دائما من غرابال العلم ووسائله ! ... هي شيء لا تحسه إلا إذا كنت لهذا الإنسان صديقا ، والصداقة والحب من الأشياء التي لا يمكن أن يحسها العلم ،

ويمضى « جود » بعدئذ يحدثنا عن نتائج التحليل العلمى لنكتة فكاهية ؛ بلهجة

لا تخلو من السخرية!... فيقول لنا: إن السير «أرثر دانتون» حاول أن يبحث في طبيعة «النكتة»، وقد رأى أنها قابلة للتحليل، شأنها في ذلك شأن أى مركب كيميائي، فشرح جوفا، وفك أجزاءها، وقرر ما ينبغي أن يكون عليه النموذج الكامل لنكتة فكاهية!... وكان المنطق يقضي، بعدئذ أن نضحك للنكتة، ولاكننا لم نضحك!... شئ. فيها قد تبخر عند التحليل، ولو حاولنا. عندئذ، أن نضم أجزاء نموذجية، لنكتة مثالية، حللها العلم وقررها؛ — لما ظفرنا مع ذلك بالضحك!... والضحك الذى ينسبه «جود» إلى النكتة، أسميه أنا الروح!... على أن العلم قد بدأ يعترف صراحة، بعجز العلم عن الوصول إلى روح الوجود؛ — بل من العلماء من اعترف صراحة، أن الدين هو خير طريق يوصل إلى هذه الغاية!...

قال «شرودينجر»: «إن بصيرتنا الدينية لها من القوة، والمتانة، والضمان، ما لبصيرتنا العلمية!...»

وقال «إينشتين»: «بصيرتنا الدينية: هي المنبع، وهى الموجه، لبصيرتنا العلمية» هذا الاعتراف هو، ولاشك، كسب للدين؛ فما كان أحد فيما مضى — أى منذ قرن من الزمان — يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول!...

ذلك كان حقاً مسلك الفلاسفة والعلماء فى الإسلام، ولكن العلم لم يقف فى وجه الدين — تلك الوقفة المسرفة فى التحدى والغرور — إلا فى القرن التاسع عشر، ومن يدرى؟... ربما يتحتم علينا، فى الغد، أن نتابع سير العلم؛ لتثبت أقدامنا فى الدين!..

فما من شئ يرينا دائماً قدرة الله إلا عجزنا البشرى!...

العلم متغير

يخيل إلينا غرورنا العلمي - في العصر الحاضر - أننا نستطيع أن نهرأى عقل عظيم من عقول الماضى ، وأن نشعره بعجزه الذليل ، وتقدمنا الجبار ، وأن نضعه موضع الحيرة ، والعجب ، والذهول ؛ أمام اكتشافاتنا الميكانيكية ، والبيولوجية ، والذرية ... ولكثير من الكتاب والمفكرين اليوم ، تصورات أدبية ، وفكرية ، لما يمكن أن يكون عليه الحال - لو ظهر في زمننا الحديث رجال من أمثال : «أفلاطون» ، و«نيوتن» ، و«أبي العلاء» ... يتصور «مترلك» الأمر على هذا النحو ؛ فيما لو ظهر اليوم «أفلاطون» ، واطلع على آثار حضارتنا القائمة ! ... إنه يراه ملقيا علينا أسئلة ، تحتاج إلى أجوبة خليقة بذهنه النادر ... أسئلة عن خطواتنا الثابتة الظافرة ، في مختلف ميادين النشاط البشرى ...

سياساً لنا - بالطبع أول ما يسألنا - عما صنعناه في ميادين الأخلاق ، والاجتماع ، والسياسة ! ... أى ربح إنسانى ظفرنا به في تلك النواحي ؟ ... فيماذا يمكن أن نجيب ؟ ...

لاشئ ! ... ما من شئ قد تم بعد ؛ فكل تجاربنا ، وكل خيالاتنا ، ومثلنا العليا وأكاذيبنا ؛ - تتقدم في وسائلها ونتائجها عما كانت عليه في عهد «أثينا» ... ما خلا شيئاً واحداً قد تحقق ، مبطناً بالنفاق والرياء ؛ - هو إلغاء الرقيق ! ... ولو فطن «مترلك» قليلاً ؛ لأدرك أن الرقيق قد ألغى في الأفراد ، ولكنه مباح في الجماعات ! ... وإذا كان من حق الفرد اليوم ، أن يعيش حراً ؛ - فإنه ليس من حق بعض الشعوب أن تعيش حرة ! ... لم يكف إذن مرور أكثر من ألفين من الأعوام ؛ لمحو هذا الظلم الإنسانى في أبسط صورته ! ...

فإذا سألنا «أفلاطون» ، بعدئذ ، عن حال الفن ، والفكر ، والأدب ؛ - فما نستطيع أن

نقول له : إنا تقدمنا في ذلك عن « أثينا » تقدما يذكر !... ومنا من قد يجيبه جواباً قاطعاً لا تردد فيه : إنا لم نزل نحتذى النماذج الإغريقية ، دون أن نبزها في السكال والإبداع !...

فإذا سألنا عما وصلنا إليه في الفيزياء ، والكيمياء ، والطب ، والجراحة ، والفلك ، والتاريخ الطبيعي ، وعلم الأحياء ،... إلخ : - فإنه هنا سيجد لدينا جوبة تدششه حقاً !... سينظر - بعين العجب - إلى آلاتنا البخارية والكهربائية ، وطائراتنا ، وأسلحة حربنا ، و « الراديو » ، و « الرادار »... إلخ : - فتصيبه رعدة في أول الأمر ، ولكن عندما تخف وطأة الصدمة ، سيلتفت إلينا متسائلاً :

لما الذي يمكن أن يضيفه كل هذا إلى ملكات الإنسان الروحية ؟... إنه على حق : - فكل هذه المخترعات قد يسرت لنا سبل الحياة المادية... إن كل طفل في مجتمعتنا العصرية قد شب ، وألف ، وفهم هذه الاكتشافات أكثر من « أفلاطون » ، ولكن هل كل إنسان - في زمننا - له ذلك الروح المتألق ، والثقافة المصفاة ، والذوق المهذب الذي لأفلاطون ؟...

هذا رأي أنا الشخصى... لو ظهر اليوم « أفلاطون » ، لكان هو دائماً « أفلاطون » - تلك الشخصية الإنسانية الممتازة ، في كل عصر ، وفي كل زمان... ولنفرض أنه ظهر حقاً ، فهل هو صالح للحياة في وقتنا الحاضر ؟... وهل يحب هذه الحضارة ؟... وأى نوع من الناس يتخذهم أصدقاء ؟... وأى بلد من البلاد بطيب له فيه المقام ؟...

أسئلة لم يجب عنها أحد بعد... ولأحاول الإجابة السريعة فأقول :

إن « أفلاطون » يستطيع أن يعيش في زمننا هذا مبجلاً ، قادراً على أن يكسب رزقه بعرق الجبين !... إن أى جامعة تقبله أستاذاً لعلمه ، يحاضر فيها ، باللغة اليونانية ،

إذا شاء...!

أما أين يقيم؟ ... فمن المحقق أن «أمريكا» ستصنع المستحيل؛ كي تغريه بالإقامة فيها، والتدريس في إحدى جامعاتها...! ولكنني أشك كثيراً في أن «أفلاطون» يحب هذه الحضارة الأمريكية الآلية الصاخبة، أو يطبق المقام في ناطحات سحابها الجوفاء — وهو الفيلسوف المشاء — أويرضى أن يعطى صورته، وحياته الخاصة طعاماً لصحفها ومخبريها، أو يحدث بعض فنانها؛ دون أن يلوذ بالفرار...!

ولكنه سيجدله دائماً أصدقاء: من الأدباء، والفلاسفة، وأساتذة الجامعات؛ ممن يقرءون له، ويدرسون آثاره — وهم بذلك يقيمون له خير دليل، على أنه حتى في كل زمان...! يعيش معهم، دون أن يروه؛ فليس هو بالصديق المستجد، وإنما هو لهم صديق الفكر والروح من قديم...! نعم...! مادام للروح قيمة في ذاتها؛ بما لها من شخصية، وذوق، وتهذيب؛ فالإنسان العظيم قد يرعى الاحتفاظ بقدره ومقامه في كل زمان ومكان، مهما تتجدد المعارف، ويقفز العلم، وتتعدد الاكتشافات، وتتغير الظروف والأحداث...!

إن الروح ثابتة، والعلم متغير...

هذا أيضاً دليل على أن الروح — لا العلم — هي مصدر الخلود...!

وجدتها .. ووجدتها

في تاريخ العلوم قصة صغيرة طريفة ، يتناقضها الناس في كل العصور ، منذ القرن الثامن قبل الميلاد : « حيرون » ملك « سير قوسة » ، طلب ذات يوم إلى صانع حاذق ، أن يصنع له تاجاً من الذهب الخالص ، فأذعن الصانع للأمر ، ومضى إلى عمله وانكب عليه ، حتى أتم صنعه ، وقدمه إلى الملك !... فلما رآه الملك ، داخلته ريبة في الصانع البارع ، وقال في نفسه : من يدري أن هذا التاج قد صنع من ذهب خالص ؟... ومن ثبت لي أنه لم يخلط بقدر وافر من الفضة ؟... واستولت على الملك هذه الفكرة ، حتى أرقّت ليله ، وأقضت مضجعه ، - فلم يربدا من أن يستشير في ذلك علامة العصر ، « أرشميدس » ، قائلاً له : « أريد منك ، أيها العالم الحكيم ، أن تكشف لي هذا الغش - إذا كان - وأن تتحقق لي من صناء الذهب في هذا التاج ؛ على شرط ألا تمسه بسوء ، وألا تحدث فيه أثراً !... »

فمضى « أرشميدس » ، يبحث وينقب طويلاً - على غير جدوى - عن الوسيلة التي يعرف بها مقدار الذهب ، دون أن يمس التاج ، وأعيته الحيلة ، وكاد يسلم أمره لليأس !... حتى كان يوم ، ذهب فيه إلى الحمام ؛ ليغتسل في حوضه !... فبينما هو مغمور في الماء ، لاحظ أن أعضائه تفقد وزنها في الماء على نحو ظاهر ، وأنه يستطيع أن يحرك ساقه فيه ويده ، فتتحرك بسهولة تثير العجب ... في تلك اللحظة أشرقت بصيرته بلهجة من لمحات الوحي ، قادته إلى اكتشافه المشهور : قانون « الكثافة النوعية » للأجسام . فما تمالك عند ذلك أن خرج من الحمام - بعد هذه الإشراف من الإلهام ، وهو ثمل بنغوره ، قد أنسى ما سبق من أمره - وجرى

في الطريق عاريا — دون أن يشعر أو يعي — وهو يصيح بالإغريقية: « يوركا... يوركا...! » أي: « وجدتتها!...! وجدتتها!...! »

أنا أيضاً حدث لي مثل ذلك ذات يوم — أنا الذي لا يفقه شيئاً في العلوم — خيل إلى أني اكتشفت حقيقة علمية!... وهل من الضروري أن يكون الإنسان عالماً: طبيعياً، أو كيميائياً، أو فلانكيا؛ لتكشف له الطبيعة عفو أعن سر من أسرارها؟!... إن الطبيعة امرأة قد يحلو لها أن تنزع نقابها، أمام من لا يعنيه أمرها، وتتحفظ وتتمنع على من يجري خلفها، ويتفوق أثرها، أو قل: إنها استهانت بشأني أو لم تفتن إلى وجودي، فخلعت — على مقربة مني — إزارها... ومكنتني من الاطلاع على سر من أسرارها، وكان ذلك أيضاً داخل الحمام!... لكان الطبيعة، هي الأخرى، لا تخلع برقعها، ولا تتجرد في حقيقتها العارية إلا في حمام!...

نعم ما من شك عندي في أني اكتشفت اكتشافاً علمياً، قد لا يقل في الخطر والأهمية عن اكتشاف « أرشميدس »، وقد تجلى لي الوحي مثله تجلي له... في حمام!... وكل الفرق بيني وبين الحكيم الإغريقي هو أني نسيت أن أخرج من حمامي إلى الطريق عارياً أصيح: « يوركا!... يوركا!...! » أي: « وجدتتها...! وجدتتها!... »

فالذي فعلته هو أني ارتديت ثيابي؛ بكل تعقل، ورزاقه، ورباطة جأش!... ولا غرو؛ فنحن الآن في عصر العقل المادي، وورق البنكنوت!... وخرجت من داري إلى الطريق بكل تؤدة ووقار، وذهبت من فوري إلى صديقي لي، عالم معروف من علمائنا الراغبين في العلم، ودخلت عليه وابندرتة قائلاً:

أتعرف من الذي أمامك؟

— طبعاً... أعرف!...

— أراهنك بعشرة جنيهات على أنك لا تعرف ...

لماذا تريد أن تخسر نقودك؟

قالها وهو يخرج من محفظته ورقة مالية بالجنيهات العشرة ، واثقا متحمدا ...

فصنعت مثلها صنع ... وأخرجت ورقة مالية مثل ورقته ... وكلني ثقة

واطمئنان ، فنظر إلى باسما قائلا :

والآن؟ ...

— والآن ... تكلم أنت ... من أنا؟

— أنت صديقي فلان ...

— أبدا ... أبدا ... أنا « أرشميدس » ...

فخدق في وجهي ليتأكد له اكتمال قواي العقلية ... ولم أمهله . فقد اقتحمت

الموضوع اقتحاماً ، وقلت له :

إني لا ألقى الكلام جزافاً يا صديقي ... عندما أقول لك إني « أرشميدس » ،

فيجب أن تصدقني ! ... لقد اكتشفت — مثله وفي مثل ظروفه — حقيقة علمية ..

قد تقلب علم الكهرباء التطبيقية رأساً على عقب ، وقد تغير نظام الصناعة الحاضرة ، وتقرر

مصير المصانع الحديثة ؛ بل قد تغير نظر الخبراء العالميين ، في مشروع خزان أسوان ! ...

فالتفت إلى العالم باهتمام يخالطه حذر ...

— ماذا تقول؟ ... أنت تكتشف؟ ...

— ولم لا؟ ... يضع سره في أضعف خلقه ! ...

— قصدى .. أنك لست بعالم كهربى ...

— وماذا اخترع العلماء الكهربائيون المنتشرون في الأرض ، العاكفون

على الدرس والتدريس في المعامل والجامعات ، وهم يعدون بالآلوف ؟! ... كثير من

أسرار الطبيعة ، تجلت بالمصادفة للبسطاء أمثالي ، قبل أن يتلقفها العلماء المحترفون ، ويبحثوها ، ويقرروها حقائق علمية ! ...

فبدأ على وجه صديق العالم أنه اقتنع . فأطرق مفكرا قائلا :

في قولك شيء من الوجاهة ، ولا شيء بمستبعد ! ...

— الوحي في العلم ؛ كالوحي في كل شيء . — بهبط على كل إنسان ؛ فما المانع أن تهبط على مثلي حقيقة علمية مجردة عارية ؟ ... لاحظ أنها هبطت في حمام ... وأناى أبصرها بإدراكي ، وأراها يبصيرتى ... وأمسها يدي ... وأحسها في كفي ... ثم أقدمها إليكم — معشر العلماء الجالسين فوق المكاتب ، تقلبون في أوراق وسجلات وملفات ، لتلبسوها بعد عريها ثيابا خداعة براقة ، من صيغكم الفنية ، ومعادلاتكم الرياضية ، لتبدو في أعين الناس ، حقيقة علمية وقورا جديرة بالاحترام والتقدير ! ...

— قولك لا يخلو من صواب ! ... إن عمل بعض العلماء ؛ كعمل الخياطة التي تلبس « الحقيقة » الثوب الذي تصلح به للظهور في المحافل ، ولكن يجب أن تعترف أنه ما من امرأة تستطيع أن تظهر في الطريق عارية ... كذلك « الحقيقة » ! ...

— وكيف استطاع « أرشميدس » أن يظهر في الطريق عاريا ؟ ...

— لا تنس أنه كان عالما ... لقد شغل باله في الحمام باللباس « الحقيقة » ورداء . ونسى نفسه ! ...

— إني معترف بأن « حقيقة » عارية ، ولذلك جئت إليك لتصنع لها ثوبا حتى نخرجها إلى الناس جميلة المنظر ، جليلة المظهر ! ...

— لا مانع عندي ... هات لي هذه « الحقيقة » ! ...

— كلا يا صاحبي ! ... فلنتفق أولا على الشروط ! ... إن النتائج التي سترتب على هذا الاكتشاف ذات أهمية كبرى ؛ خصوصا من الناحية المالية —

فلن يكون حق الاختراع. وما يدره من موارد، لاتعد ولا تحصى ؟ ... !

فهرش صديقي العالم رأسه، ثم قال :

مهما يكن من قدر الاكتشاف فإن كل قيمته في التجارب العلمية التي تجري عليه، واستخلاص القوانين، التي يمكن استخدامها في التطبيق العملي والصناعي ...

— ما معنى ذلك ؟ اعرض شروطك، بلامداورة ولا التواء ... !

— تريد الصراحة ؟ ... للكشف الثلث، وللعالم الثلثان ... !

— ياللبالغة ... ! لجسم الحقيقة الثلث وللخيطة الثلثان ! ؟ ...

— إنك لست الحقيقة، ولا جسمها ... ! ما أنت إلا رجل عابر، صادم

، الحقيقة، في الطريق عارية كاللقطة، لاتعرف لها مأوى ولا هدفا، فسحبها أنت من يدها، وقدمتها إلى ؛ لأزيل عنها وسخها وهملها و « عبلها » ، وأصقلها، وأجلوها، وأدثرها، وأظهرها ... ! باختصار، هل تقبل المناصفة في

الحقوق ؟ ... !

— نزولا على حكم الصداقة وحدها ... أقبل ... !

— اتفقنا ... هات اكتشافك ... !

— اسمع ياسيدي : كنت في الحمام منذ أيام ... وكان في « الدش » خلل ...

ثقب متسع، فيما أذكر، يندفع الماء منه فوق الجسم بقوة شديدة ... فاستقبلت هذا الماء المضغوط. بكنتي من ذلك الارتفاع، فإذا بي أشعر في اليد برعشة ؛ كتلك الرعشة، التي تحدث من لمس سلك من أسلاك الكهرباء ... ! هنا أدركت لساعتي أن ضغط الماء في ذاته يولد قوة كهربية ... وعلى هذا القياس فإن الماء المندفِع من عيون خزان أسوان، يولد كهرباء بطريقة مباشرة بمجرد الضغط والاندفاع ... وهو مالم يخطر، ولا شك، على بال أحد من خبراء مشروع الخزان ؛ لأن الذي

خطر ببالهم هو الارتفاع بضغط الماء في إدارة «مراوح»، تحرك بعد ذلك «دينامو»،
هو الذى يولد الكهرباء... أما اكتشافى، فهو أن الماء نفسه في مساقطه، يولد
كهربا — بغير حاجة إلى «دينامو»...!

ماقولك في هذا الاكتشاف؟....

فنفخ صديق العالم نفخة، خيل إلى أنها أطارت كل صرح آمالى... وبعد أن
تمهل قليلا؛ ليستجمع ما بقى من احترامه المبددلى... قال في نبرة سخرية مكظومة:
أتدرى ما إذا اكتشفت؟...

— ما إذا؟...

— البحر الأبيض المتوسط... نعم، شأنك بالضبط شأن رحالة يأتي
في هذا العصر؛ ليعلن إلى الناس أنه اكتشف بحراً عظيماً، فإذا سألوه عنه، قال:
هو هذا البحر الذى يحد من الشمال بأوروبا، ومن الجنوب بأفريقيا...
يا صديق الفاضل... كل جسم في حركته يولد كهربا؛ أنت الآن، وأنت
ترفع يدك؛ تولد كهربا، وأنت، تضعها في جيبك؛ تولد كهربا، وأنت، تتناول هذه
الجنينيات العشرة من أمامى؛ تولد كهربا...! عجباً!... ما ذا أرى؟... انتظر؛
حتى نبت في أمر الراج للرهان!...

وكان السيف قد سبق العذل، وامتدت يدي، فاخطفت الورقة المالية، التى كنت
قد أخرجتها، وجازفت بها؛ فقد لمحت شبح الخيبة والهزيمة في الأفق، فأسعفتنى
اليدوية بضرورة الانسحاب السريع.

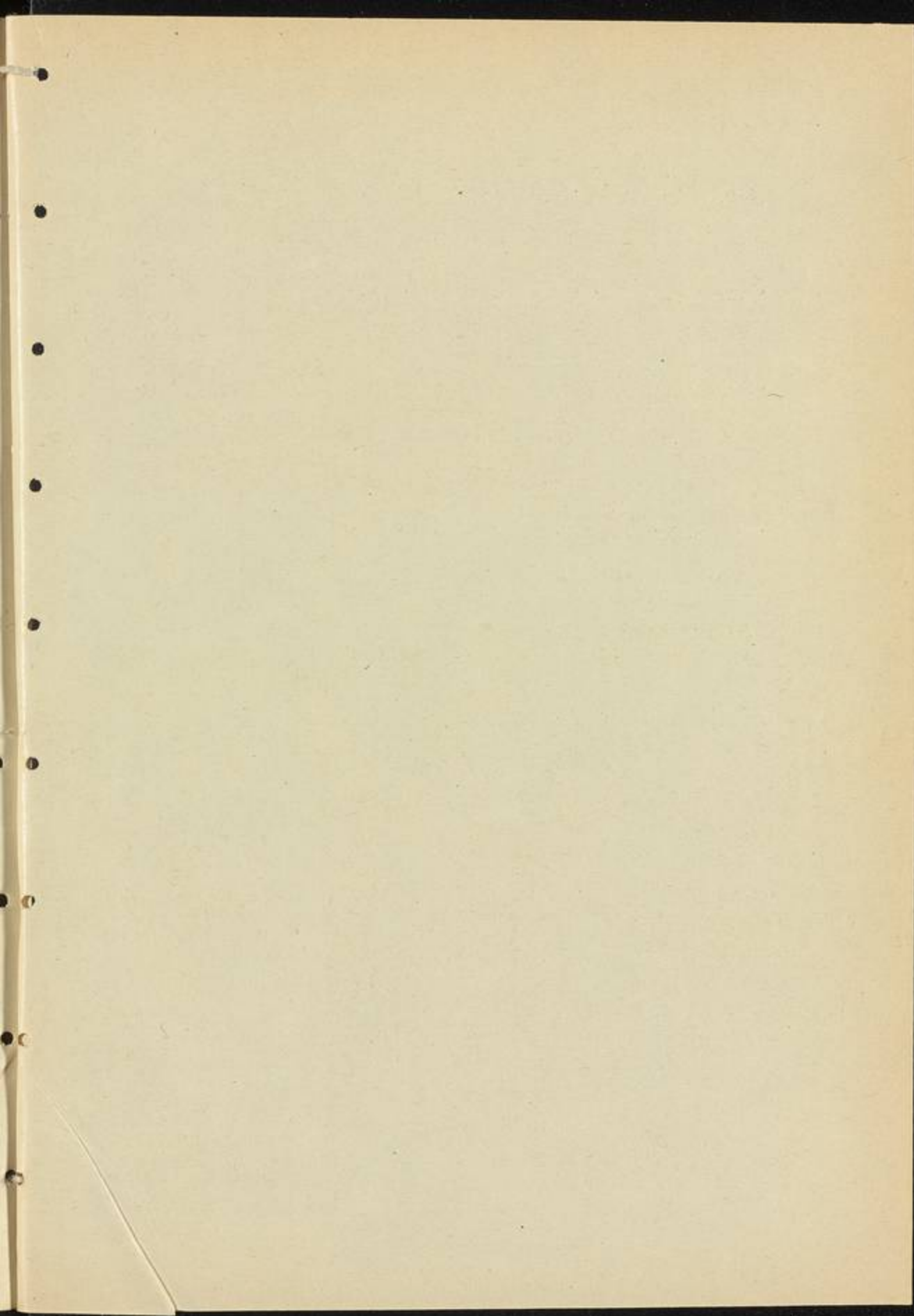
ونهضت وأنا أقول لصاحبي؛ لأعطى انسحابي:

أحقاً أنى لم أكتشف شيئاً جديداً؟...

— دعك من هذا الهراء!... وحدثني عن الرهان!...

— ليس في الأمر هراء... كل شيء جديد عندي مادمت أحسه بنفسى لأول مرة!... فلتمتليء الدنيا بالحقائق العلمية، فكل حقيقة لم تدخل مدار إحساسى وإدراكى فهى لم تولد بعد!... أنا الراجح للرهان؛ لأن العبرة هى بأن أعتقد — أنا فى لحظة من اللحظات — أنى «أرشميدس»!... وقد حدث هذا، ولا يهمنى اعتقادك أنت، ولا اعتقاد الآخرين، ومع ذلك فالذنب ذنبى؛ فلقد كان فى مقدورى — بكل سهولة — أن أقنعك وأقنع الناس!... — كيف؟...

— لو أنى فعلت؛ كما فعل «أرشميدس»، وخرجت من الحمام إلى الطريق عارياً!... — لا تنس أنه فى عصره لم يكن قد أسس بعد مستشفى للمجاذيب!... فبرزت رأسى؛ تأسفاً وترحماً على عصره السمع الحر، وتركت صاحبي العالم، وأنا أقول فى نبرة المصر على حقه وفوزه ورأيه: وبعد ذلك يسمون عصرنا الحاضر العصر الذى يشجع فيه المكتشفون!...



الباب السادس

الأدب والحضارة

إذا أجمرت شمعاً ، فاعلم أن وراءه كوكبا...
وإذا رأيت أدبا ، فاعلم أن وراءه حضارة...
وما من خطر يهدد الشعاع إلا انفجار
الكوكب ! ...

الحضارة في الغد

يعجبني من مفكرى الغرب ، براعتهم في إبراز فضائل الحضارة الغربية . وما من شك عندي في أن لهذه الحضارة فضائل ، ولكن الذى أشك فيه أحيانا ، هو ما تنطوى عليه براعة هؤلاء المفكرين من مقاصد وأغراض ... من ذلك أنى وقفت طويلا عندهذا القول : «لريمون فرجناس» في حضارة الغرب ... قال : «إن هذه الحضارة الغربية قد ولدت في حوض البحر الأبيض المتوسط ، من امتزاج الروح الإغريق بالروح المسيحي ؛ فهي إذن قد اتخذت مهدا هذه البلاد ، المحدودة الرقعة الضيقة الآفاق ، وجعلت إطارها هذه الطبيعة الرحيمة الهادئة ؛ بجداولها الجارية ، وأشجارها المثمرة بالزيتون ! ... إنها حضارة وديان ... يعيش فيها بسلام الإنسان ، وصديق الإنسان ! .. وإن ساكن الوادى لا يحسد عاده جاره على واديه ، ولا يطمع فيما لديه ، ولا يتمنى أن يطرده من أرضه ؛ ليحل في مكانه ... ربما كانت تلك نظرة أقرب إلى الشعر ! ... وربما اعترض عليها معترض ؛ بما يزعمه أهل الشرق ، من أن حضارة الغرب هي حضارة حروب وفتوح ! ... نعم ... حضارة الغرب تعرف الحروب ، ولكنها حروب من أجل الكرامة ، لا من أجل التوسع والفتح » ... !! هكذا يفكر ويتكلم هذا المفكر الغربى . إنه يحمل الحقائق تجميلا رائعا ، وليست ما يقول صحيح ! ... إذن لكانت «أوروبا» هي الجنة الموعود بها المتقون ، وليكانت الحروب قد انقرضت من الأرض ، والاطماع قد زالت من الصدور ... ولكن الواقع يقول لنا غير ذلك ، مع الأسف الشديد ! ... الواقع يقول لنا وهو يشير بإصبعه : «اتبعوا

الشمس حيث تسير ، واخصوا كل شبر من أرض ، يقع عليه منها شعاع ؛ — تجدوا راية غربية ، وفتوحا حربية ، ومطامع استعمارية ! ...

ويمضى ذلك المفكر الغربى فى تصويره قائلا : « إن فكرة الوادى — وهى الصورة التى يعتز بها — قريبة إلى فكرة السعادة ؛ لذلك تبدو له الحضارة الغربية ؛ كأنها حضارة الشعوب السعيدة ... أو على الأقل حضارة أمم أقل تعرضا من غيرها ، لقسوة الحياة ، وكوارث الطبيعة ! ... هذا الهناء ، النسبى فى نظره ، هو الذى أدى إلى ذلك الاحترام ؛ لذات الإنسان فى حضارة الغرب ! ...

ردى بسط على ذلك المفكر : أن الطبيعة قد رحمت الغرب حقا ، وحبست عنه كوارثها ، ولكنه هو لم يرحم نفسه ، فقد خلق لذاته من الكوارث والمحن ، وأنزل بأرضه من الخراب والدمار ، ما لم يخطر للطبيعة على بال ! ... كل منبع للسعادة يسممه ؛ حتى منبع الدين ، وكل جار له يحطمه ؛ حتى لو كان مصدرا للعلم والتفوق والاختراع ! ... لقد ولد الغرب فى أرض السعادة حقا ، ولكنه رفض السعادة ! ...

ويقارن ذلك المفكر بين نظرة الشرق ، ونظرة الغرب إلى الإنسان قائلا : إن أولئك الذين ذهبوا إلى بلاد الشرق ، ها لهم ما رأوا من ثبات الشرقيين وهدوئهم أمام تلك الخطوب والكوارث التى تودى بحياة الملايين ؛ — لكأن أهل الشرق يرون فى الأوبئة والمجاعات والزلازل ، أسبابا طبيعية ، وحلولا سماوية ؛ لمشكلات ازدياد السكان ، وقلة الطعام ! ... فالأموات يخلون مكانهم ، ويتركون زادهم للأحياء ... وتلك نظرة تخالف ، كل المخالفة ، نظرة الغرب الذى يرى حياة الفرد الواحد لها من القيمة ، ما لا ينبغى النزول عنه للغير بأى ثمن ... إن التسليم بشقاء فرد — لضمان خير الآخرين — أمر يناقض التفكير الغربى ...

هذا كلام طيب ، مهما يكن في جوهره من الأثرة الفردية ! ... ولكن إلى أي مدى صدق هذا التفكير ، في ميدان الواقع الغربي نفسه ؟ ... إن المحافظة على حياة الفرد ، وسعادته ، وحقوقه ، مبدأ عظيم ! ... ولو ثبت أنه من ابتكار الحضارة الغربية وحدها ، لماوسعنا إلا الانحناء لها احتراماً ! ... ولكن المبدأ الآخر ، الذي ينسبه ذلك المفكر إلى الشرق — وهو مبدأ تضحية الفرد من أجل المجموع — هو أيضاً مبدأ لا يقل سمواً عن المبدأ الغربي ! ... وفي رأي أن كل حضارة كاملة ، يجب أن يقف فيها المبدأن جنباً إلى جنب ، ولا يدرى أحد ما الذي سيكشف عنه الغد ... ولكن الذي نراه اليوم ، هو أن العالم قد انقسم إلى معسكرين ؛ كل منهما قد اتخذ من أحد المبدأين رايته ؛ فالمعسكر الشرقي تمثله الآن «روسيا» ، بمبدأ الذي يقول : إنه يجعل للدولة الأهمية الكبرى ، وللمجموع القيمة الأولى ؛ — على حين أن المعسكر الغربي يقول : إنه يجعل للفردية الأهمية الأولى ، ولل فرد القيمة الكبرى ! ... هل يثبت لنا الغد أن الطرفين على حق ؟ ... وأن العالم لم يعد يطبق تعدد الحضارات ؟ ... وأن دنيا المستقبل لن تقبل إلا حضارة واحدة ، ترفرف بجناحيها الكبيرين على الأرض ؟ ... وتضم تحتها أسمى المبادئ متسقة ، وأنبى الأفكار مجتمعة ؟ ...

الحضارة والشرق

الحضارة الأوربية هي أحيانا كرداء المساخر ، يجمع من الألوان كل متنافر!...
فهى فى الوقت الذى تمنح فيه النساء حق الانتخاب ، تحرمهن حق التصرف فى
أموالهن ، وتجعلن فى حكم القاصر، وتجعل الأزواج عليهن فى أموالهن أوصياء!...
فكان المرأة ، فى نظر الغرب ، تصلح لتدبير شئون الدولة ، ولا تصلح لتدبير
شئون مالها!... وعلى هذا الأساس المتناقض، منحت بعض الدول نساءها الحقوق
السياسية :- مفتخرة مزهوة :- فدخلت نساؤها مجالس النواب ، وفى أقدامهن
أغلال الحرمان من حقوقهن المالية والشخصية!...

ثم رفعت هذه الدول الصوت مجلجلا فى هيئة الأمم المتحدة ، مطالبة بمنح
هذا الحق السياسى لكل النساء فى بقية الشعوب ...

يا للمهزلة!... لكأن صوت المدفع هو الذى يتيح اليوم للغرب المسلح أن
يطلق صوتا سخيفا فى شئون المجتمع ، يسميه صوت الحكمة والتقدم؟!... ولست
أدرى ، كيف استطاعت أوروبا المتقدمة ، أن تلبث القرون متخلفة عن الحضارة
الإسلامية؟!...

لو كان لدينا مثل قوى الشخصية، دماغ الجحمة ، فى هذه الهيئات الدولية :- لصاح
بهؤلاء القوم : ألا أيها النوام ويحكم هبوا!... ألا تعرفون أن نساءنا المسلمات
يملكن من حق التصرف فى أموالهن ، ما تطمعون اليوم فى الوصول إليه ؟ ...
ولكن مركب النقص فى الشرق ، يخيل إليه دائماً أن الغرب لا يتأخر ، ولا يمكن

أن يتأخر!... وما الغرب في حقيقة الأمر إلا متأخر جدا، في كل شئون الروح والحكمة العليا!...

* * *

وإن من آيات تأخره، ذلك الذى يسميه «الحق السياسى»... ولقد نكب به شعوبا، ويريد أن ينكب به البيوت والأسر. هذا الغرب المأزول المتناقض يمنح هذا «الحق» للفرد ولا يمنحه للأمة... مامن أمة لها حق سياسى فى تقرير مصيرها؛ — إلا إذا كان فى يدها مدفع، وما من فرد انتفع بحقه السياسى فى تقدير مصيره!... ولكنه قرر به مصاير من اشتروا، أو اختلسوا منه هذا الحق!... ما كلمة «الحق السياسى» إلا لعبة حمقاء، من لعب الغرب، شغلت بها الأذهان، دون أن يثبت لها نفع!... وإذا رجع الغرب إلى حكمة الشرق، ورأى كيف فهم الإسلام الديموقراطية؛ — لجنى من ذلك دروسا قد تصلح من فساد، وتقليل من عثاره...

* * *

نشرت ذلك منذ سنوات فى كتابى «عصفور من الشرق»، وقد ترجم إلى لغات أجنبية... ولكنى ما جنيت من ذلك إلا تهمة، ألصقها بى كاتب، نشر بالإنجليزية فى لندن كتابا عن مصر، قال فيه عني: «إنى رجل رجعى»، واستشهد بفقرات من كتابى المذكور... أدركت عندئذ أن الغرب غير راغب فى أن يستلهم من نور الشرق شيئا... وأنه لا يزال يمعن فى الاعتقاد بأن كل ما خرج عن حضارة الغرب فهو توحش، وأن كل ما اتصل بجوهر الشرق فهو رجعية!...

* * *

لست أدري: أنسمى هذا الموقف من الغرب عمى؟... أم نسميه تعصبا؟... لاطالما!

رمانا الغرب بالتعصب ؛ — زور اوبتهانا ! ... وما من أمة في الأرض ، أبدت من التسامح والتساهل والحرية ، ونبذت من الجحود والقيود ، مثلما فعلت أمم الشرق إزاء الحضارة الغربية ! ... فلقد فتحنا أعيننا عليها بضائر نقية ، ونقبتا فيها بحسن نية ، واخترنا ما اعتقدنا أنه ينفعنا في حياتنا الحاضرة ، وما ينفي عنا شبهة التمسك بالبالى من المظاهر ، وذهبنا في ذلك أحيانا أبعد مما ينبغي ؛ — فما وجدنا بأسا في أن ننقل عن الغرب كثيرا من الأردية ، والأنظمة ، والقوالب ، والطرائق ؛ فهي أعراض مما يلحق المدنيات القائمة ، وأثواب مما يغلف العصور المتجددة ! ... ولكن الذى ما كنا لنتهاون فيه قط هو : الروح والجوهر ! ... هنا ونقول للغرب : قف ، وحذار أن تمس هذا الجانب من الشرق ، ومهما يكن من أمر اتهامه لنا بالرجعية ؛ — فنحن أقدم منه عهدا ، وأكبر سنا ، ونحن نعرف أنه الآن في شبابه المضطرب ، ونشاطه المتقد ؛ — لا يمكن أن يترث ليبحث عندنا عن معونة ! ... ولكن ، غدا عندما يقعه الكبر ، وتذله الهزيمة ، ويذهب عنه الغرور ، ربما وقف لحظة ، وتلفت حوله ، يلتمس الهداية ؛ — فلن يجد له عندئذ من هاد غير الشرق ، مهبط الحكمة ومنبع النور ! ...

تراث الحضارات

إن العصر الذى نعيش فيه اليوم ، هو عصر الصراع — لا بين القوى المادية وحدها — بل بين القوى الفكرية ، وإن هذه التيارات الثقافية المحيطة بنا ؛ من أنجلوسكسونية ، ولا تينية ، وسلافية ؛ — لتدفعنا إلى التفكير في موقفنا حيالها ! ... لقد فكر فى ذلك فعلا بعض شبابنا المثقف ... ورأى أن يطرح على هذه الأسئلة : « ماذا نأخذ وماذا ندع من حضارة الغربيين ؟ »

فأجبت بلا تردد :

نأخذ ما فى رءوسهم ، وندع ما فى نفوسهم ؛ إحساسنا ملكنا ، وإحساسهم ملكهم ؛ فالشعور طابع شخصى ، لا ينقل ولا يستعار ، ولكن المعرفة ملك مشاع ، ومتاع يتداوله الجميع ! ...

« وهل نأخذ كل ألوان المعرفة ؟ »

— كل ألوان المعرفة نأخذها ، لا نترك لونا واحدا ... ما من شعب فى هذا المعترك العالمى الحاضر ، يغتفر له الجهل بعلم من العلوم ، أو أدب من الآداب ، أو فن من الفنون ، ولن تقوم للشرق نهضة حقيقية إلا إذا أحاط بكل معارف الأرض إحاطة شاملة ، ثم صهرها فى قلبه ، وأخرجها — مرة أخرى للناس — معدنا نفيسا يشع أضواء جديدة .

« وما رأى فى اختيار ثقافة معينة دون ثقافة ، كاختيار اللاتينية مثلا دون الأنجلوسكسونية أو العكس ؟ » ...

— هذا خطأ ! ... كل الثقافات الموجودة يجب أن نلم بها إلماما ، وأن نتخير محاسنها ونقطتها أطايبها ، فنحن لسنا مثل الغربيين مقيدون بواحدة منها دون

الأخرى!... كلها لنا؛ نفتخر منها، ونضيف إليها من ذات أنفسنا، ونضفي عليها من مشاعرنا، ونطبعها بطابع مزاجنا وإحساسنا!... لا يجب أن نتحيز لواحدة دون الأخرى، أو تشجيع، أو أن نقصر اطلاعنا على ثقافة دون ثقافة. ويجب ألا يكون للاتجاهات الشخصية، أو للبؤثرات السياسية، أو للظروف الدولية؛— تأثير في إقبالنا نحو إحداها، وانصرافنا عن إحداها!... فالثقافة ليست بضاعة مادية لأمة من الأمم، وإنما ثقافة كل أمة ملك البشرية كلها؛ لأنها خلاصة تفكير البشرية جمعاء!... ثقافة أى أمة، ليست سوى «عسل»، استخلص من زهورات مختلف الشعوب، على مر الأجيال؛ فليكن همناجنى العسل، دون النظر إلى جماعات النحل!... وهل من العقل—إذا لدغتنا جماعة من النحل— أن نقاطع عسلها؟!... لقد عرفت رجلا عسكريا من الإنجليز، أيام الحرب، أشرف على الستين، ما كانت تذكر أمامه كلمة «هتلر» أو «النازية»، أو حتى كلمة «ألمانيا» حتى يصعد الدم إلى رأسه غضبا؛ فقد كانت له في جنوب «إنجلترا» أسيرة، ذاق الأهوال من القنابل الألمانية الطائرة. وكان له أهل وأقرباء، قتلوا في الحرب ضد الألمان، وعلى الرغم من ذلك، ما كنت أراه يخلو إلى نفسه، وفي فترة راحة من عمله؛— حتى أجده عاكفا على كتاب بعينه، يطالع باهتمام، فنظرت ذات يوم إلى ما بيده؛ فإذا هو: كتاب ألماني يتعلم فيه اللغة الألمانية وآدابها، فدهشت!... هذا الرجل الذى يمقت الألمان هذا المقت، يتعلم لغتهم ويعنى بآدابهم وثقافتهم وفي مثل سنه!... وحادثته في ذلك فقال: «وما وجه العجب؟!... هل الثقافة الألمانية ملك الألمان وحدهم؟!... هذا درس يجب أن يوضع تحت عين كل شرقي!...

«أليس لنا مع ذلك أن نساير، من بين الثقافات الغربية؛ ما يناسب طبيعتنا الشرقية، أو ما يصلح لها في نهضتنا الحاضرة؟...»
— من رأي ألا نهمل شيئا؛ فكل ثقافة لها مزاياها، وما دمنا الآن

فى مجال الاختيار والاغتراف ، فيحسن بنا أن نرسل أبصارنا إلى كل جهة ،
والأنحبس أنفسنا فى سجن ثقافة واحدة بعينها ... أو أن نتجه إلى ثقافة شعب
واحد من شعوب الغرب ... الحذر كل الحذر من إهمال ثقافة ، أو مقاطعة
ثقافة ! ... لقد غلط العرب القدماء غلطة ، هى التى جرت علينا اليوم هذه العزلة
الذهنية ، وقطعت ما بيننا وبين « أوروبا » من معابر ومسالك : — تلك هى مقاطعتهم
قديما لثقافة اليونان والرومان ! ... فلو أنهم نقلوا واتصلوا بكل آداب الإغريق
والرومان ، وحذقوا كل فنونهم ، ولم يهملوا لونا واحدا من ألوانها ، ولم يغفلوا
فرعا من فروعها ؛ — لكان قد حدث اليوم العجب : كانت الحضارة العربية الآن هى
الأساس المباشر لكل ثقافة الغربيين الحاضرة ، وكانت هى التى حلت لديهم محل
الثقافة اللاتينية ، وزادت عليها روحا أخرى ، هى روح الشرق ... لو أن هذا
حدث — وليته حدث — لكانت حضارة « أوروبا » اليوم فى صورة أروع مما هى عليه
الآن وأعمق ! ... كلنا يعلم أثر بعض الفلاسفة العرب ؛ أمثال : « ابن رشد »
و « ابن سينا » ، ممن نقلوا الفلسفة الإغريقية وفسروها ! ... لقد كان لهم الفضل على
« أوروبا » فى القرون الوسطى ... والأوروبيون يعترفون بذلك الفضل ، ويشيدون
به ... ويقولون عن أولئك الفلاسفة العرب : إنهم كانوا بمثابة الجسر الذى نقل
إليهم آراء « أفلاطون » و « أرسطو » ... ولكن الفلسفة ليست سوى فرع واحد من
فروع الثقافة ! ... فكيف لو أن العرب وأدباء العرب كانوا هم الجسر الكبير الكامل ،
الذى ينقل الثقافة الإغريقية بفنونها ، والرومانية بأصولها ! ... وقد أضافوا إليهما
مما فى جعبتهم ، من عبقرية الروح الشرقى ، وحيوية الذهن العربى ؟ ... هذا هو الذى
يدفعنى إلى تنبيه الشباب فى بلادنا ، إلى أن يلتفتوا اليوم إلى كل ثقافة ، وأن يعنوا
بكل حضارة — لعلمهم يتاح لهم فى مستقبل الأيام أن يخرجوا للعالم مدنية جديدة ،
تفوق كل مدنية موجودة ! ...

شمس الشرق

آن الأوان ، في هذا العصر للقضاء النهائي على فكرة الاستعمار ، والسيطرة بالقوة على الشعوب والأفكار — لا للسبب المعروف وحده ؛ من أن ذلك يتعارض مع مبادئ الحرية ، والعدالة ، وحقوق الإنسان ؛ — بل لأمر آخر أشد خطرا على الحضارة البشرية وأعمق أثرا

إن سيطرة الغرب على الشرق اليوم ، لا تكفي بالإخضاع المادي والاقتصادي
لأنها تشمل أيضا الإخضاع الروحي — الشعاع اليوم : « من يحتل أرضك يحتل فكرك ، ومن يسلب بلدك يسلب روحك ! »

« أمريكا ، لا تقف في « اليابان » عند حد الاحتلال العسكري ؛ إنها تريد أن تفرض عليها تمكيرا اجتماعيا ، وتلبس ذلك الروح الشرقي عقلية أمريكية
هي تزعم أنها تمدن « اليابان »

وبريطانيا في الشرق الأوسط والهند ، وفرنسا في شمال إفريقيا عين الخطة والطريقة وليس الباعث في كل الأحيان إصبع الاستعمار وحدها ، ولكن وجود غالب ومغلوب ، يؤدي حتما إلى تغلب روح على روح ، وفكرة على فكرة ؛ ليتلاشى المقهور في القاهر

ما النتيجة ، لو أدى الاستعمار الغربي إلى محور الشرق ؛ بروحه ، وتفكيره ؟ . . .
ماذا يحدث للعالم ، إذا فتحنا أعيننا ذات صباح فلم نجد « الشرق » ، ووجدنا الغرب وحده ؛ بشمسه ، ونوره ، وناره ؟

إن الذى سيحدث معروف — وإن طال الأمد...! إن شمس الغرب
 الفاترة الباردة ، الشاحبة العجوز ، لا بد أن تغرب يوما ، وأن يحل الظلام فى
 الأرض ، فمن أين تطلع مرة أخرى فتية قوية ؟ ... إذا لم يكن فى الأفق شرق ؟ ...
 أخطأ فكرة فى ذهن الغرب اعتقاده أن «الحضارة الغربية» هى كل شىء...
 إنها عقيدة طفل ، يرى شمس العصر المائلة فوق البحر ، وهاجة ساطعة ، فيحسب
 أنها فى السماء مسمرة ، وفى الفضاء مثبتة ! ...
 شمس الغرب غاربة لا محالة ! ... متى ؟ ...

يوم تنتهى «الطريقة العقلية» إلى نهايتها الطبيعية ! ... إن الغرب يستخدم الطريقة
 العقلية : كالطفل الذى يلهو بجبل «الديناميت» ... لقد أوقد طرفه ، وترك ناره
 تجرى فيه ، وهو فرح طروب مزهو غور ... لذلك الوهج والنور يجرى ويسرى ؛
 كأنه انتصار تلو انتصار ، لا يريد أن يقفه لحظة ؛ لينظر فى نهايته ، ويتأمل آخرته ؛
 إنه ثمل بالنور الجارى السارى ، ولن يفيق حقا ، ولن ينتبه إلا على صوت
 الانفجار وحلول الدمار ! ...

أيها الغرب ! ... العب بجبل تفكيرك ماشئت ، ولكن ابق على الشرق قليلا ،
 واترك له بعض أنفاسه ، ودع له بعض روحه ؛ فهو الذى سيقوم غدا ، زاحفا
 على ركبتيه الخائرتين ؛ من ثقل نيرك ، ماذا إليك يديه الضعيفتين ؛ من أثر
 أغلالك ، — لينتشلك من المحنة ، وينزعك من الفناء ! ...

الحضارة روح

عندما انهارت «اليابان»، أمام القنبلة الذرية، في الحرب الأخيرة سألت نفسي : هل انهارت «اليابان» حقاً؟... أو الذي انهار فيها هو الحديد؟... هل هزمت «اليابان» حقاً، أو أنه لم يهزم فيها غير العار به التي استعارتها من الغرب؟... أما الجوهر الذي ينبع من نفسها، فهو باق لا ينهار، ولا يهزم... وهو وحده المنبع الذي تصدر عنه كل القوى المتجددة، التي لها الغلبة آخر الأمر... القوى الميكانيكية التي ارتدت بها «اليابان»، على غرار أردية الغرب هي في الواقع التي كسرت وسحقت، وهي وحدها القابلة للكسر والسحق والتحطيم... قوة المادة مهما تكن عظيمة الخطر، فهي موقوتة الأثر... وهي سهلة المنال، سريعة الزوال... هي لك اليوم ولغيرك غدا، هي لمن يدفع فيه البثن الإبهظ : لأنها تشتري بالمال... لقد انتصرت «أمريكا»، لا لفضائل في جوهرها، ولا لمزايا في روحها، ولكن لذهب الممولين الذي استطاعت أن تشتري به العلم والعلماء، وتحصل به على مواد الفتك وخبرة الخبراء... وهي بالمال تقتني كل شيء، تقتني كل مظاهر الحضارة التي تبهر بها العالم، تقتني كل الآثواب البراقة...

ما من إنسان عريق الأصل، لم يجد في «أمريكا» سوقا لعراقته، ولا لصاحب تجاربه لم يبيع تجاربه هناك، ولا لصاحب اسم لامع في أدب، أو علم، أو فن، لم تنصب له الشراك الذهبية؛ ليلصق اسمه بالجنسية الأمريكية... بلاد لم تصنع الحضارة بما فيها، فاشتريتها بما لها الذي جمعته سريعاً بشتى الوسائل... «أمريكا»، بلد «السينما»...

وهي كلها دولة مقامة على طريقة «هوليوود» : واجهات من السكرتون ، وجدران
 تناطح السحاب من الأسمنت ، وأناس يتحركون ويتكلمون ويتصرفون ؛ طبقا لرواية
 موضوعه ، ألفهامؤلف أجنبي عريق !... أمة أوجدتها الظروف ، وأنشأها المال ،
 ومن الممكن أن تزيلها الظروف ، أو يتخلى عنها المال ؛ فتختفي من الوجود ، دون أن
 يخسر الوجود شيئا ، أو يحس لفقدائها أثرا ، أو ينال من بعدها تراثا ذاتيا ، أو ميراثا
 خاصا !... فالحضارة بخير بها وبدونها ؛ لأن العلم ؛ بأساتذته ، وتقاليده ، وماغنيه ،
 وتاريخه ، وتجاريه ، وكذلك الفن ، وكذلك الأدب ، وكذلك الفلسفة ، وكل شئون
 العقل والفكر ، وكذلك الدين ، وكل شئون القلب والروح ؛ - موجودة من قبل «أمريكا»
 ومن بعدها !... جذورها ممتدة في غير تلك البلاد ، ويمكن أن تورق ، وأن تثمر
 دون حاجة كبرى إلى إغراء أو ضياقة ...

كلا !... ليس المال كل شيء ، وإن استطعت به أن تشتري «مظهر» الحضارة ،
 فلن تستطيع أبدا أن تشتري «روح» الحضارة !...

روح الحضارة يبرز مع الشمس من قديم في أرض أمة !... يبرز مشاعر
 وإحساسات ، قبل أن يظهر وسائل وماديات ... إنه الإحساس الأول - الذي
 لا يشتري - بروح الله في أعاليه ، وفي الكائنات !... والشعور الأول - الذي لا يقتني -
 بروح الجمال في المخلوقات !... إنه ذلك الذي يجعل من الإنسان إنسانا !...

إنه ذلك الذي يشعر الإنسان بإنسانيته مباشرة - بدون وسيط أجنبي - شعورا ،
 ينبت معه - في أرضه ووطنه ، منذ القدم - بخصائص تلك الأرض ، وطابع

ذلك الوطن !... لا يمكن أن يفقد الإنسان روحه إذا فقد وطنه !...

وقد ينشأ ذلك الشعور مع عقيدة سماوية ، أو فلسفة أرضية ، أو متعة فنية !...
 ربما كانت زهرة من أزهار بلد من البلاد ، يتنضج معها - في نفس الحب لها - أريج

ذكي لحضارة بشرية حققة ...!

إن لم يقيم دليل على حضارة «اليابان» ، غير حب أهلها للأزهار ؛ لكفنا ذلك ...! أصغوا إلى هذا الحديث ؛ لشاعرهم «أكا كورا» :

«... عرفت الإنسانية شعر الحب ، وقما عرفت حب الأزهار ...! إن اليوم الذى قدم فيه أول رجل بطاقة الزهر الأولى إلى محبوبته ، هو اليوم الذى ارتفع فيه الإنسان فوق مستوى الحيوان ؛ — لأنه بارتفاعه عن حاجات الطبيعة المادية ، أصبح إنسانا .. وبإدراكه الفائدة الدقيقة المتسامية لما هو «غير مفيد» ؛ خلق فى سموات «الفن» !.. فى الأفراح والأحزان ، «الأزهار» هى لنا الصديق الأمين ؛ فنحن نطعم ، ونشرب ، ونغنى ، ونرقص ، وهى معنا!... ونحن نحب ، ونحن نتزوج ، وهى معنا!... ونحن نمرض فى فرشنا وهى معنا ، بل نحن لانجروا أن نموت إلا وهى معنا!... وحتى عندما نرقد فى التراب ، فليس سواها يأتى أخيرا ؛ لتبكي بقطرات ندامها فوق قبورنا ...! كيف نستطيع العيش بغيرها ؟ ... أهنأك أقسى من أن نتصور العالم «أرمل» يحيا بدونها ؟ ...! لكن مهما يكن ذلك مؤلما فإن من العبث أن نخفى عن أنفسنا الواقع : نحن — برغم دنونا من الأزهار — لم نرتفع كثيرافوق مستوى الحيوان ...! ما من «حقيقة» راسخة فى كيانتنا دائما غير الجوع ...! ما من شئ مقدس عندنا غير شهواتنا ...! إلهنا عظيم ولكن نبيه فى نظرنا هو الذهب ؛ من أجله ، وفى سبيل قرابينه ، ندمر الطبيعة برمتها ...! نحن نفخر بأننا أخضعنا «المادة» ، ولكننا ننسى أن المادة هى التى أخضعتنا وجعلتنا لها عبيدا ...! بالانغصاة ما تركب باسم الثقافة والإحساس والفكر ...! حدثني أيتها الأزهار اللطيفة ...! يادموع النجوم ...! أيتها الناهضة فى الحديقة ، تترجع رموسك تحت رشفات النحل ، وقبلات الشمس ، ولمسات الندى ...! أتعرفين ما ينتظر كغدا من مصير رهيب ...! »

الحضارة في دم الإنسان

روت الأخبار أخيراً أن جماعة — لا يزيد عددهم على العشرين من رجال ونساء — تمثل لهم شبح الحرب القادمة ، وأدركوا مبلغ الدمار والعذاب اللذين سيجيقان بالعالم المتحضر ، يوم تقوم تلك المجزرة البشرية التالية ، وما سيكون فيها ؛ من قنابل ذرية، وصاروخية ، ولاسلكية ! .. فأخذهم الروح، أو القلق ، أو السخط ، أو الضجر ؛ فأثروا أن يتركوا هذا المجتمع الإنساني الذي يسمونه متحضراً، وأن ينطلقوا إلى جزيرة صغيرة نائية في مجاهل المحيط الهادئ ، يعيشون فيها بقية حياتهم عيشة بسيطة فطرية ، لا ينقلون إليها شيئاً من المبادئ الاجتماعية ، التي قام عليها العالم المتقدم ؛ فلا ملكية تثير النزاع ، ولا قيود تحد من الحرية ! ... فالنساء مشاع ، والرجال مشاع ، والطعام مشاع ! ... فلا زوجة ، ولا أسرة ، ولا دين ، ولا عقائد ! ... وأغلب الظن أنهم لن ينقلوا أيضاً ، إلى تلك الجزيرة كتباً ، ولا تحفاً ، ولا مظهرًا واحداً من مظاهر الفكر ، أو الفن ؛ — حتى لا يتسرب إلى وطنهم الجديد بذرة من العالم القديم ، قد تنبت لهم نوعاً من التفكير ، يردهم إلى المشكلات الأولى ، ويفسد عليهم هذه الحياة التي أرادوها ، صافية كحياة الأبطال من الأبطال ! ...

* * *

أمثل هذا الحلم يمكن تحقيقه ؟ ... في رأي أن هذا يتوقف على مدة الحلم ومداه ؛ فالحلم لا يمكن أن يحتفظ بصفاته الخيالية إلا وقتاً قصيراً ، فإذا طال أمده انقلب إلى واقع ، واقترب به من الظروف والعناصر ما يخرج عنه صفاته ، ويحوّله عن اتجاهاته ! ...

فهذا النفر، من الرجال والنساء يمكن أن يحققوا حلمهم هذا، لو اقتصر الأمر عليهم، فعاشوا ما عاشوا؛ لا ينسلون ولا يزيدون، يمضون أيامهم على هذا الوضع الذى اختاروه، واصطلحو عليه، تمر بهم الأيام وهم فى هذه الجزيرة؛ كأنهم فى رحلة خلوية طويلة الأمد، إلى أن يموتوا، وينقرضوا، ويدفنوا تحت أوراق الشجر الذابلة، وتدفن معهم قصتهم الطريفة...

أما الوجه الآخر من الأمر، فهو أن يتركوا نسلا ويخلفوا ذرية، وهنا تبدأ قصة الإنسانية تكتب من جديد؛ فهذه الذرية سيكون فيها القوى والضعيف، والجميل والقبيح... بل سيكون فيها الأقربى والأجمل؛ ممثلين فى صورة قتي مفقول العضلات، وفنأة رائعة القسمات... عندئذ يظهر النزاع على الجميلة بين الرجال، فلا يلبث أقوام أن يظهر بها ويستأثر، وبظهور الاستئثار تظهر الملكية، وما إن يبدأ الرجل يملك المرأة حتى تخلق «الأسرة»، وما أن يكون كل رجل أسرته، ويكثر صغاره حتى يشعر بتبعته، فيخص ذويه وحدهم بثمار جهده وعمله... وتعددا الأسر وتعدد المصالح، يحتاج الأمر إلى نظام وقانون. ثم إلى من يفرض هذا النظام ويطبق هذا القانون. وعندئذ يظهر رئيس القبيلة، أو زعيم الجزيرة، أو كبير هذا المجتمع الصغير، الذى بدأت نواته فى التكوين، وبظهور النظام والقانون، اللذين يحددان العلاقات بين أهل الجزيرة، يظهر ما يسمى بعدئذ بالعرف والتقاليد... ثم تأخذ النوازل الضرورية، والنسكبات التى لا منبر منها، تحل بأهل الجزيرة؛ فهذه رياح هوج تعصف بأكوخهم، وصواعق من السماء تحرق أشجارهم... وهذا رجل سيء الطباع، مكروه بين العشيرة، يغرق طفله... وذلك رجل حسن الخلق محبوب، ينال من صيد البحر خيرا غير منتظر... هنالك إذن قوة خفية، تنظر إليهم من خلال السحب، أو من أعماق البحر، أو من أغوار الغاب، تثير المحسن، وتعاقب المسيء...

بهذا الخاطر ، الذى يبرق فى ضمير أحدهم يولد الدين ، وبميلاد الدين أو العقيدة الإلهية ، يظهر من أهل الجزيرة من ينقطع إلى التفكير فيه ، ومزاولة شئونه . إنه الكاهن يهرع إليه المنكوب من الناس ، يسأله رد القضاء الخفى ، أو الرحمة فيه : فيخفف عنه الكاهن ويعزيه . . . ويتفنن السكينة فى إيجاد الوسائل التى يؤثرون بها فى نفوس الناس ، حتى يكون لهم أثر محسوس فى التعزية ، والتلطيف ، والتخفيف ! . فيبتدعون الرقى ، والتمائم ، والتعاويد ؛ فى صورة كلام منغم موسيقى موزون ، يمس النفس ، ويسر الأذن ؛ وبهذا يولد الشعر ! . . . ثم فى صورة تمائيل وتهاويل ، تحدث الروعة فى القلب والبهرة للعين ؛ وبهذا يولد الفن ! . . .

وجدت إذن نواة حضارة : من مجتمع ، وقوانين ، وعرف ، وتقاليده ، ودين ، وفن ! . . . فلنترك بعد ذلك الزمن الأكبر ، يتولى على مدى الأجيال والقرون ، تنمية هذه النواة ؛ إلى أن تصير شجرة باسقة لحضارة هائلة ، تنتج بذورها القنابل الذرية ، والصاروخية ، واللاسلكية ! . . . ويهرب منها نفر ، يتبرأ منها قائلًا : إلى حياة الفطرة . . . إلى جزيرة نائية ، لا تنبت فيها مدينة أبدًا ! . . .

* * *

أيها الإنسان . . . أين تهرب ؟ إن ما تفر منه تحمله فى دمك ! . . . حيثما ذهبت وتوالدت خرجت من صلبك حضارة مضيئة مدمرة كالشهب . . . هكذا خلقت ! . . . خلقتك الله حقًا من تراب الأرض الطيبة . . . وإمكن مسك بعدئذ إبليس ، فصرت شهابًا ، لا يهدأ حتى يبرق ، ويحرق نفسه ، وهو يهوى فى أجواز الزمان ! . . .

الإنسان والغريزة

قال لى صاحبي، ونحن على مائدة الطعام :
إني أنتظر موسم « السمان » بصبر نافذ في كل عام !..
ومزق كتف « السمانة » بيده ، واتهم لحمها بلذة ونهم !.. فقلت له وأنا أصنع
مثل ما يصنع :

« السمان » أيضا يفرح بهذا الموسم !... لأنه في نظره موسم السياحة إلى
المشاتي !..
فقال :

المشاتي ؟... ياله من أحق !... لو علم أن هذه المشاتي ليست سوى بطوننا ؟
فقلت :

لو علم ؟... ومن قال لك إنه لا يعلم ؟..
فقال بنبرة دهشة :

ماذا أسمع ؟... أترأه يعلم !..
فقلت :

ولم لا ؟... من المحتمل جدا أنه يعلم ...
فقال :

يعلم أنه يأتي إلينا كل شتاء للسياحة ، فنتلقاه في بطوننا !..
فقلت بهدوء :

شأن كل سائح!... أيجمل أولئك الذين يأتون إلينا كل شتاء للسياحة ،
أنا سنتلقى ما معهم بجيوبنا!...

فقال :

طبعاً ، كل سائح يأتي وهو يعلم أنه سينفق ماله ، ولكن « السمان » ،
لا يمكن أن يعلم أنه يأتي لينفق حياته!...

فقلت :

ثق أنه يعلم ، ومع ذلك يأتي!... إن العلم بوجود الخطر لا يمنع من
المغامرة والسفر!...

فقال :

إنه إذن طائر قليل العقل!... لقد كان ينبغي له أن يعلم من قديم أن رحلته
إلى المشاتي هي موسم فناء له ؛ فما لاشك فيه أن بعضاً من « السمان » ، يستطيع
في كل عام ، أن يفلت من الشباك ، ويعود سالماً من حيث جاء!... أمن المعقول أن
هذا البعض يظل على غفلته وحمقه وعماه ، لا يتعظ بما أوشك أن يقع فيه من
هلاك؟... ولا بما رآه من هلاك أقرانه؟... فيمضي في ركوب هذا الخطر في مطلع
كل شتاء ، ناسياً ما سبق أن نزل بفصيلته من مخن!؟...

فقلت باسمي :

أتريد من هذا الطائر أن يكون أكثر عقلاً من الإنسان!؟ إن للإنسان
شباكاً منصوبة ، في جوفها الهلاك لفصيلته البشرية : تلك هي الحروب ؛ يفلت
منها في كل مرة ، وقد فئت من نوعه الملايين ، وكان ينبغي له أن يتعظ ويقول :
« لن أعود إليها أدياً... لن ألقى بفصيلتي الآدمية في هذا الهلاك مرة أخرى... كفى
هانزل بها من مخن!... » ولكن الذي يحدث غير ذلك : أنه يمضي في الإلقاء بنفسه

ونوعه في هذا الفناء، المرة بعد المرة، ناسيا ما سبق أن وقع له...! وهو في كل مرة، يجد من ألوان الدمار، وقوته، ووسائله؛ — أضعاف ما كان يجد...! إن شباك «السمان» على الأقل هي دائما الشباك...! لم تتغير منذ قرون...! ولكن شباك الإنسان من الحروب، تتغير أساليب هلاكها، ويتسع نطاق ضررها، بسرعة تذهل العقل، وتحير اللب، ومع ذلك، لا حديث للإنسان إلا عن موعد رحلته القادمة، إلى الحرب الضروس التالية...!

فقال صاحبي، بلمحة الاقتناع:

حقا... حقاً... إن الانسان لأقل عقلا من «السمان»،...! ولكن...
فقلت له:

ولكن ماذا؟...

فقال:

ولكن... إلى متى؟... متى يكون في رأس الإنسان عقل؟... متى
يكف عن الإلقاء بنفسه في...؟

ومديده إلى «سمانة» أخرى محمرة في الطبق، يريد أكلها...
فقلت له:

إذا اختفى «السمان» يوما من هذه الأطباق، ولم تعثر عليه في الأسواق،
وقيل لك إن موسمها جاء وهو لم يجيء، وإن الشراك نصبت له فتركها منصوبة
تنتظر بغير أمل؛ — فاعلم أن شيئا قد حدث في مجرى الكون، وأن الطبايع قد
تغيرت، وأن الإنسان هو الآخر قد عقل...!

الحضارة تنزبن بالفن

وقفت في صف طويل ، أمام شباك التذاكر ، في قصر شايفو : فهناك حفلة موسيقية تؤدي فيها بعض آثار « بيتهوفن » ، ...! وأنا ما أزال على عادتي القديمة ، لا يخطر ببالى أبدا أن أحجز مكانى مقدما ...! لا بد لي من أن أقف بالأبواب ، وأحشربين الجوع ، وأنال مكانى بالجهد والعرق ...! لكأنى بها تف داخل يهمس لي دائما :
الثواب في الفن أيضا على قدر المشقة !

ولكن أمامى في الصف مئات ، وخلقى أيضا مئات ! ... وكل شخص يحرص على الشبر من الأرض الذى عليه يقف ، ويتطلع إلى الشبر من الأرض الذى إليه يزحف ! ... وحركة الصف ضعيفة ، ولطفة الناس عنيفة ، وإذا بى أسمع الرجل الذى خلقى يخاطبني ، بلغة فرنسية ، تشوبها لكنة أمريكية :
من فضلك ! احجز لي مكانى في الصف ، حتى أتكلم في التليفون ، وأعود ...!
فالتفت إليه متعجبا :

احجز لك مكانك . في الصف ؟ ... أنا ؟ ...! بأي سلطة ؟ ... إذا خرجت وتركت الصف ، فكيف أقنع السيل الذى خلفك ، بأن موضع قدميك محجوز لك ؟ ...! شكر ايا سيدى ! ...! فلا ببق إذن ! ...! نحن في هذا القصر عينه الذى اجتمعت فيه هيئة الأمم ... وكم ضاعت فيه حقوق لبعض الشعوب ! ...! على الرغم من نضالها ، وصياحها ، ووثاقها ، وبراهينها ! ...! أفستبعد أن يذهب فيه حقك ؛ -

هذا الذى تريد أن تعهد به إلى عناية غيرك ... ١٩ ...

وتركته والتفت إلى شأنى ، وحجزت مكانى ، وانحدرت إلى قاعة الموسيقى
من ذلك المبنى الكبير .

* * *

كان لا بد دون بلوغ هذه القاعة من هبوط إلى عمق عظيم فى باطن الأرض ،
لم يحشمننا تعباً ؛ فقد كان السلم الموصل إليها كهريبا « ميكانيكيا » ، يكفى أن تقف
على درجته الأولى ، حتى ترى الدرجة ذاتها قد تحركت بك ؛ كأنها بساط
الريح — فإذا أنت فى القاع السحيق فى طرفة عين ! ... عندئذ بدالنا جلال فى فن
العمارة يشهد بالمقدرة والبراعة ! ... ما هذه الأروقة العظيمة ، التى لا نهاية لها ، تقوم
فيها الأعمدة ؛ كأنها الأشجار الباسقة ، وتخللها تماثيل آلهة الحب ، والفن ، والجمال ! ...
وتنتشر بينها أضواء لا ترى مشرقها ، ولا مغربها ، وتزين جدرانها تصاوير ، ولوحات ؛
غاية فى الذوق والإبداع ، وتعترضها درجات سلم طويلة عريضة ؛ كأنها الشلالات
صاعدة من هنا ، هابطة من هناك ! ... فإذا دخلت بعدئذ قاعة الموسيقى نفسها ،
وجدت مكانا رحبا ، يتسع لأكثر من ألف مقعد مكسو بمخمل ناعم ، فى لون
الأرجوان ... ووجدت المسرح فى أحضان أعمدة من البرونز المصبوب ، أو
هكذا يهبأ لك ! ... كل ذلك فى غمامة وأى غمامة ، وبساطة وأى بساطة ! ... لىكنى
أمام روعة هذا المكان ، فى رحاب هيكل من هياكل الفن المصرى القديم ! ... مامن
شك عندى فى أن هؤلاء القوم قد تلقوا هذا الدرس الفنى الذى أراه اليوم ، عن
آثارنا نحن القديمة ! ... ولىكنى بهم ، وقد هبطوا بتحفتهم تلك إلى الأعماق ،
ودفنها تحت الثرى حية متألقة ؛ — إنما يطمعون فى أن يطاولوا الزمان كطاولاته ...

فإذا انطوى العالم، وكشف عن هذا المكان كاشف، في مستقبل الأيام؛ — استطاع
أن يقول فيهم بعض ما قيل فينا! ...

على أنى — وقد هدا عجبى — طفقت أسائل نفسى: أهم الفرنسيون حقا الذين
صنعوا ذلك؟ ... ومن أين لهم المال، وقد خرجوا من المحنة منذ قليل؟ ... وإذا
كان في يدهم بعض المال، أفضيعونه في تشييد هذه «القاعات»، التي نسميها نحن في
«مصر» اليوم «كاليات»؟! ...

واتخذت مقعدى، والتفت إلى جوارى، فإذا الشخص الذى كان خلقى
هو جارى! ... وابتسم لى وحيانى، وقدم نفسه إلى: — فإذا هو محام أمريكى من
«بليتمور»، جعل يتأمل المكان بإعجاب ويقول لى:
حقا ... إن «الثقافة» بالمعنى الذى يفهمه الأوروبيون هنا، شىء لا تعرفه
بعد «أمريكا»! ...

فقلت له معزيا:

ولا «مصر»! ... أقصد «مصر» اليوم! ...

فقال لى دهشا:

«مصر»؟؟ ... ولكن «مصر» عريقة فى الثقافة! ... إنى لن أنسى - يوم احتفلنا
فى «أمريكا» - بعيد جامعتنا «هارفارد» وجاءت الوفود من ممثلى جامعات العالم، تحضر
الاحتفال! ... لقد كان ممثل جامعتكم «الأزهر»، يمشى فى المقدمة مختالا غفورا،
مباهيا بأنه يمثل أقدم جامعات الدنيا ... وقد كنا — نحن الأمريكان — ننظر إليه
متضائلين منكمشين، فأين جامعاتنا «هارفارد»، الصبية الحديثة السن من جامعة

«الأزهر» الجلييلة العريقة في القدم!...

قال المحامي الأمريكى ذلك، فشعرت في الحال بشيء من الزهو في أعماق نفسى... ولكنى لم ألبث أن تحسرت وقلت في ضميرى: ما أعظم التراث الذى نملكه، وما أئمن الكنوز التى ننام عليها... نعم!... ننام عليها ونخفيها تحت تراب إهمالنا وجهلنا وحقنا... بينما تهب أمة مثل «فرنسا» المتهدمة؛ فتشيد من جديد - بما لها القليل - تحفاً، تعرضها للعالم، فتربح مجداً ومالاً... إنها تعرف بذكائها وفطنتها أن كل ما ينفق في هذا السبيل المجدى، يعود بالكسب المادى قبل الأدى!... أتدرون كم من السياحين الأمريكان يزورون «باريس» في هذا الصيف؟!... يقدرّون تعدادهم بمليون ونصف مليون!... إنهم ينفقون في فرنسا ملايين الدولارات!... لماذا؟!... لأن فرنسا عرفت كيف تنفق المال أولاً؛ ليدخل جيوبها المال بعدئذ!... لقد فهمت أنه يجب أن تعرض على العالم شيئاً؛ ليأتى العالم إليها بذهبه... لقد شيدت، وخلقت، وعرضت، وجعلت من باريس «وجهة» بلورية للدنيا؛ فجاءت الدنيا إلى باريس!...

* * *

أما في مصر... فوا أسفاه... القاهرة «باريس» الشرق، وعاصمة إفريقية، وملتقى الحضارات!... كل هذه الألقاب المجيدة، ولا تجد في شوارعها مبنى واحداً نفخاً ضخماً يقوم بأعمدته: كأنه هيكل من هياكل الحضارة أو الفن!... اللهم إلامبنى (المحكمة العليا) وكم فيه من عيوب!...

القاهرة القائمة في أرض الآثار الفنية، ترى فيها التماثيل البديعة، ملقاة في حقول الصعيد، أودفينة في بطون الرمال — على حين أن ميادينها فارغة خاوية، إلا من المراحض العامة!...

كل ميدان — وإن صغر — في باريس، ينهض فيه تمثال، للزينة، أو لتخليد الذكر!...

وما أكثر الميادين هناك!... في كل خطوة ميدان فسيح ، وحديقة غناء!... لكأن الأرض في باريس بثمر التراب ، في نظر مجلسها البلدى!... كل ما يهيمه هو أن يجمل منظر العاصمة ، وأن يتمتع سكانها وضيوفها ، بالهواء الطلق والمنظر الحسن!...

* * *

ولكن الأرض في القاهرة بثمر التبر — في نظر أولى الأمر فينا — يستكثرون على القاهرة حسن المنظر، ونقاء الهواء ؛ فيبيعون من أرض الميادين العامة للأفراد والشركات ؛ كي تزدهم بالحوانيت والعمارات!...

* * *

نحن نشوه عاصمتنا ، وهم يحملون عاصمتهم ... نحن نهدم مجدنا القديم ، وهم يصنعون لأنفسهم مجداً جديداً .

اللهم احمنا من أنفسنا ؛ فإن أعدى عدو للإنسان هو نفسه!...

الباب السابع

الأدب والمسرح

المسرح هو أقصر طرق الأدب للوصول
إلى الجمهور ، ولكنه أكثر الطرق امتلاء
بالعوائق والصخور . . .

فن المسرحية

للمسرحية عندى اعتبار خاص ؛ ذلك لأن الحوار - بما فيه من إيجاز وتركيز - هو القلب الأدبى القريب إلى سلبقى المحبة للنظام ؛ فالفن عندى نظام ، والنظام عندى هو الاقتصاد ، أى البيان بلا زيادة ولا نقصان ! ... ربما كانت هذه الطبيعة عندى ميراثاً قديماً ، من أثر رواسب شخصيتنا العتيقة ؛ فالعرب كانوا يرون البلاغة فى الإيجاز ، ومصر القديمة كانت ترى البراعة الفنية فى البناء والتركيز : فلهيّا كل الكبرى آية من آيات التصميم الهندسى الدقيق ، وانماثيل العظيمة آية من آيات التفكير المركز ببساطة فى الحجر المجرد ! ... من كل ذلك عنيت دائماً بقراءة أعلام الأدب المسرحى ، لا قراءة متعة ولذة واستطلاع فقط ، بل قراءة درس وتأمل وفحص ؛ فكنت أقضى الساعات أمام نص من النصوص ، أقلب فيه منقباً عن أسرار تأليفه ومفاتيح تركيبه ، مستخلصاً - بنفسى ولنفسى - ملاحظاتى فى طرائق التأليف المسرحى ؛ - ذلك الفن العسير ، الذى أحببته أيضاً لأنه عسير ؛ فما أزهّد فى شيء - زهدى فى الفن السهل ، الذى لا يحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس ! ... وما أبجل شيئاً - تبجلى للفن الذى يصمد ؛ كالصخرة فى طريق الفنان ، فما يزال به يعالجه : بالصبر الطويل ، والكد المفضى ؛ - حتى يفجر منه الماء السلسيل ! ...

ذلك رأى فى المسرحية التى هى - فيما أعتقد - كالقصيدة الشعرية ، نوع من الأدب صعب دقيق ؛ لأن المتعرض له يجد نفسه أمام طائفة من القيود ، قيود صارمة ، بل عوائق قاسية ، تجعل نصيبه من حرية العمل قليلاً ؛ فهو ليس حرّ فى اختيار الموضوع ، ليس حرّ فى طريقة

المعالجة ، ليس حراً في الحيز الذي يصب فيه فنه ، ولا في الوقت الذي يعرض فيه عمله ! ... أما الموضوع ، فليس كل موضوع يصلح للتأليف المسرحي ؛ كما أنه ليس كل موضوع يصلح للنظم الشعري ! ... فنك أن هنالك موضوعات ، لا تستطيع أجنحة الشعر حملها ، دون أن يبدو عليها التكلف ، والتثاقل ، والترنخ - تحت وقر طبيعتها الأرضية ؛ فمثلاً : ليس للشعر أن يتكلم في أسعار القطن ، أو أن يبحث في غطاء العملة - كما يسهل على النثر أن يفعل ؛ - كذلك التأليف المسرحي ، لا يمكن أن يعالج موضوعاً ، يتعذر إظهاره على مسرح محدود ، بواسطة ممثلين من الآدميين ؛ فمثلاً ليس للمسرحية أن تعالج موضوعاً وصفيّاً ، تلعب فيه الجمادات ، والنباتات ، والعجماوات - دوراً أهم من دور الإنسان ؛ فهذا مما يسهل على القصة المروية الوصفية أن تقوم به ، ومما يتعذر على القصة التمثيلية أن تظهره لا بد - إذن في المسرحية - من اختيار الموضوع الممكن إبرازه على المسرح الآدمي ! ... على أن الصعوبة الكبرى ليست هنا ، إنما هي في العثور الموفق على الموضوع الجيد ؛ فقد يتوفر للمؤلف المسرحي كل عناصر النجاح من موهبة ، ومقدرة ، وحسن استعداد ، وسعة حيلة ؛ - ولا يسقطه غير الموضوع الرديء ، على حين أن الموضوع الجيد ، قد يرتفع بمواهبه إلى المستوى الذي يخرج أحياناً الأثر الخالد ؛ لذلك اعتبر بعض النقاد أن التوفيق إلى الموضوع الجيد ، هو - للشاعر والمؤلف المسرحي - اكتساب لنصف الموقعة ! ... في حين أن كل موضوع ، تمكن القصص الراوية . من حوادثه ، وجمع تفاصيله ؛ - يستطيع أن يجمع خير النجاح بمجرد وصفه وحكايته ، دون اعتماد إلا على جودة نثره ، وصدق تعبيره ، وبراعة سرده ! ...

فالموضوع الجيد في المسرحية ضرورة من ضروراتها ؛ شأنه في ذلك شأن النغم الجيد في القطعة السمفونية ! ... ففي الموسيقى ، تعتبر النغمة الجيدة ، هي تلك التي تحمل في جوفها توليدات عدة لألحان موفقة ، فما يكاد يعثر عليها الموسيقي ، حتى يجدها كالحبلى بالتخريجات ،

التي يستطيع أن يملأ بها حركة سمفونية بأكملها، في حين أن النغمة الرديئة تولد صما جوفاء، عاقر أعقيا، يحاول الموسيقى عبثاً أن يستخلص منها شيئاً... كذلك الموضوع المسرحي الجيد، هو ذلك الموضوع الغني، الذي ما يكاد يلبسه المؤلف حتى يفيض بين يديه بالمواقف المتجددة، والأفكار الطريفة، والشخصيات المتنوعة: حتى ليحس معه أنه ينمو بالمعالجة، ويكبر ويزدهر: كالشجرة المباركة، التي تهياً للإثمار الكثير!... في حين أن الموضوع الرديء، ما يكاد يفتح بابه حتى يغلق، وإذا حاول المؤلف إرغامه، وحمله على ما لا يستطيع بطبعه، ظهر العنت فيه والتصنع والافتعال: كالقصيدة الشعرية، التي تنظم في موضوع رديء سواء بسواء، فإن القوافي تبدو فيها متكلفة: كأنها منحوتة من صخر، والمعاني مكررة جوفاء: كالطبل!...

فإذا اختار المؤلف المسرحي موضوعه الصالح، فإن قيداً آخر سرعان ما يظهر له، ذلك هو القيد المفروض على حرية المعالجة. فهو لا يستطيع أن يعالج موضوعه بالحرية التي يعالج بها القصص العادية قصته المرسل... فليس له أن يجري حوادثه في مختلف القوالب التي تتيحها القصة المرسله لمؤلفها، مثل قالب الاعترافات أو المذكرات أو اليوميات أو الرحلات أو الرسائل، أو قالب الرواية على لسان صديق أو شاهد عيان، أو قالب الحكاية تسرد كما يريد المؤلف أن يسردها... لا... لا شيء من هذا يباح لمؤلف المسرحية إنه هو مقيد بطريقة واحدة وقالب واحد لا يتغير ولا ينبغي أن يتغير... فهو في هذا أيضاً شبيه بزميله الشاعر في إنشاء القصيدة، والتزامه فيها بالوزن والقافية... فهو لا يمكن أن يخرج عن قالبه التمثيلي الذي يقضي بأن تجري الحوادث دائماً من أفواه أشخاص يتحاورون، وإذا تحاوروا فلا ينبغي أن يظهر المؤلف بينهم أو يتدخل فيما يقولون. ليصف ما غمض من أحوالهم وتصرفاتهم، في حين أن هذا كله ممكن مباح للقصصي الراوية الذي لا حرج عنده، كلما غمض موقف، من أن يتدخل بنفسه

واصفاً محللاً مفسراً ما يجري في رؤوس أشخاصه من أفكار ، وما يحدث في نفوسهم من انفعالات ...! هنا ، المؤلف المسرحي مغلول اليدين ، مطلوب منه أن يخلق أشخاصاً ، دون أن تقع عليهم نقطة من مداد قلبه ، تفصح وجوده ، أو تكشف أن خلف مخلوقاته مؤلفاً ... حديثهم - وحده فيما بينهم - هو الذي يجب أن يخلقهم ...! وهذا الحديث - بألوانه المختلفة - هو الذي يميز طباع كل منهم عن الآخر ...!

لهذا يتعين - على المؤلف المسرحي - أن يتخير من الأشخاص من تعقدت حياتهم إلى الحد الذي يستطيعون معه أن تكون قلوبهم موضعاً لانفعالات مختلفة ، ونفوسهم مظهرة لطباع متباينة ، وعقولهم قادرة على التعبير والإفصاح ...! ولقد كان مؤلفو المسرح في القديم يتخيرون أشخاصهم من بين الملوك والأمراء وعلية القوم ، يوم كانت الثقافة وما يتبعها - من تعقد الحياة ، والمشاعر ، والفكر - محصورة فيهم ، فلما انتشر التعليم والتثقيف في العصور الحديثة ، وشمل أهل الطبقات المتوسطة في الحضر ، وتعقدت - تبعاً لذلك - وتنوعت حياتهم وعواطفهم وعقولهم :- اتجه المؤلف المسرحي إلى هذه الطبقة الوسطى ، ينتقى من بينها أشخاصه ، وهو لهذا السبب قلما يترك الحضر ، ويتجه إلى الريف ؛ فإن عدد المسرحيات ، التي اتخذت من الريف موضوعاً ، ضئيل جداً في تاريخ الآداب المسرحية قديماً وحديثاً ...! وهذا راجع ، بالضرورة ، إلى أن أهل الريف ؛ بحياتهم الراتبة الهادئة ، التي تجري على نمط واحد ، وبخلقهم الساذج البسيط :- قلما يمنحون كاتب المسرحية ما يحتاج إليه من الحوادث التي تكشف عن حقائق الطباع وغرائب الأخلاق ، وما يلزمه من مدارك ، تحسن الإفصاح والتعبير عن خفايا النفوس - فضلاً عن عنصر الطبيعة في الريف ، وصلته بالناس ، وحاجته إلى شاعر يتغنى بجماله ، أو ناثر يصف ألوانه :- أكثر مما يحتاج إلى المسرحي الذي لا يبني عمله إلا على ألوان النفوس ، والطباع ، والأخلاق ، والمدارك ...!

فإذا تم لمؤلف المسرحية اختيار الموضوع ، وتم له حذق طريقة

المعالجة؛ — فإن صعوبة أخيرة تنهض له : وهى أن حرية التنقل بحوادثه وأشخاصه ممنوعة عليه ، فليس له أن ينطلق بقلبه يهيم فى كل واد كالقصصى الرواية ...! .

يجلس أشخاصه فى بيت ، ثم ينقلهم بعد صفحة إلى قمة جبل ، أو جوف طائفة ، أو ظهر سفينة ...! . إن المسرحى مقيد بمناسبات قليلة ، يجب أن تجرى فى إطارها المغلق كل القصة التى يعرضها ...! . هذا الحيز الضيق ، لا بد أن تتحرك فيه أعظم المآسى البشرية والمهازل الإنسانية ، وأن تحدث من الأثر فى النفوس ماتحدثه — أوروباً أكثر مما تحدثه — الرواية المروية ، التى يتحرك أبطالها فى كل صفحة أوسطرين مشارق الأرض ومغاربها ...! . ولقد جاءت السينما أخيراً ، فأغرت الناس بهذه القدرة على عرض رواية ، يتحرك أشخاصها فى السماء والأرض والبحر ، بسرعة تفوق سرعة الخيال ، وتظهر المناظر الطبيعية على أجمل ما تكون ، بألوانها الأصلية ، وتتفنن فى تصوير الظواهر والكوارث : كالعواصف ، والأمطار ، والزلازل ، والبراكين ، وصدام القاطرات ، واحتراق الطائرات — على أدق ما نكون من الحقيقة والواقع ، مما كاد يؤثر فى حياة المسرح والمسرحية ، بل مما أدى إلى أن يتأثر بذلك بعض رجال المسرح ، فأخذوا ينشئون المسارح الدائرية أو الصاعدة الهابطة بالآلات الكهربائية ، التى تمكنهم من تمثيل مسرحية فى أكبر عدد من المناظر ...! . ولكن هذا التأثير الطارىء لم يلبث أن ولى ، وثبت للمسرح والمسرحية مالهما من تقاليد عريقة ، وآمن الجميع أن المسرح فن له صفته الخاصة ، وله طبيعته المختلفة عن طبيعة السينما ، وأنه ليس له أن يخرج عن صفته وطبيعته ليقلد ويتأثر ؛ فإن مجد المسرح هو فى حيزه الضيق ، ومناظره المحدودة ، وإن عظمة المسرحية هى فى القوة الخفية السحرية ، التى ترغم النظارة على أن ينفذوا إلى أعماق الأسرار البشرية ، ويحيطوا بأسمى المعانى وأجمل المشاعر ، ويستمتعوا بأبهج الطرائف ، وأظرف المباحج ، من خلال كلمات تلقى — لا أكثر

ولا أقل — دون معين : من حركة خارجية سريعة تعلق النفس ، أو ظهر من صور متتابعة متغيرة تخطف البصر ؛ — هذا التقيد بالحيز الضيق في المكان ، يكمله غل آخر هو التقيد بالحيز المحدود في الزمان ! ... فليس للمؤلف المسرحي أن يكتب — ويكتب كما شاء له هواه — مثلما يستطيع القصصى الراوية ، ذلك الحر الطليق الذى يملأ الصفحات كما يريد وعلى قارئه أن يتبعه ! ... لا ، إن المؤلف المسرحي مقيد بوقت مشاهدته وهو له التابع ، فهو مطالب أن يكتب مسرحيته ، في حدود الزمن المصطلح عليه في دور التمثيل ، فكل ما يقع في المسرحية من أحداث ، يجب أن يجرى خلال عدد معين بالذات من الصفحات ، يستغرق في التمثيل قدر معين بالذات من الوقت ... شأن مؤلف المسرحية هنا شأن الموسيقى أيضاً ؛ فهو مقيد — هو الآخر — بوقت السامع ، لا يستطيع أن يمضى في لحنه — مأخوذاً بالتحمس ، أو الوحي — فيطيل في تأليفه إلى الحد الذى يجاوز مجلس السماع المصطلح عليه في دور الموسيقى ؛ فالوحي عند الموسيقى ومؤلف المسرحية ، يجب أن ينظر في الساعة من حين إلى حين ؛ ليعرف الحدود التى يتحتم عندها أن يقف ! ...

تلك هى المعوقات والالتزامات ، التى تفرض على كاتب المسرحية ، قبل أن يحمل القلم لبدأ فى العمل ! ... أغلال أربعة توضع في يديه وقدميه ؛ لتحول بينه وبين الانطلاق ؛ ليصول ويجول بقلمه حراً ؛ كما يباح للآخرين من أهل التأليف ! ...

الحوار

إذا ذكرت المسرحية ذكرت معها كلمة الحوار ... ذلك أن الحوار هو أداة المسرحية ... فهو الذي يعرض الحوادث ، ويخلق الأشخاص ، ويقيم المسرحية من مبدئها إلى ختامها ! ... والحوار في أغلب ظني كالشعر ، ملكة تولد أكثر مما هو شيء مكتسب ، وإن كان طول الممارسة والمرانة ، له بالطبع أثر كبير في الوصول به إلى الجودة والإتقان ! ...

والرأي في أن الحوار ملكة ، راجع إلى صفته الضرورية له ، وهي : التركيز والإيجاز ، والإشارة التي تفصح عن الطبائع ، واللمحة التي توضح المواقف ! ... هذه الصفة لا تناسب كل الناس ، ولا تلاصق كل الأدباء ؛ فمنهم من خلق للإفاضة والتحليل والإسهاب ، فإذا طلبت إليه أن يوجز أحس الضيق ، وشعر كأنك قد حبسته أو حبست قلبه الفياض ، وكتمت بيانه المسترسل ، وحلت بينه وبين سليقته الميالة إلى العرض والسرد ! ...

على عكس ذلك الأديب المسرحي ، فهو يضيق بالإفاضة ، والوصف ، والاسترسال ، ويجب إصابة الهدف بكلمة ، أو رسم الشخصية في إجابة ، أو الإحاطة بالمعنى في عبارة ؛ — كذلك الشاعر له تلك الطبيعة التي يستطيع بها أن يضئ الكون بشطريته ، ولو أعطيته الصفحات ؛ لينثر فيها هذا المعنى الذي وضعه في ذلك الشطر ؛ — لتعثر أسلوبه ، وضعف نثره . وشجب معناه ، وبدا عليه العي ، وغلبت عليه الركافة ! ... الحوار إذن كالشعر : استعداد طبيعي ، يميل إليه أولئك الذين يميلون إلى الاقتضاب ، ذلك أن ألد أعداء الحوار الإطالة والحشو ، فهو هنا أيضا كالشعر لا مكان فيه للكلمة الزائدة والمعنى المكرر ؛ لأن كل كلمة تلقى لها حين مرقوم ،

ووقت معلوم ! .. هذه الصلة بين الشعر والمسرحية ليست مما يقال على سبيل التشبيه، وإنما هي صلة حقيقية، نبتت في الآداب القديمة : فقد كان كتاب المسرحية في عهد الإغريق شعراء، وظل الأمر كذلك إلى العصور الحديثة، ولا تزال بعض الآداب الأوربية تسمى المؤلف المسرحي « شاعرًا »، حتى إن كان في كل مسرحياته « ناثراً!... » والحوار باعتباره أداة المسرحية تقع عليه أعباء كثيرة، بل عليه وحده تقع كل الأعباء!... فمنه نعرف قصة المسرحية، وما انطوت عليه من حوادث ومواقف، وهو لا يقصها علينا حكاية وقعت في الماضي، ولكنه يقيمها أمام أعيننا في الحاضر حية نابضة تتحرك!... فالحوار هو الحاضر، هو ما يحدث في اللحظة التي نحن فيها، حاضر أبدى، لا يمكن أن يكون ماضياً أبداً!... إقرأ مسرحية لـ « سوفوكليس »، أو « شكسبير »، أو « مولير » - اليوم وغداً - كما قرأها قبلك بأجيال وقرون أناس كثيرون، فإن الحوار يبرز أشخاصها ماثلين، حاضرين، يتكلمون، ويتحركون؛ في حاضر دائم!... فهمة الحوار إذن، ليست أن يروي ما حدث لأشخاص، ولكن مهمته أن يجعلهم يعيشون حوادثهم، أمامنا مباشرة، دون وسيط أو ترجمان، فإذا قام الحوار بهذه المهمة فإن واجبه لم ينته بعد : فنحن لا يكفيننا منه في المسرحية أن يكشف لنا عن حوادث ومواقف، بل عليه - فوق ذلك - أن يلون لنا هذه الحوادث، وهذه المواقف، باللون الموافق لنوع المسرحية : فإن كانت مأساة تخير من الألفاظ ما يثير في نفوسنا الرهبة، والجزع، والجلال والخشوع، وإن كانت ملهارة انتقى من العبارات ما يشيع في قلوبنا روح الفكاهة، والمرح، والسخرية، والعبث!... فالحوار في يد المؤلف المسرحي : كالريشة في يد المصور، وهي المنوط بها الرسم، والتلوين، والتكوين، وكل ما يوضع على اللوحة من فن!... ولا تقف مهمة الحوار عند رسم الحوادث، وتلوين المواقف : بل هو الذي يعول عليه أيضاً في تكوين الشخصيات، فلا بد لنا أن نعرف من

طريقة طبائع الأشخاص، ودخائل نفوسهم، فهو الذى يجب أن يظهرنا على ماظهر
منهم وما خفى، ما يفعلون أمامنا، وما ينوون أن يفعلوا، ما يقولون لغيرهم من
الأشخاص، وما يضمرون لهم فى أعماق النفوس...!

فإذا قام بهذا كله كان عليه واجب آخر، هو خلق جو المسرحية... وهو عمل دقيق،
لا ييوح لنا الحوار بسرّه، وليس هو بالعمل المنظور، ولكنه من عجائب الحوار أحيانا؛ فهذا
الجو الشعري السحري، الذى ينبعث من مسرحية «العاصفة» لـ «شكسبير»،
ماسره...؟ وكيف استطاع الحوار أن يباعد بينه، وبين جو آخر، لقصة أخرى، للمؤلف
نفسه هي «عطيل»...؟ ثم هذا الجو المخيم على مسرحية «دون جوان» لموليير، ما أبعده
عن جو مسرحية «الطيب رغم أنفه»...؟ وهذا الجو المسيطر على «فاوست» لجوته، ما
أبعده عن الجو المحيط بمسرحيته «إيجمونت»...؟ فالحوار هو الحوار، والمؤلف هو
المؤلف، ولكن الحوار يندمج لكل مسرحية الجو الذى يلائمها...!

العجيب فى الحوار ليس أنه يؤدي الأغراض المختلفة بمفرده، بل العجيب أنه
يؤديها كلها فى الوقت عينه، فقد يرسل العبارة من عباراته إرسالا على لسان شخص
من أشخاص المسرحية، فإذا هذه العبارة محملة بمختلف المهام؛ ففيها إخبار بحادثه،
بحادثته وفيها تكوين لشخصية، وفيها خلق لجو، وفيها تلوين لروح مظلم، أو مفرح... مثلها
كمثل العبارة الموسيقية، التى تنطلق محملة بالنغم، الذى يروى، ويلون، ويكون، ويثير، كل
هذا فى لحظة؛ وكشأن البيت فى القصيدة الشعرية، ينطلق حاملا إلى النفس عذوبة
ووزنا، وفكرا ومعنى، وصورا، كل هذا فى آن...!

هذا الكلام منصب على الحوار بوجه عام، باعتباره أداة المسرحية ولكن هذا
«الحوار» - لو نظرنا إليه بوجه خاص وهو فى أيدي أقطابه - لو جدنا فى أساليب ممارسته من
«العجائب ما يحتاج إلى كلام طويل، ولكننا نكتفى هنا بالإشارة إلى بعض الملاحظات العابرة:

من ذلك ما قد يراه المتأمل في أسلوب الحوار ، عند «شكسبير» في بعض مآسيه ، وفي أسلوب الحوار ، عند «مولير» في بعض ملاحيه : إن المتأمل في حوار «هاملت» ؛ مثلا ، أو حوار «مكبث» ، يلاحظ أن طريقة الحديث فيهما — بين الأشخاص — لا تجرى على منطق الحديث الواقعي — بين الناس — في الحياة ... إنما هو حوار يجري على منطق الشعر ؛ فهو لا يتسلسل بنظامه الطبيعي في الحياة الواقعية ، ولكنه يتسلسل بنظامه الطبيعي في حياة المعاني النفسية ؛ فهو يقفز قفزات ، ويعبر فجوات ، ويستعين بالكلمات المضيئة ، والحكم البليغة ، والصور اللامعة ؛ ليصل في صفحات قليلة إلى أغوار النفوس الإنسانية ، وأسرار الطبائع البشرية ... «شكسبير» مؤلف واقعي الهدف ، شاعري الأسلوب ... لقد احتفظ بطبيعة الشاعر ، وطريقته في معالجته لأدق شؤون الحياة والبشر ، وشعره وإن كان مرسلا أى أقرب ما يكون إلى النثر ، فإن روحه لم تزل أرفع ما يكون الشعر ، في حين أن «مولير» كتب بعض ملاحيه بالشعر المقيد الموزون ، ولكن حوارهم يتسلسل دائما بنظامه الواقعي في الحياة ، ويجرى الحديث بين أشخاصه ؛ كما يجري في الحياة العادية ، لا يعوقه إلا النظم الذى يضيق به السامع أو القارئ أحيانا ، ولا يدرى فيم الاتجاه إليه ، وكل شيء بدونه ، وعلى الرغم منه ، غارق في دنيا الواقع ... «مولير» مؤلف واقعي الهدف ، واقعي الأسلوب ، على الرغم من شعره المقيد المنظوم ...

هذان لونا من الحوار وضعا شعراً ؛ كلاهما يخلق من الأشخاص الحياة ، ويبرز من خفايا النفوس البشرية ما اعتبره التاريخ من مفاخر الفكر الإنسانى ، وهما مع ذلك مختلفان في الأسلوب ؛ أحدهما يجري الحوار بروح الشعر ؛ — وإن اقترب من النثر ، والآخر يجري الحوار بروح النثر ؛ — وإن تقيد بالنظم ... هناك لون ثالث من الحوار ، لشاعر أيضا ، كتب بعض مسرحياته بالشعر ، وهو

« إيسن » : تجد أن الحديث الذى يجريه على لسان أشخاصه ، يتسلسل بنظامه الواقعى ، على طريقة « مولير » ، ولكننا نشم مع ذلك عطرا غريبا . ينبعث من بين حوارهِ ، يذكرنا بذلك العطر الشعري ، الذى ينبعث من خلال كلمات « شكسبير » : فهو مؤلف واقعى الأسلوب ، شاعرى الجو ! ...

هناك أيضا لون رابع من الحوار ، لشاعر فى قصة شعرية ، هو « جوته » ، فى « فاوست » — هنا نجد الواقع ليس هو شاغل المؤلف : فهو لا يعنيه أن يظهر أشخاصا إنسانية ، تعيش فى محيطها الإنسانى ، ولا تهتم مآسى البشر : ولا ملامهم ، ولا مجتمعهم ، وحياتهم ، ومشاكلهم فى ذاتها ، ولا من حيث هى : — إنما الذى يهمه فى قصته هذه ، هو علاقة الإنسان بما هو أعلى ، هنا إذن مجال الفكر والشعر ، وهنا نجد أسلوب الحوار — عند « جوته » لا يتسلسل طبعا بنظام واقعى ، ولكنه يجرى محولا : على أكتاف الفكر مرة ، وعلى أجنحة الشعر مرة أخرى : فهو هنا مؤلف فكرى الهدف ، شاعرى الأسلوب ! ...

هذه ملاحظات خاطفة على بعض أساليب الحوار ، تدلنا على أن أداة المسرحية وإن كانت واحدة لا تتغير ، لأنه ما من مسرحية تقوم إلا بها ! ... فإنها — أى الحوار — يختلف لونها ، وطبيعتها ، وروحها ، وطريقتها ، — باختلاف طبيعة الفنان ، وطبيعته العمل الفنى ! ...

البناء

إذا ملك أديب مسرحى ناصية الحوار؛ فما الذى يبقى أمامه لينشئ مسرحية؟... لا شئ. أمامه غير أن يشرع فى البناء؛ - ذلك أن المسرحية كيان مبنى، أى قائم بعضه فوق بعض، ومرتبطة جزؤه بكله فى منطق ونظام. هذه الأجزاء التى يضمها هذا البناء؛ تتكون منها مراحل ثلاث: العرض، فالعقدة، ثم الحل... أما العرض فهمته تقديم الأشخاص، وطيف الحادثة؛ التى ستوضح ملاحظاتها فيما بعد، وتتعدد، ثم تنفرج عن الخاتمة... وطرق العرض كثيرة، وهى تختلف باختلاف المؤلف، أو باختلاف المسرحية؛ فالطريقة التى قدم بها «موليير»، مثلاً، بطله فى مسرحية «تارتوف» تختلف عن الطريقة التى قدم بها، هو نفسه، بطله فى مسرحية «السيد البورجوازي»؛ فهو فى «تارتوف» لم يظهر البطل على المسرح من أول الأمر؛ بل مهد لظهوره بحديث بين أشخاص آخرين، تناولوه فيه بالوصف، والتحليل، والرسم، والتصوير. فلما ظهر بعدئذ، كان المشاهد أو القارى قد عرف عن شخصيته الشئ الكثير، ولم يبق عليه إلا أن يتبعه فى حوادث القصة؛ ليرى تأثيرها فيه أو تأثيره فيها... أما فى «السيد البورجوازي»، فإننا نجد - على عكس ذلك - بطل المسرحية قد ظهر، منذ اللحظة الأولى، دون أن يمهّد له أحد بحديث، ودون أن نعرف من أمره شيئاً؛ فما يكاد يتكلم هو حتى نعرف من كلامه نوع عقليته، وكلها أو غل فى الحديث، كشف لنا عن لون شخصيته؛ فالبطل هنا هو الذى يقدم نفسه بنفسه، من مبدأ الأمر...

هناك طريقة أخرى، اتبعها «شكسبير» فى تقديم بطله «مكبث»؛ فما من أحد مهد لمكبث بحديث، وما كشف لنا هو بحديثه عن طباعه. ولكن حادثة خاطفة اعترضت - عند ظهوره - فسلطت على أغوار نفسه المصباح؛ - تلك هى نبوءة

الساحرات... فهو لم يكده يظهر لنا، حتى ابتدرته الساحرات متنبئات له بالملك... هذا الحدث العارض البسيط، فتق لنا سر يعا قلب «مكبث»؛ فبدأ فيه من ألوان الشعور الأثيم، ما كان هو نفسه يحمله طول حياته... شخصية مكبث الماضية لم يكن لها أثر في مستقبله، فهو في ماضيه لا غبار عليه، ولكن طابعه الطيب في الماضي لا سلطان له على كبش آثامه، ووقف مطامعه في الغد؛ لذلك لم يجد «شكسبير» حاجة إلى عرض ماضى «مكبث»... إن «مكبث» عند «شكسبير» هو الطموح الذى يحطم القيود، هو المستقبل الذى يلتهم الحاضر والماضى... لذلك بدأت القصة، وكان أشخاصها ركضون فى المستقبل ركضا، المستقبل الذى غير كل شىء، المستقبل الذى سفك دم كل شىء حتى ماضى البطل الطيب... على عكس ذلك مسرحية «عطيل»... هنا الماضى هو الذى يؤثر فى المستقبل، ويدفع إليه، هنا طيبة «عطيل الماضية» بما فيها من حرارة المغرب، ودمه الفوار، وحمق البطل، ورعونته، وجرأته - هى التى أدت إلى حدوث الكارثة فى المستقبل. أهمية هذا الماضى فى مسرحية «عطيل» جعلت «شكسبير» يعنى بعرض حياة بطله الماضية عرضا وافيا، حينما على لسانه، وحينما على لسان الآخرين... طرق العرض إذن تختلف، لا باختلاف المؤلف فحسب بل أيضا باختلاف الموضوع والشخصية...

فإذا تم العرض فقد بدأت المرحلة الثانية فى المسرحية وهى العقدة، أى حادثة توشك أن تقع، ويترتب على وقوعها نتيجة أو نتائج، أو هى مشكلة اجتماعية، أو عاطفية، أو فكرية؛ تنبأ للظهور، وينجم عن ظهورها، واشتباك أطرافها نتيجة أو نتائج... على أنه ليس من الضروري - فى كل الأحوال - أن يتم هذا الانفصال - بين العرض والعقدة - على نحو واضح؛ فقد يحدث أحيانا أن تنداخل المرحلتان، إحداهما فى الأخرى؛ كما نلاحظ ذلك فى مسرحية «مكبث»، أيضا: فهى قد بدأت بحادثة هى حادثة النبوءة...

هذه الحادثة عرضت لنا الشخصية ، وهيات لنا العقدة في الوقت نفسه ، وكأنا نرى أشخاص المسرحية يصعدون إلينا من جرف الحادثة ، أو لكأننا نجدهم أمامنا فجأة معروضين مخلوقين ، من نسيج تلك العقدة !... على عكس ذلك مسرحية «عطيل» ؛ ففيها نرى العرض منفصلاً تمام الانفصال عن العقدة !... هنا المرحلتان متباعدتان متميزتان ؛ إحداهما عن الأخرى ... فالعرض هنا يسير بنا شوطاً بالأشخاص في حياتهم المألوفة ؛ — حتى نعرفهم في ماضيهم وحاضرهم ، ونكاد نلص بعض طباعهم وأخلاقهم ، وإذا العقدة — على مهل — تأخذ في البريق ؛ كالشرارة الصغيرة المتطايرة من احتكاك هذه الأخلاق والطبائع بعضها ببعض ، إلى أن يحدث آخر الأمر الحريق !... هنا قد نلاحظ أن طبيعة المسرحية هي التي تحدد طريقة بنائها ؛ فإذا كانت العقدة تخرج من طبائع الأشخاص ، كان من اللازم عرض هذه الطبائع عرضاً كافياً قبل الحادثة ، وإذا كانت العقدة تخرج من حادثة من الحوادث الخارجية ، اندمج العرض مع العقدة وظهر معها !...

هذه ملاحظة ولا أكثر من ملاحظة : — فمن الخطر في الفن أن نتعدى حدود الملاحظة إلى سن القوانين !... والفن نظام ، ولكنه يكره القانون !... إنه حرية منظمة ، حرية تنظم نفسها بنفسها ، ولا تقبل أبداً أن يفرض عليها الآخرون نظاماً . فهناك من المسرحيات ما نرى فيها العقدة ، تظهر من اصطدام الطبائع والأخلاق ، ولا تعرض لنا هذه الطبائع والأخلاق ، إلا وهي مضطربة في خيوط العقدة ؛ كما أن هناك من المسرحيات — وخاصة ما وضع منها في العصور الحديثة — مالا عقدة فيها على الإطلاق ، إنما هي عرض طويل للطبائع ، أو الأفكار ، أو الأخلاق !... ومنها ما يرمى إلى خلق جو خاص يغمر فيه القارىء ، أو السامع ، أو المشاهد غمراً ، دون أن يكون المقصود رسم شخصية من الشخصيات الرسم الكامل ، أو إبراز طابع من الطبائع الإبراز الشامل !...

على أن تعدد النزعات والاتجاهات ، لا يمكن أن يمس دائما كل هذه الأركان اللازمة لبناء المسرحية ؛ فهو قد يضعف ركننا لدعم ركن ، أو يقوي ركننا على حساب ركنين ...! إن الفن دائم التجدد ، وهو في تجدد لا ينسى — بالخبرة أو السليقة — أركانه اللازمة لارتكازه ...!

تلك هي مرحلة العقدة في المسرحية ، حادثة تتشعب ، أو مشكلة تتشابك ، ولكن هذا التشعب ، أو هذا التشابك ؛ — لا بد أن يصل إلى طرف ، أى إلى نهاية ...! هذا الانحدار إلى الطرف ، أو إلى النهاية ؛ — هو الحل الذى يؤدى بالمسرحية إلى ختامها ...! وهو فى المآسى : غالبا ما يكون الموت عقابا للبطل الأثيم ، وحادا لحياة البطل المجيد ...! وفى المهازيل : غالبا ما يكون الزواج هو الختام البهيج . هذه المرحلة الأخيرة فى المسرحية ، تأتى نتيجة لما سبق من حياة ، هي الجواب عن سؤال ، هي الراحة بعد قلق معلق ؛ لذلك يجعلها مؤلفو المآسى الراحة الأبدية « للأبطال » ، ويجعلها مؤلفو المهازيل الراحة الدنيوية للمحبين ؛ لأنهم يعلمون أنهم بذلك يحدثون شعور الراحة فى نفوس المشاهدين ...!

على أن بعض المسرحيات فى العصور الحديثة ، قد نحت نحو آخر ، فلم تجعل من النهاية جوابا؛ ولم تحدث بها راحة ، بل جعلت من النهاية سؤالا كبيرا ، يبق بين جوانح القارئ أو المشاهدين ، وليس له من مجيب ، أو جعلت منها وقفة تشيع فى النفس قلقا؛ ولا تحدث شعورا براحة ، ولا تمس العقدة التى تبقى دائما بغير حل ...! ربما كانت هذه النهاية — فى بعض الأحيان — أفعل فى النفس ؛ وقد أدرك « شكسبير » ذلك فى مسرحية « عطيل » ، فترك الخائن « ياغو » حيا أمامنا بعد موت ضحاياه ، وهو الذى كنا نتمنى أن تسدل الستار على جثته وهى مقطعة تقطيعا ...! لم يرد « شكسبير » أن يمنح نفوسنا هذه الراحة ، حتى تظل نفوسنا القلقة تلعن « ياغو » طول

الأجيال؛ فالمؤلف البارع ليس ذلك الذى يتولى بنفسه - فى كل الأحيان - مصائر أشخاصه، بل هو ذلك الذى يجعل الناس يتولون أمرهم من بعده...! هكذا انجح «شكسبير» فى أن يترك «ياغو» المجرم قائماً، يتلقى صفعات الأحقاب، على حين أن ضحاياه فى أجدانهم راقدون، تحت قباب العطف الخالد، والحب الدائم...! ذلك العطف والحب والتفجع، الذى تمثله تلك الصيحة، التى خرجت من قلب الشاعر الألماني: «هاينى»: «لاشئ فى الدنيا يعزىنى عن موت «ديدمونة»...!

أما وقد عرفنا شيئاً عن أركان المسرحية، فقد بقيت مسألة أخيرة - هذا الكيان المبنى الذى يسمونه المسرحية: أهو - ككل بناء - يجب أن توضع خطته، وترسم خطوطه، بكل أجزائها، وأدق تفاصيلها قبل الشروع فى التنفيذ...! تلك فيما أعتقد مسألة شخصية، وقد يكون فى تاريخ الإعلام، من المؤلفين، من كان يفعل ذلك، ومنهم من كان يفعل غير ذلك؛ فليس لأحد أن يملى على فنان طريقة عمله!.. كل مالنا من حق هو أن نبحث، ونلاحظ، ونستنتج، فإذا رأينا الفنان يخرج بعد ذلك على مراتبه من بحوث، ونتائج، وقواعد؛ - فليس على الفنان من حرج؛ مادام قد أخرج فى نهاية الأمر أثراً بديعاً، مهما تكن الطريقة التى اتبعها... على أنى أرى بتجربتي الخاصة أن المسرحية - وإن كانت بناء - فهى ليست بالبناء الأصم...! لأنها بناء حى؛ لأنها مكونة من شخصيات حية تتكلم، ومن كلامها قد تحدث مفاجآت فرعية، لا يمكن للمؤلف أن يحسب حسابها...! إن المؤلف يستطيع أن يحدد من قبل طبائع أشخاصه، وأخلاقهم، وخطى حياتهم، ومصايرهم؛ - ولكنه لا يستطيع أن يحدد تفصيلات أحاديثهم، ولا جزئيات تفكيرهم: إلا بعد أن يياشر التنفيذ، ويمضى فى التأليف...!

إن البناء المسرحى لا يمكن أن يكون - بالضبط - كالبناء المعمارى؛ فالمهندس

إذا رسم مسماراً على الخريطة فلا شيء يغيره ، أما المؤلف فإنه لا يضمن بقاء
جزئية على حالها لو اندفعت شخصيته في اتجاه آخر ، على أثر كلمة فجائية ، لفظتها
شخصية أخرى !... إن المسرحية عجيبة ، تتطور في يد مؤلفها... إنها شجرة تنمو تحت
إشراف بستاني !... إن المؤلف بالنسبة إلى أشخاص المسرحية : كالقدر بالنسبة إلىنا ؛
فالقدر يعرف ما هو صانع بنا في نهاية الأمر ، ولكنه يترك لنا حرية الكلام ،
والحركة التي تقتضيها دوافعنا الداخلية !..

الطبائع عند شكسبير

يخيل إلى أن كل شخص يحمل قدره في طبائع طبيعته ؛ فليس في كل الأحوال تهبط
الأقدار من السماء على رؤوس الناس ؛ - ولكنها تصعد أحيانا من طبيعة نفوسهم - بل إن
تصرفات الإنسان - أمام الأحداث - هي في الغالب صورة من طبعه ونفسه ! ...
ربما كان فهم الإنسان على هذا النحو ، هو الذي جعلنا نرى في « شكسبير »
عبقريّة عالمة بطبائع البشر ؛ فهو في مأساة « عطيل » صور لنا قائدا مغربيا ، أسود
اللون ، حاد الطبع ، قليل التأمل ، بالغ الجرأة ، ساذجا إلى حد الحق ، طيب النفس
إلى حد البساطة ! ... هذا الرجل قد أحب زوجته « ديدمونة » حبا مبرحا ، فلما
سعى بينهما الدساس المخادع « ياجو » بالوقعة ، وأوهم الزوج الطيب أن زوجته
تخونه ؛ - تحالفت كل عناصر تلك الطبيعة المركبة في « عطيل » ، وتجمعت أجزاء شخصيته ،
من جنسه الحار ، وطبعه الحاد ، ورعونته وجرأته ، إلى غباوته وسذاجته ؛ - فأدى
كل ذلك إلى الكارثة ، وكان ينبغي أن يؤدي إليها ؛ فهو لم يحاسب نفسه طويلا ، ولم
يتردد كثيرا ، ولم يقلب الأمر على وجوهه ، ولم يتأمل ، ولم يتشكك ؛ - بل هجم
على زوجته الرقيقة البريئة يقتلها ، ويقتل نفسه ، وقد علم ببراءتها بعد فوات
الأوان ! ... وإن المشاهد يرى كل هذا يجري إلى هذا المصير ، ويكاد يصيح
به : « أيها الأحمق ! ... تمهل ! ... ابحث ! ... حقق ! » . ولكنه لو سمع إلى هذا
القول ، وتأمل ، وبحث ؛ - لكان شخصا آخر غير « عطيل » ، بطبيعته التي عرف بها ! ...
مأساة أخرى ! « شكسبير » ، تصور لنا شخصا آخر هو « هملت » ، ... كل ما فيه

يناقض شخصية «عطيل»؛ فهو من أبناء الشمال، بارد الطبع، أشقر الشعر، عميق الاطلاع، كثير التأمل، معقد النفس... هذا الرجل قد علم أن عمه قتل أباه، وتزوج من أمه... علم ذلك من شبح أبيه نفسه!... ظهر له ورآه بعينه، مع الرفاق والحراس، وسمع صوته وهو يهيب به أن ينتقم له من قاتله... ويستحلفه بقسم رهيب، ثلاث مرات. أن يثأر... ولكن «هملت» لا يقدم، بل يظل يقلب الأمر على وجوهه، ويتشكك فيما سمع بأذنه، وفيما رأى بعينه، ويمضي يتأمل، ويبحث، ويراقب، ويحقق... والمشاهد يرى كل هذا التردد، ويكاد يصيح به: «فيم كل هذا التأمل والتفكير؟... أقدم... انتقم...!...» ولكنه لو أصغى إلى هذا القول، وأقدم من الفور، دون تأمل أو بحث؛ — لكان شخصا آخر غير «هملت» بطبعه الذي عرف به...!

* * *

لطالما خطر لى هذا السؤال: ترى ماذا كان يحدث لو أن «هملت» بطبعه هذا هو الذى كان زوجا لديمونة؟... وكان «عطيل»، — بطبعه ذاك — هو الذى كان ابن الملك المقتول؟...

أغلب ظنى أن «ديمونة» ما كانت تقتل... فإن زوجها، بطباع «هملت»، وما فيها من مزاج هادئ، واطلاع عميق، وتأمل طويل؛ — كان يتناول إفك الدساس بشك وحذر، وكان يبحث كل كلمة من بهتان، ويحقق ويدقق ويسأل الناس، ويتردد فى اتخاذ القرار الفاجع؛ إلى أن تنكشف له الحقيقة فى آخر الأمر... وبأنكشافها تبرأ «ديمونة»، وتبطل المأساة...!

كما أن «عطيل»، بطبعه الحاد، وخلقه الأرعن، وعقله البسيط، وشخصه المقدام؛ — ما يكاد يظهر له شبح أبيه، يدعوهُ إلى الانتقام، حتى يهرع لساعته والسيوف فى

يده إلى عمه ، فيغمد النصل في صدره ، دون تردد أو تأمل أو تفكير ! وبذلك تنتهى الرواية فى الفصل الأول ، وتبطل المأساة — مأساة النفس المعقدة — بما فيها من درس ، وغوص ، وتحليل

هاهنا إذن عبقرية شكسبير ! . . . إنه قبل أن يخلق المأساة أو الكارثة ، خلق الشخصية التى تصنعها ، وقبل أن يخلق الشخصية ، خلق الطباع التى لا بد أن يصدر عنها تصرف الشخصية

لقد أدرك هذا الفنان الخالد هذه الحقيقة البشرية ، وهى :

« أن الأقدار والمصائر أجنة فى بطون الطباع ! »

من كل ذلك أرى ، لزاما على رجل المسرح ، أن يدرس « شكسبير » دراسة فحصى وتمحيص ! . . . فلقد كان هذا المسرحى العبقرى محل درس فى كل أدب من آداب العالم — حتى الأدب الروسى الحديث ؛ فقد عنى به النقاد الروس عنايتهم « بموليير » و « تشيخوف » . وألفوا فيه الكتب والبحوث ؛ فلقد كتب الناقد « اسكندر سميرنوف » بحثاً مستفيضاً عام ١٩٣٩ عن « إنسانية شكسبير » ، كما كتب الناقد « اسكندر أنيسكست » ، عام ١٩٤٦ يقول : « إن شكسبير — ذلك الأستاذ العظيم — قد خدم بفنه أعظم المثل العليا الإنسانية ، وأعطى الواقعية فى الفن مثالا لا يبارى ... ! » . وقد قال — مثل هذا القول من قبل — الناقد « قسطنطين درزهافين » فى كتاب له عام ١٩٣٦ م ، ذكر فيه قيمة الدرس الذى يتلقاه الفن الواقعى الاشتراكى من فن « شكسبير » ، وتعبيره القوى ، وتحليله النفسى العميق ، وقدرته الفائقة على وضع أعظم المعضلات الفلسفية ، فى صور حية ، وأوضاع مسرحية ؛ — ملخصاً رأيه بقوله : « نحن نحب « شكسبير » ؛ لذنه الحاد ، ومعرفته الحكيمة للحياة ، وحبه للنوع البشرى ، وعبقريته الواقعية — المفعمة بالفكر العميق ، والمشاعر الصادقة ! »

عوائق المسرحية عندنا

لو ظهر « شكسبير » في « مصر » اليوم...! ماذا كان يصنع؟... هل كان ينتج آثاره الخالدة نفسها؟... والمقصود بظهوره في مصر، أن يكون مصرياً، لغته العربية... وأن يكون تراثه الأدب العربي، بصورته المعروفة!...

ما من شك أنه سيقف حائراً، باحثاً عن نموذج يحتذيه، وهو في مبدئ الطريق!... فما من عبقرى يظهر فجأة من العدم!... لقد احتذى « بيتهوفن » مثال « موزارت »؛ فكانت « سمفونيته » الأولى تحمل أريج هذا الأخير!... كذلك فعل « شكسبير »، فهو عندما بدأ يكتب للمسرح الإنجليزي، كانت نماذج طائفة من مشاهير المؤلفين في ذلك العهد؛ مثل: « مارلو » و « جرين » و « كيد »!... قال العلامة « هاريسون »: « كان « شكسبير » - في أول أمره - يقلد الأسلوب الشائع عند مؤلفي المسرح في عصره؛ تقليد ابلغ من التقيد حداً، جعل بعض النقاد - فيما بعد - يتساءلون: هل كان هو حقاً مؤلف التمثيليات الأولى المنسوبة إليه؟... »

فإذا فرضنا أن « شكسبير » المصري، قد وجد في الأدب العربي من النماذج، ما يسترشد به، ويسير على هداية؛ - فإن مشكلة أخرى لا تلبث أن تقف في سبيله!... ذلك هو العصر الذي يعيش فيه!... فاهتمام الناس بالمسرح في عهد « أليزابث »، قد حل محله في مصر، اهتمام بالسباق، والسينما، والكباريهات!... والمسرح لا يمكن أن يزدهر إلا في مجتمع يحبه، ويقبل عليه، ويضعه في المكان الأول من العناية والتقدير!... وازدهار المسرح معناه أنه قد بلغ من القوة، والرواج، والثبات؛ - مبلغاً يتيح له أن يكفل للقائمين

به أسباب الانقطاع له... إن من عوامل إيقان «شكسبير» أنه انقطع للتمثيلية، لا يضع شيئاً غيرها... واستطاع أن ينقطع لها، لأنها استطاعت أن تطعمه... كل فن لا يستطيع أن يطعم صاحبه يموت... لأن للفنان فماً ومعدة، قبل أن يكون له ذهن وقريحة... وإذا أخذنا بما جاء في كتاب «سدنى لى» رأينا «شكسبير» شديد الاهتمام بما تدر عليه مؤلفاته من مال؛ — وقد ترك وصية، كما ثبت من السجلات القضائية، جديرة في نظر بعض الباحثين بمراب لا بشاعر...!

فإذا سلمنا بأن «شكسبير» المصرى، يستطيع أن يجد في مصر اليوم ذلك المسرح الذى يقول: «انقطع لى، واكتب لى وحدى، وأنا أكفل لك حياتك، ومعاشك...» فإن معضلة أخرى — من نوع آخر — تهض أمام فكره، وهو يشرع القلم ليكتب: أيؤلف بالنظم أم بالنثر؟... فإذا اختار النظم فإنه لن يجد من المؤلف فى الأدب العربى، ذلك الشعر المرسل — بغير قافية — الذى كان مألوفاً عند شعراء المسرح الإنجليزى، وقت ميلاد «شكسبير»... والشعر الملقى على الطريقة العربية يصلح لنوع محدود من الروايات لا لكل الأنواع... فلا بد له إذن من أن يبتدع، وأن يغامر...! «وشكسبير» الإنجليزى لم يبتدع فى ذلك الأسلوب، ولم يغامر...! ولكنه ورث، وأخذ، ثم جود، وأتقن...!

فإذا أثر شكسبيرنا المصرى أن يكتب بالنثر، فإن مسألة أخرى تعرض له: أبالنثر الفصيح يكتب أم بالنثر العامى؟... فإذا حل المسألة باختيار الفصحى فى الروايات التاريخية والجديدة؛ فإن الروايات العصرية، التى تصور أشخاصاً شعبية، وبيئة محلية، — لا يمكن أن يعالجها بالفصحى إلا على حساب الدقة فى التصوير، والصدق فى التلوين...!

فإذا جازف، وغامر، واختار لنفسه اللغة التى يقتضيها فنه، وقال: «أنا حر؛

لأن الفن حر...! أو قال: كما قال «مولير»: «إني آخذ ما ينفعني في قتي؛ حيثما أجده...!»: — فإن مشكلة كبرى لم يعرفها «مولير»، ولا «شكسبير» نهض له الآن صائحة: تلك هي مشكلة النظريات الاجتماعية، والمبادئ السياسية، التي تتصادم اليوم، وتتشاجر في عالمنا الحاضر، فإذا أراد أن يقيم مسرحه، في محيط الملوك والتاريخ والفكر: كما فعل «شكسبير» الإنجليزي، — فإن التقدميين يقولون له: «هذه رجعية...! أين الشعب؟... اكتب عن الفلاح، والعامل، والجوع والفقر، — وتبسط في لغتك، وتواضع في تفكيرك، ليفهمك الدهماء...! لأن الفن هو لهؤلاء...!»، فإذا اتجه هذا الاتجاه، انبرى له آخرون من المثقفين يقولون: «هذا عمل لا وزن له في عالم الأدب والفكر، إنما هو إسفاف يراد به التقرب إلى العامة...! اكتب للخاصة...! فما الفن إلا لهؤلاء...!».

فإذا كتب لهؤلاء ولهؤلاء، وأحاط بوسع العلوم، والفنون، والمعارف اللازمة في عصرنا الحاضر؛ لإبداع فن الخاصة، ثم ألم بالبيئات، والصور، واللغات، واللهجات اللازمة؛ لإبداع فن العامة، وصور النفسيات، والعقليات، والمبادئ، والأفكار، التي تصطارع في بحر هذا العالم الحديث المضطرب؛ — فإن ذلك كله يتطلب عبقرية أعجب من عبقرية «شكسبير» الأول...!

حقا... لو ظهر «شكسبير» اليوم لكان فكره تبلبل، وعقله تحير...! ولكان عمله أعسر، وواجهه أكبر، وعقباته أضخم، ومجهوداته أضنى...! من حسن حظّه إذن أنه ولد في «إنجلترا» في القرن السادس عشر...!

المسرح اتقان وتجويد

شاهدت « مدرسة النساء » لموليير ، تعرضها — فى دار « الأوبرا » المصرية — فرقة « لوى جوفيه » وكنت قد شاهدت هذه الرواية قبل اليوم بنحو ربيع قرن فى باريس ، على مسرح « الكوميدي فرانسيز » ، فرأيت كيف يوضع الأثر الفنى الواحد ، فى ثوبين مختلفين من البراعة ، والحدق ، والذوق !

ذلك أنهم هناك يعرفون ما هو الفن ؟ ! إنه عندهم ليس مجرد حكاية تروى ، ثم تطرح ؛ — إنما هو النظرة المتجددة للأثار الخالدة ! ما من واحد هناك يجهل مسرحيات « موليير » لقد شبث أجيال على مطالعتها فى المدارس ، ومشاهدتها فى الملاعب ؛ — ولكن كل جيل يجمع مواهبه ، ويحشد تجاربه ؛ ليصنع منها إطاره الخاص الذى يضع فيه الأثر القديم !

لقد شاهدت جيلين فى الفن ، يجدان فى إظهار « موليير » ، لكل منهما — ولا شك — خصائصه ، ومقوماته ، ولكنهما يجتمعان فى مزية واحدة هى : الإخلاص ، والتجويد ، والإتقان !

على أن الذى يحسن أن توجه إليه النظر ، هو موقفنا نحن من هذا الفن ، فإن الفرق الأجنبية تفد على دار « الأوبرا » ، ثم تمضى — وقد تكبدنا فى سبيل استقدامها الأموال ، وبذلنا الجهود — فلا نرى لوجودها أثرا يذكر ، فى تقدم الفن المسرحى فى بلادنا ! . . . ما هو السر ؟ . . . أليس من الخافز للأذهان ، أن نبحث عن سر لذلك الأمر ؟ .. ربما كانت العلة كامنة فى شيء واحد : فكرة خاطئة ، مضمونها أن على

مسارحنا أن تكثر من إخراج الروايات الجديدة ، وأن تتجنب الآثار الخالدة القديمة ، فلجأت إلى الساقط الغث ، تدفع به إلى المخرجين ، يهشونه في عجلة ولهفة ؛ لأنهم يعلمون سلفا المصير ، الذى ينتظر الرواية !... وهو أنها لن تعمر فوق المسرح أكثر من أسبوع !... وهذا لا يزيج الفرقه ؛ لأنها تعتقد أن الجمهور يريد منها رواية جديدة ، كل بضعة أيام !...

خطأ هذا الاعتقاد واضح للعيون — حتى لعيوننا هنا فى «مصر» ، فالجمهور — فى كل مكان وزمان — لا يريد غير متعة الإجادة... إن الجمهور المصرى — كغيره من الجماهير الذكية — أفطن من أن يذهب إلى المسرح ، لمجرد رؤية حكاية تسرد ، — إنما هو يذهب ، ليستمتع بفن يعرض !...

هناسر النجاح ، وهذا هو الذى ثبت دعائم المسرح الأوروبى : الإعداد الطويل لعدد من الروايات قليل ؛ — حتى يصل الممثل إلى درجة من التجويد والإتقان ، يقبض فيها على مفتاح الشخصية التى يدرسها !... لقد كان الممثل «دى فيرودى» يقوم طول حياته بشخصية «البخيل» ، لـ «موليير» على مسرح «الكوميدي فرانسيز» فلما بلغ السبعين ، وهو لم يزل يمثل «الدور» ، واضطر إلى الاعتزال ، سمعه زملاؤه وتلاميذه يقول فى حفلة الوداع ، التى مثل فيها «البخيل» للمرة الأخيرة :

« اليوم فقط يا إخوانى خيل إلى أنى أمسكت به... أمسكت به !... »
لقد صدق !... إن بلوغ الإتقان أمر عسير ، ولا تكفى فيه حياة بشرية ؛ — إلا إذا صبت ، بأكلها فى عمل واحد !...

لهذا كان لكل مسرح من مسارح الأرض — منذ وجد التمثيل ، وأشرق ، وازدهر — ما يسمونه «البرتوار» ، أى التراث الباقي الذى يتجدد ولا يختفى ، ويرتفع به الممثل إذا اتقن ، ويبلغ المجد إذا سمته به الموهبة ، وحمله الكد ، ودفعه الجدا... لكل مسرح

حقيق تراثه الدائم ؛ ذلك أن هنالك فرقاً جوهرياً بين المسرح الذى يعرض على خشبته - ممثلين أحياء ، وبين السينما التى تعرض على شاشتها - صوراً صماء...! ممثل المسرح الحى يتطور، وينمو، ويتجدد كلما مثل دوره ، وفى مقدور جمهوره أن يتابعه فى هذا التطور والتجدد ، فيجد المتعة فى مجرد متابعة هذا النمو ، وهذا الجهاد - فى سبيل الإلتقان ، والتجويد :- فى حين أن ممثل السينما، قد سجل دوره فى «الفيلم»، وثبته، وجمده تجميداً ؛ فهما يكررا الجمهور مشاهدته فى نفس الدور فلن يرى جديداً...! من هنا جاز للجمهور أن يطالب بتغيير الرواية السينمائية كل أسبوع أو أسبوعين ؛ فالسينما المتحركة قوامها : الرواية المتغيرة بموضوعها ، ولكن المسرح الثابت قوامه : الممثل المتجدد بإتقانه...!

الأصلاح الخلقى والتمثيل

هل غاية فن التمثيل الإصلاح الخلقى (١) ؟ ...

مسألة كانت موضوع بحث وجدل فى عصور مختلفة !... بدأت فى أيام «أرسطو» ، وأتى فيها برأى دعمه بحجج ، ثم تجددت فى العصر الكلاسيكى «بفرنسا» ، فنبش «راسين» على حجج «أرسطو» ، فأخرجها ، وشكلها بحسب مقتضيات عصره ، وألحقها بمقدمة رواية «فيدر» !... تم بحث هذا المبحث - مرة أخرى - فى القرن التاسع عشر !... بعثه «اسكندر دumas» الصغير ، فأثار بذلك جدلا عنيفا بينه وبين معاصريه ؛ من كتاب ونقاد ، وتجددت بذلك المناقشة القديمة فى ذلك الموضوع !... رأى «دumas» : هو الاعتراف بتلك الغاية ؛ فن التمثيل فى رأيه ، يجب أن يكون مرماه الإصلاح الخلقى والأدبى !... بل ذهب فى ذلك إلى مدى بعيد ، فأوجب تدخل الفن التمثيلى فى ميدان تلك النظريات الاجتماعية ، والمسائل الجدلية المعقدة ، التى هى من شأن رجال السياسة والتشريع ، قائلا : لم لنا نقشر — نحن كتاب المسرح — مسألة اجتماعية هامة : كتركز المرأة الذى وضعها فيه القانون المدنى الفرنسى ؛ لنرى فيها بآرائنا ؟... إن من واجب الكاتب المسرحى أن يضع تلك المسائل على المسرح ، أمام الجمهور ؛ عارضا الدواء لما فيها من داء !... .

إنى لا أدعش «لدumas» إذا بلغ هذا المدى ، فهو ذو المبدأ القائل بأن المسرح : « يجب أن يكون مفيدا... » ؛ لذا نرى فيه يرتكز دائما على الأفكار الأدبية الاجتماعية ؛ فلا يكاد يخلو عمل أعماله ، من البحث فى مسألة من هذه المسائل ، وبالأخص المتعلقة بالمرأة ، وبالأخص مسألة الطلاق !... .

(١) نشر هذا الفصل بنصه فى مجلة « التمثيل » ، التى كانت تصدر من نحو ثلاثين عاما ؛ بتوقيع حسين توفيق !... .

على أن من المجازفة الذهاب وإياه إلى هذا المدى، وإلا اضطررنا إلى الخروج على قواعد الفن كما سيأتى ذكره!...

وقد عارض «دوماس»، فى رأيه، الناقد المشهور، «سارسى» معارضة شديدة: — بل لقد جاء على نقيضه تماما، إذ قال: إن الفن لا يرمى إلى الإصلاح الخلقى، وإن الغاية الأولى للفنانين جميعهم، هى إخراج عمل فنى جميل!... أما الإصلاح الخلقى، فقد يكون غاية ثانوية، وهذا ما قال به «أرسطو» وأخذ به «راسين»!...

نحن إذا فكرنا قليلا، فإننا نجد قول «سارسى» لا يخلو من الصحة!... فبالله من من الفنانين يود إخراج عمل مشوه معيب؛ ارتكبا منه على غرض الإصلاح؟. لعمرى، إن كان يقصد الإصلاح الخلقى لذاته فعنده الطرق كثيرة — غير طريق الفن، وبلا حاجة لتشويه الفن؛ — بل إن فى هذا الطريق القضاء على فكرة إصلاحه؛ فالجمهور سيسفح العمل المعيب كله، غير ناظر لفكرة الإصلاح فيه!... إذن غاية الفنان الأولى هى — كما يجب أن تكون — إخراج العمل الجليل المتقن؛ فهام أولاء كما ذكر «سارسى» — عظماء كتاب فرنسا: كورنى، «وراسين»، و«موليير»، وإن شئت فعظماء كتاب اليونان: مثل «سوفوكل»، و«أرسطوفان»!... كلهم أخرج آيات فى الفن!... والحق، لو دار بخلد أحدهم أن يجعل غايته الأولى الإصلاح الخلقى، لما جاء والناس بفن ما، ولكانت أعمالهم لا تخرج عن كونها أبحاثا فلسفية لا أعمالا فنية!...

إن «دوماس»، بتطرفه، كاد ينسى أن التمثيل هو فن؛ فتجب مراعاة قواعده!... ماهو الفن؟... أليس هو تصوير الحياة الإنسانية؟... هل للفن بأنواعه المختلفة غاية غير تصوير الحياة الإنسانية؟... التمثيل، والتصوير، والنحت، والموسيقى والشعر؟... ألهأ غاية غير هذه؟... فالفن، إذن، هو تقليد ونقل وتصوير للحقيقة الكائنة، وكلما أحكم التقليد والنقل قرب الفن من الكمال، والعكس صحيح!... فلنضع أمامنا هذا

التعريف، ولنواجهه الآن رأى «دوماس»، لنزى إلى أى حد ينطبق عليه هذا التعريف... يقول: إن غاية التمثيل الإصلاح. وإن الكاتب إن هو إلا مصلح أخلاقي؛ فمن هو المصلح الخلقى؟... أليس هو ذلك الثائر على الأخلاق الموجودة أو بعضها، الهادم للنظم المتبعة، الناقم عليها، الخالق لمبادئ جديدة يحاول إحلالها محل القديمة؟؟. فالمصلح مخترع وخالق؛ لا ناقل، ولا مصور، ولا مقلد... فالكاتب المسرحى - إن كان مصلحاً - فهو لاشك سيوجد قواعد جديدة، ولن يصور الحقائق الموجودة... فهل نستطيع وقتئذ أن نسمى عمله فناً؟... وظاهر أن تعريف الفن لا ينطبق على عمله؛ فهو بمقتضاه مخترع لا فنان... رأى «دوماس» لا يستقيم إذن مع قواعد الفن، إلا إذا اعتبرنا غرض التمثيل، وغايته - تحليل الأخلاق الموجودة، وأن الكاتب المسرحى هو كاتب أخلاقي، لا مصلح أخلاقي... بهذا الحل الوسط، تتمشى مبادئ الفن، على أعمال من يقصدون معالجة المسائل الأخلاقية... وعندئذ - وعندئذ فقط - نستطيع تفهم أعمال: «كورنى»، و«راسين»، و«موليير»... ويمكننا بسهولة أن ندرك قيمتها الفنية الكبرى!... فأولئك الكتاب العظام كانوا كتاباً أخلاقيين، لا مصلحين... فمن «كورنى» الذى صور لنا البطولة والنضيلة الإنسانية؛ بصورة المثل الأعلى - إلى «راسين»، الذى قلد الحقيقة، والطبيعة؛ كما هى فى الواقع - إلى «موليير»، الذى نقل أحوال الجماعات الممثلة، وأخلاقها؛ كما كانت فى عصره! كل هؤلاء خدعوا، وصوروا، ونقلوا، وقلدوا؛ وإن زاد التصوير، أو قل عن الحقيقة؛ - ولكنهم لم يدخلوا غريباً على الحقائق والمبادئ السائرة، ولم يخترعوا؛ فهم فنانون، وإن أعمالهم - بما فيها من تحليل للأخلاق، ومن تصوير لما يجب أن تكون، ولما هو كائن؛ - كان لها الأثر العظيم فى تطهير النفوس، والسموبها إلى مستوى أعلى!... فنظرية «دوماس» خطيرة؛ من حيث انها مذمومة لجمال الفن، هادمة لاستقلاله، وليس أدل على ذلك مما صار إليه فن «دوماس» نفسه؛ فمع أن أفكاره، ونظرياته

الاجتماعية ، والأخلاقية في حد ذاتها قيّمة ، وصفاته الشخصية - ككاتب مسرحي - معترف بها : - فإن إغراقه في أبحاثه ونظرياته ، جعلت منه مصبوغاً بصيغة صناعية واضحة ؛ فظهر عليه التكلف !... وإن أسلوبه الكتابي ، مع أنه حتى مؤثر ، فإنه يبدو أحياناً ضخماً أجوف ، تغلب عليه طريقة الخطابة !...

وهكذا نرى تدخل الأفكار المبتدعة ، المخالفة للحقائق في التمثيل ، مفسدة له ، مشوهة لبهائمه ، معرّقة لجماله !... وكما قال «سارسي» ، في نقده «لدوماس» : إنه يخشى أن يصير الفن إلى أداة لنشر الدعوة ، فتذهب بذلك معالم جماله ؛ لأن نظرية «دوماس» تدعو بطبيعتها إلى تسير العمل الفني ، وتكييفه بحسب مقتضيات الفكرة الإصلاحية ، لا بحسب الحقيقة والطبيعة . وبذلك يظهر العمل مشلول الحركة ، لا حياة فيه !... ويجب ألا نعتقد أن في إبعاد الفن عن ثورات الإصلاح تضييقاً في دائرته ، أو تقليلاً من فائدته !... يكنى لفساد هذا الاعتقاد ، أن نتصور ما يبلغ إليه الفن من فوضى ، إذا ما تحول المسرح إلى ميدان للجدل ، وأصبح من يشاهد التمثيل ؛ كمن يشهد مجتمعا عليا ؛ فنضيع علينا ، تلك الفوائد ، التي نجنيها من رؤية الحياة أمامنا ؛ كما هي على المسرح !... قال «دوماس» : إنه سيناقش على المسرح ، في رواية سيختر جها حديثاً ، نظرية وجود الله ، فقال معارضه «سارسي» : كم كنت أسروكم كان الجمهور يستفيد ، لو أن «دوماس» قال : سأصور على المسرح الماديين العصريين ، وسترون أي صورة محكمة التقليد سأظهرها من الواضح أن فائدة الجمهور أتم ، في معالجة مسألة من المسائل التي تخصه ، وتهمه ، ويتألم منها ، أو يشكو !... هنا ، المسرح إذا حُلل ، وحل تلك المسائل الموجودة بالفعل ؛ - كان قد أدى ما يجب عليه !...

ومع ذلك فكلما مرت الأيام يظهر «لدوماس» مناصر لرايه ؛ فها هو ذا اليوم «بريو» ، يحنج جنوح «دوماس» أحياناً ، وعندى أنه لا يمكن التنبؤ بمصير الفن ؛ فربما تحطم غداً تلك القيود التي نحافظ عايتها الآن ؛ كما حطم المذهب الرومانتيكي القيود الحديدية ، التي حافظ عليها المذهب الكلاسيكي زمناً طويلاً !...

من صفات الكاتب المسرحي

يعتقد الكثيرون أن فنا كالتصوير، يحتاج فيه إلى موهبة خاصة، أما فن التمثيل فلا يحتاج لمواهب، ويكفي القليل من الذكاء للقيام بأعماله...! هذا الاعتقاد باطل...! ونقص الكلام هنا على الكتابة المسرحية فنقول: إن الكاتب المسرحي شخص مستعد بطبيعته للمسرح، وإن ما يتطلب منه — ليكون كاتباً مسرحياً — موهبة غريزية، مستقلة عن المواهب التي تنتج فناً آخر، ونوعاً آخر من أنواع الأدب...!

ذكر «فيكتور يان ساردو» في خطبة له في «الأكاديمية الفرنسية» صفة: قال إنها لازمة للمؤلف المسرحي، هي: أن تكون لمؤلف المسرح حاسة مسرحية؛ بمعنى أنه لا يدع أمراً، أو شيئاً يقع عليه نظره، أو تسمعه أذنه: إلا وتفكره تلك الحاسة عنده في الشكل المسرحي...! وبعبارة أدق: ألا ينظر، ويسمع ما يدور حوله: بغير عين المسرح، وأذنه...! فإن رأى منظراً طبيعياً جميلاً، فلا يؤخذ بجماله من حيث الطبيعة — وإلا كان مصوراً — بل يعجب به بعين أخرى، ولغاية أخرى: فيقول: ما أجمله منظر آ في رواية...! وإن أنصت إلى محادثة شائقة، أو محادثة طريفة، قدرها بأذنه المسرحية، فقال: ما أصلحه حواراً...! وإن رأى فتاة ذات ميزة خاصة كالسداجة، أو المسكر، قال أيضاً بعين المسرح: ما أخرى مثلها بدور كذا...! وهكذا في كل شيء...! فإن قصصت عليه خبراً مثيراً: كجرime أو مصيبة، سبق إلى ذهنه التصور المسرحي، وبرقت أساريره بالإعجاب، وإذا هو يحدث نفسه: «موقف بديع...! مأساة رائعة...!»،

هذه الموهبة الخاصة ، والقدرة على تشكيل كل شيء بالقلب المسرحي ، هي قوة المؤلف المسرحي ! ...

ليس هذا فقط ؛ فكم من الحوادث يمر بنا ، وتشترك في الشعور به حواسنا ، ومن المواقف المسرحية ما نصادفه ونشاهده كل يوم ، ومع ذلك لا نفطن إليه ؛ لأنه من الحياة العادية ! ... ولكن قد ترى هذه الحوادث والمواقف عين أخرى ، تفطن لموضع الجمال منها ، فتستخرج منها ذلك العمل الفني الذي نصفق له ، ونعجب به ! ... ثم ألا يعرض لنا - في الحياة مرارا - أن يكتب لنا الطبيب تذكرة بها الدواء ، وجلنا بلا شك تأمل التذكرة ، وما كتب فيها بخط سريع لا يقرأ ، وساءل نفسه كثيرا : « بالله كيف يستطيع الصيدلي المسكين قراءة هذه الطلاسم ؟ » ... وقد يدور بخلد إمام خطب الصيدلي ، واحتمال إرساله « مسهلا » بدلا من « مقو » ! ... ألا يحدث هذا مؤقماً مسرحياً ، من النوع الهزلي ، ونحن لا نشعر ؟ ... وقد ترى ذلك عين رجل المسرح ، فلا تلبث أن تجد في رواية موقفاً كهذا ! ... شخص في وليمة يتناول مسهلاً على اعتبار أنه مقو أشار به الطبيب ، وإذا المسهل يفعل فعله ، وإذا الشخص المدعو أو الداعي في الوليمة قد فطن للأمر ، وإذا هو في مركز دقيق مضحك ! ... كل هذا قد تراه على المسرح ، فتدهش ، وتعجب ، وتقول في نفسك : « ما أعجب هذا الموقف ! ... ولو بحثت قليلاً لعلمت أن المؤلف إنما نقل جزءاً من الحياة نقلاً ، وأنها حواسه المسرحية هي التي نهته إلى ما يجب نقله ، أو محاكاته ، أو تصويره ! ... وإني لأرى الذهاب إلى أبعد من ذلك أحياناً ؛ إذ لا أجد ضرراً في التطرف ، فالكاتب كلما قويت فيه تلك الحواس المسرحية كان كاتباً بالطبع ، لا صانعاً ، ولا مرتزقاً ، وكان مثله مثل الشاعر بالفطرة ! ... والكاتب الذي من هذا النوع

- وهو عندى المثل الأعلى للكاتب المسرحى - تمتزج حواسه المسرحية بحواسه
الجمانية ، امتزاجا لا يستطيع معه استعمال أحدها منفصلة عن الأخرى - فهو فى
معاشرته لأهله ، وأصدقائه ، وفى جلوسه إلى خلانه وعارفيه ، وفى مصادقته لمن
لا يعرفه ؛ - إنما يستخدم حواسه لفنه أيضا ، فينظر إلى هؤلاء جميعا بنظرة نافذة ،
مستشفأها مستغلق أمرهم. وحقيقة أخلاقهم ، ونوع مزاجهم ، ولون ميولهم - قاصداً
بذلك تفهم الناس - من حيث هم ممثلون - فى ملعب غير محدودة متخذاً من
حواسه هذه وملاحظاته ، الأداة الكاشفة التى يعثر بها على أشخاص رواياته ! ...

الباب الثامن

الأدب والصحافة

يقول الصحفي :

لني أكتب ؛ ليقرأني أهل زماني !...

فيقول الأديب :

وأنا أكتب ؛ لتعاد قراءتي في كل زمان !....

غذاء الشعب العقلي

قال « بول فاليري » ، في حديث له حول القراءة والكتب : إن الإنسانية في جملتها لا تقرأ اليوم شيئاً غير الصحف ! ... ثم انتهى إلى هذا القول المستغرب صدوره منه : « يجب تعليم تلاميذ المدارس أن يطلعوا الصحف ! ... ولست أمزح ؛ ذلك أن الشعب - إذا كان هو الحاكم - فإن للحاكم أن يتسلم في كل صباح تقريراً عن حالة ملكه وحالة العالم ! ... هذا التقرير موجود في الصحف ! ... على أنه ينبغي تعلم كيف يستخرج ذلك منها . إن تحليل صحيفة من الصحف ، وغربلتها ؛ هما رياضة على أكبر جانب من الفائدة وربما على أعظم جانب من القيمة أيضاً ...

إن الغذاء العقلي للجنس البشري ، إنما يعد الآن إعداداً في مطابخ الصحف ؛ لأن الأغلبية الساحقة - ممن يعرفون القراءة - لا يملكون من الوقت لهذه القراءة أكثر من ساعة في اليوم ! ... وهذه الساعة - التي تحتل اختلاسا أثناء ركوب «المetro» ، أو القطار ، أو الأكل في مطعم - لا يمكن أن يشغلها غير الصحف ، ... !

هذه حقيقة لا يمكن أن تنكر - وهي حقيقة مخيفة ، يدهشني كيف أن مفكراً ، من طراز «فاليري» ، يبسطها بهذا الهدوء ! ... حقا ، لقد انتقلت مهمة تنقيف الشعوب - من أيدي الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، والخطباء - إلى أيدي الصحفيين ! ...

قديمًا كان الناس في البدو والحضر يتناولون أيضاً غذاءهم العقلي في كل حين ؛ لأن البشرية لم تنقطع يوماً عن طلب الطعام الذهني ، إلى جانب الطعام المادي ! ... ولكنها لم تكن تعرف صحافة يومية ، ولا أسبوعية ! ... كانت تعرف شعراء الحمى ، وخباء الهياكل ، وفلاسفة الأسواق ! ... وكان أولئك في جملتهم قومًا ممتازين :

أنبتهم العبقريّة، وأرضعهم النبوغ... كان الغذاء العقلي، من يدهو لاء، بديعاً في أغلب الأحيان مصني، بعيداً عن السخف والإسفاف؛ لأن الموهوبين لا يسفون وإن أرادوا...! هكذا كان المطبخ العقلي في الماضي، فهل لنا أن نتعامل بالمطبخ الحديث؟...

في رأيي - قبل التفاؤل أو التشاؤم - أن نقسّم أولاً: هل نوع الثقافة يتغير بتغير المجتمع؟... لا شك أن هنالك شيئاً يتغير، وأن هنالك شيئاً ثابتاً لا يتغير!... إن ألوان الطعام المادى قد تغيرت، وتنوعت، وتعددت على مرّ الأحقاب والأزمان؛ فاختفى العصيد والثريد، وظهر في المأكولات من مالح، وحلو، ومرطبات، ومثلجات؛... كل تنوع وتجديد!... ولكن الفاكهة بقيت هي الفاكهة في كل وقت ومكان، كذلك حياة المجتمع، تتجدد فيها المظاهر، وتتعدّد المشكلات، ويظهر الراديو، والسينما، وأحدث النظريات السياسية، والاقتصادية، ولكن شيئاً فيها يبقى بلا تغيير، هو الإحساس بالجمال الفكري والفني؛ فإن بيتاً من الشعر - هز بدوية في خيمتها منذ ألف عام - قد يهز حسناء اليوم في خدرها طرباً!... وأسطورة خيالية - شغف بها الأقدمون في مصر، أو الهند، أو اليونان - قد تثير أوربا الحديثة عجباً!... فاكهة الذهن والقلب تبقى دائماً نضرة!... مادامت شجرة الحياة الإنسانية باقية بأسقة!...

إذا تذكرنا ذلك، جاز لنا أن ننتظر من صحافة اليوم القيام بمهمة الثقيف العام، أو راعت هذه الاعتبارات، عند إعداد الغذاء العقلي للشعب.

الصحيفة المثالية، في نظري، مائدة يجب أن تكون حافلة بكل أنواع والفيتامينات، يتناول القارئ منها ما يزيج فراغه، وينمي اطلاعه، ويقوى عضلاته المفكرة!... أما من تقصر في واحدة من هؤلاء، فهي كالطعام الرديء، يعطيك شيئاً وينزعك أشياء!...

الأدب خادم للجماعة حافظ للقيم

عندما زار « مصر » الأديب الفرنسى « أندريه جيد » - وهو الذى منح جائزة « نوبل » للأدب - سألتنى صحيفة فرنسية أن أوجه إليه رسالة ، فكتبت أقول :
« نحن نرحب بأندريه جيد ، لا لأنه فقط أحد بلغاء المعبرين عن الضمير الإنسانى فى هذا الزمان ، ولا لأنه فقط رسول الثقافة الفرنسية التى نعرف لها قدرها ؛ - بل لأنه ، بعد ذلك ، يذكرنا « بالدور » الخطير ، الذى ينتظره العالم اليوم من رجال الفكر ! ... إن العالم اليوم ليضطرب فى لجة أفكار جديدة ، تماثل تلك الأفكار ، التى انبثقت مع الثورة الفرنسية ! ... إن مبادئ « حقوق الإنسان » تقابلها اليوم مبادئ « حقوق الجماعة » ! ... التعريف الحقيقى لعصرنا الحاضر هو : أنه عصر « الذرة » التى ظهرت قوتها ، وعصر « السكتل الآدمية » التى عرفت سلطاتها ! ... إن « الجماعات » لا تسمح الآن لمفكر أن يتجاهلها ، أو يقف على بعد منها ! ... إن أمواجه الهادرة الزاخرة تعلو إليه ، وتحتطفه ، وترغمه على أن يعيش معها ، أو يغرق فى تيارها ! ...

لقد أصبح « للعدد » شخصية ذاتية ، وإرادة خاصة ، وحقوق مفروزة ، تريد أن تثبت وجودها إلى جانب حقوق الفرد ، وشخصيته ، وإرادته ! ...
« فالعدد » وقد أحس وجوده يصيح فى « الفرد » : أنت لى ، فكر لى أنا ، ومتعنى ، وسلتى ، وكن فى خدمتى ! ... فإذا انعزلت ، وانتحيت ، وفكرت لنفسك ، ولأقلية من الخاصة ؛ - فحكمك عندنا حكم تلك الأرستقراطية المحاصرة فى هوجاء الثورة الفرنسية ! ...
أهو مبدأ الحرب بين « حقوق الإنسان » ، و « حقوق الجماعة » ؟ ... أهو مبدأ الحرب

بين « تفكير الفرد » و « تفكير العدد » ؟ ...

وهل يؤدي ذلك إلى حرب بين روح « الكيف » وروح « الكم » ، لم يسبق لعنفها مثيل من قبل في تاريخ البشر ؟ ...

ما موقف رجل الفسك المجرّد من هذه المشكلة ؟ ...

على أنني أخشى أن تكون هذه المسألة أعسر من أن يحلها فرد ، أو جماعة ! ... وقد يكون مفتاحها في يد الحياة نفسها ، أو القدر ... فنحن في مبدأ الحرب أو في صميمها بين قوتين ... ولم تنته هذه الحرب بعد ، لنعرف : من المنتصر ؟ ... ولكن ذلك لا يمنعنا من التنبؤ والاقتراض ! ...

لنا على كل حال أن نتساءل : لماذا نتصور الحرب ؟ ... وإذا كانت هنالك حرب حقاً ، فلماذا لا يقوم صلح بين الطرفين ؟ ... لماذا لا نشبه « المفكر الفرد » بصخرة في رأسها منارة ، قائمة في وسط البحر — بحر العدد والجماعات ! ... إنه ليس بمنأى عن ذلك البحر ! . وليس هو أيضاً بالغارق في لجته ، ولكنه مقيم في أحضانه ، تحيط به أمواجه ؛ ... تضغط على صخرته ، دون أن تصل إلى رأسه ، أن تعبت بصباحه ! ...

على هذا النحو تظل العلاقة موصولة بينه وبين الأمواج ؛ فهي تهدأ وتثور ، ولكنها تبقى راضية مطمئنة : ترى أشعة المنارة منعكسة على صفحاتها ، منتشرة على صدرها ... فتقبل النور بضمرة من الزهو ؛ فهذه المنارة العالية لا نضئ إلا لها ، ولا تنهض شاحخة إلا بين يديها ، ولا ترسل هذا الوهج إلا إليها ! ...

ولكن الويل إذا علمت الأمواج أن هذا النور مرسل ، فوق ذلك ، إلى غاية أخرى وهدف أبعد ... وأنه يقصد ، فيما يرمى إليه ، أن يضئ أيضاً طريق تلك السفن التي تسعى في المكان والزمان : حاملة خلاصة الكنوز العليا في حضارة

الإنسان...! هنا قد يغضب البحر، وتثور الأمواج. بدافع من الكبرياء؛ فهي في «أنانيتها» لا ترى هدفا غيرها؛ — بل هي — في مستواها وسوادها — لا تبصر سفنا ولا أفقا...! إنما ترى ذاتها وحدها، ولا تبصر، ولا تعرف غير ذراتها، ورغوتها. وزبدها...! ويحملها هواء الغرور على الهياج، فتهب هادرة مزججة تعصف بالصخر، وتمطاول إلى القمة، محاولة أن تضرب برذاذها المصباح...! وقد تعنف زوبعتها وتشند فتطيح بالمنارة من فوق الصخرة، وعندئذ تغمرها وتغرقها في جوفها منتصرة...! وقد تصمد المنارة راسخة فوق صخرتها، تتلقى لطمت الموج، وتمسح عن زجاج مصباحها الرذاذ، وتمضي في رسالتها صابرة مؤمنة، ترسل نورها إلى صدر الأمواج، وإلى الأفق البعيد...!

تلك صورة صغيرة للوقف، لا أرى في مقدورها أن تحل المشكل، أو أن تجيب عن السؤال، ولكنها فرض من تلك الفروض التي توضع موضع النظر...! أما الحل الحقيقي فلا مناص من أن نطلبه في أحداث العالم التي قد يتمخض عنها الغد... فنحن مقبلون غدا على ثورات في الشعوب، وانقلابات في المبادئ، وتطورات في الأفكار؛ — ليس من السهل التكهن بعواقبها، ولا الاجتهاد في استنباط نتائجها...!

فلتفعل الأحداث فعلها، ولتتغير الأشياء وتبديل طبقا لناموس الوجود، ولنخض غمار الحروب... ولنستغير مع الأشياء ونتطور؛ — فما نحن إلا بعض هذه الأشياء...!

كل ما نرجو ونأمل هو ألا يغرق «الفكر» يوما في ثورة الأمواج، فيخنق من الوجود، ويذهب نفعه للناس... يجب أن يبقى «الفكر» دائما، وأن يكون خادماً للجماعات في حاضرها، حافظاً للقيم العليا اللازمة لتطورها، الراعية لمستقبلها...!

الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي

إن مهمة الكاتب ليست في مجرد إقناع القارئ بل في التفكير معه . . . ما أرخص الأدب لو أنه كان وسيلة للهو . . . لا ، إن الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي . لا أريد من الكتاب أن يريح قارئه ويلهيه ، إنما أريد أن يطوى القارئ الكتاب فتبدأ متاعبه . . .

أريد من القارئ أن يكون مكلاً للكاتب ، ينهض لبحث معه ، ولا يكتفى بأن يتلقى ، ثم يتشاءب فكره وينام . . . إن مهمة الكاتب ليست في تخوير النفوس ، بل في تحريك الروءس . . . الكاتب مفتاح للزهن ، يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم . . .

إن مهمة الكاتب في نظري : هي تربية الرأي ، وكل كاتب لا يثير في الناس رأياً أو فكراً أو مغزى يدفعهم إلى التطور أو النهوض أو السمو على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقر فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحى إليهم إلا بالإحساس المبذل ، ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا في التسلية والملاذات السخيفة ، التي لا تكون فيهم شخصية ، ولا تثقف فيهم ذهنًا ، ولا تربى فيهم رأياً ؛ — هو كاتب يقضى على نمو الشعب ، وتطور المجتمع . . .

إن واجب الكاتب يحتم عليه أن يحدث أثراً سامياً الهدف في الناس ، وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل في الناس ، وهو أن يجعلهم يفكرون تفكيراً حراً ، أن يدفعهم إلى تكوين رأي مستقبل ، وحكم ذاتي . . .

الفن إذن أداة من أدوات خلق الذاتية ! ...

وهو لا يستطيع أن يؤدي هذه الرسالة إلا في مجتمع حر ! ...

لذلك لم يخطئ أولئك الذين قالو : « الفن هو الحرية » ! ...

والحرية هنا هي الذاتية ! .

يجب ألا يقوم في المجتمع حائل، يحول دون تحقيق هذه الذاتية الواعية ! ...

ومادام عمل الفنان لا يقتصر على إمتناع الحس، وراحة الخاطر، وتخدير الشعور؛

بل يرمى إلى إيقاظ التفكير، وتأكيد الذاتية، وتدعيم الشخصية؛ — فإننا لذلك

نرى الفن لا يزدهر عادة إلا في مجتمع، بزغت فيه عوامل الإحساس بحرية الرأي،

ونرى الفن لا يموت عادة إلا في مجتمع، خنقت فيه حرية التعبير عن الرأي؛

لأن الفنان يجد عمله معطلا عندئذ من ناحيتين : من ناحيته — هو الذي لا

يستطيع أن ينشئ فنا يوحى بتفكير حر، ومن ناحية الناس — الذين وقفت عقولهم

في هذا الجو الخائق عن النمو ! ...

فالجو الخائق إذن يصيب بالعطب والعطل، في الوقت عينه، أداة الإرسال،

وأداة التلقي ! ...

وبهذا يتم الشلل الفكري في الأمة، وتكف شخصيتها عن النمو والنضج،

وتظل — بلا حراك — في طور بدائي من الرقي البشري ! ...

من أجل ذلك أرى أنبل جهاد للكاتب هو في سبيل المحافظة على أداة الفكر

والرأي؛ لأن هذه الأداة هي في الكيان والمعنوى بمثابة القلب : مضخة يجب أن

تعمل حرة على الدوام؛ لتكمل النمو والنضج والرقي للنوع الإنساني ! ...

تربية الرأى العام

من نتائج الحضارة الحديثة ، وآثار التعليم الشامل الموحد ، ظهور ما يسمونه « الرأى العام » ... أى شعور الجماعة نحو موقف من المواقف ، وقرارها إزاء مسألة من المسائل ... وهذا الشعور وهذا القرار ينبعان فجأة وفى الوقت عينه ؛ كأنهما خارجان من قلب واحد وعقل واحد ... لكأن هذا الرأى العام إذن كائن مستقل ؛ يخلق ، ويحبو ، وينمو - إلى أن يصبح قوة ناضجة ، محرك ، موجهة ، تؤثر فى الدولة والمجتمع ، ويحسب لها الحكام والمحكومون ألف حساب ! ...

كيف يوجد هذا الرأى العام ؟ ...

إنه يوجد كلما وجدت التربة الصالحة لظهوره ، وهذه التربة الصالحة هى الأمة الموحدة فى جنسها ، وعقائدها ، وتقاليدها ، وآمالها ، وأهدافها ! ...

وكيف يربى هذا الرأى العام ؟ ...

إنه يربى ، كما يربى كل صغير ، بالتعليم الشامل الواحد ، الذى يكون العقلية الواحدة الشاملة ... بهذا النوع من التعليم يشب « الرأى العام » على تفكير واحد ، يمكنه من أن يبت فى مسأله برأى واحد سريع قاطع ! ...

لقد كثرت التساؤل عن « الرأى العام » فى بلادنا ... وهل له وجود حقيقى ؟ ... فى رأي أن بلادنا من أصلح البلاد تربة ؛ لوجود رأى عام ناضج قوى ، ولكن الذى يعوزنا هو الاهتمام بتربية هذا المولود ... التربية التى تؤهله لأن يصبح كائنا مستقلا ، واقفا على قدميه ، يفكر بعقل واحد ، ويؤثر فى الدولة والمجتمع تأثيرا ظاهرا فعلا ...

التربة صالحة ، ولكن التربة مهملة ! ...

فكل شيء في مصر، يجعل من هذا المولود مخلوقاً مشوهاً، مضطرباً، مببليل الفكر، مشئت الرأي؛ لأن كل شيء في بلادنا له نسخ متعددة، وأثواب مختلفة ! ... لدينا تعاليم أجنبية، وحكومي، وأزهري، ودرعبي، وجامعي، وخارجي ... إلخ ! ... لدينا قضاء شرعي، ووطني ! ... لدينا أحياء أوربية، وأحياء وطنية، وأحياء مختلطة ! ... لدينا مطاربشون، ومعممون، و«مقبعون»، و«ملبدون»، وحفاة، ومحتدون، و«مقبقون»، ولا بسو الزى الإفرنجي، والزي البلدي، والزي المختلط ... أي طربوش ومعطف وجلباب ... أو «طاقية»، و«بيجامة»، و«قباب» ! ... إلخ ... كل هذا الخلط في الأوضاع والتعليم والتربية والإطار الذي يعيش داخله الناس في بلادنا — جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة، كل عقلية تفكر تفكيراً خاصاً، وترى الدنيا من زاوية منفردة ! ... وكان من أثر ذلك أن حبس كل فرد داخل حلقة منفصلة، من وضعه الذي نشأ عليه ! ... يحسب الدنيا دنياه، ورأيه هو وحده الذي على حق، لا يفهم جاره، ولا يشعر بشعور مواطن آخر، وبتفكك عقلية الأمة الواحدة، أو عقلية الرأي العام الموحد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة؛ — يتم تفكك الشخصية لأمة من الأمم ! ... وإذا تفككت شخصية أمة فعنى ذلك انحلالها وموتها ! ...

لذلك كان من أزم الأمور لنا المبادرة إلى الاهتمام بتربية «الرأي العام» ... تربية قوامها توحيد ثقافته الأولى، وتوحيد محيطه ونظراته إلى الأشياء ! ... إذا عينا بهذه التربية الموحدة العناية الصادقة، خفرتنا بعد قليل بأمة قوية الشخصية، وبرأي عام موحد الثقافة، متحد في العقلية ! ...

الذوق العام

روت إحدى الفرنسيات البارزات : أنها قابلت يوما أميرا من أمراء «أوروبا» ، فابتدروها يقول :

إنني شديد الإعجاب « بفرنسا » ...! حقا لقد أنجبت عباقرة خالدين ...! واعتقدت السيدة أنه يعنى أمثال «جان جاك روسو» ، أو « فولتير » ، أو حتى « إميل زولا » ...! ولكن ذلك الأمير مضى قائلا :

نعم ...! نعم ...! يكفي أن يكون فيها ذلك العبقرى «جورج أوهنيه» ...! فكادت السيدة المهذبة تصعق : ذلك أن «جورج أوهنيه» هذا ، ليس أكثر من كاتب يسلى الجماهير ، ولا يعلو كثيرا عن كتاب روايات الجيب ، أو مؤلفى القصص الشعبية والبوليسية ، ولا محل له فى سجل الفكر العالى ، ولا مكان له فى صفحات الأدب الرفيع هذا مثل من أمثلة «الذوق العام» ...! لا يشترط فيه أن يكون لأمر أو حقير ، ولا أن يوجد فى أمة دون أمة ؛ لأن مرجع «الذوق» إلى المدارك ، والإدراك ينمو أو يتضاءل ، ويسمو أو ينحط ؛ تبعاً لطبيعة الشخص ، وطريقة تهذيبه ، ومستوى تثقيفه ...! من اليسير أن نجد «الشعور العام» الموحد ، ولكن من العسير أن نعثر على «الذوق العام» الموحد ...!

... لأن الشعور العام يصدر عن الضمير ، والضمير قلبا يختلف بين إنسان وإنسان ، أما الذوق فيصدر عن المدارك ، وهى تختلف بين طبيعة وطبيعة ، وبين ثقافة وثقافة ...! خذ شريرا ، واللق به فى خضم «الشعور العام» فإنك لن تجد وجهاً يشذ فيه شئ له ...! واعرض طبيبا فلن تجد من يشيح عنه ؛ لأن الخير والشر كالماء والنار ، تميز بينهما كل فطرة ، دون حاجة إلى معرفة أو مراعاة ...!

وخدمفكرا، أو كاتبا، أو موسيقيا، أو مصورا، أو حتى سياسيا واقتذف به في بحر الجماهير والجموع، وانظر العجب الذي يكون! ... هنا تختلف القيم، وتضطرب المقاييس، ويبلغ البحر الكنوز، وتلمع فوق سطحه الفقاقيع، وتختفي الآلى في صدره وتغوص، ويرق على شاطئه فارغ الأصداف؛ لأن التمييز بين الجوهر والزبد، والتفريق بين الصدقة واللؤلؤة؛ - أمر لا يستطيعه في كل الأحيان الضمير الطيب، أو الفطرة السليمة؛ لأن الزيف لا يظهر في الناس صائحا: «أنا زيف! ...»؛ - بل إنه يظهر قائلا: «أنا الصدق، وغيرى الكذب، ...»

ما من دجال في الفكر، أو الفن، أو العلم، أو السياسة؛ - إلا برز للناس في ثياب لامعة، براقه، رائعة جليلة! ... وهو يملأ شذقيه بكلام خلاب، يوحى إلى الجمهور الساذج أنه هو الذي يقدم إليه أروع ثمرات العقل والقلب، وأجل نتائج الجهد والجهاد! ... كيف يستطيع الجمهور المسكين؛ بإدراكه القليل، ووسائله المحدودة، وثقيفه الضئيل؛ - أن يمد يده إلى الآثواب، وينترع القشر المطلق عن اللباب، ويضع إصبعه على الحقيقة العارية المختفية من الخجل، أو الغيظ، أو الحياء؟ ... كم من الخبرة والقدرة يحتاج الإنسان؛ ليفرق بين حقيقة فنان وفنان، وعالم وعالم، وكاتب وكاتب، وسياسي وسياسي؟ ...

تلك مهمة لا تتسنى لغير جمهور من الخاصة، أهله طبيعته وعدته، ومكنته هبته وثقافته؛ - ليتولى هذا الفرز والتمييز والحكم، ويكون في يده هوزمام الذوق الصحيح، ويناط به هو المحافظة على القيم الحقيقية والمقاييس الباقية! ... ما دام الأمر كذلك فلن يكون هناك «ذوق عام»، كما اعتدنا أن يكون في المجتمع «رأى عام»! ...

وكل ما يمكن أن يوجد في هذا المجال هو «ذوق عام»، لا يفرز ولا يميز بل يأخذ الأشياء دون تمحيض، واضعا الزجاجة في مستوى الماس، والنفيس إلى جانب الرخيص.

الباب التاسع

الأدب والسينما والاذاعة

السينما الحق هو ذلك الذى يجعلك
تدرك أعماق ما يمكن من اللمحة التى
تخطف بصرك فوق « الشاشة » ! ...
والإذاعة الحق هو ذلك الذى يجعلك
تعى أعماق ما يمكن من الأصوات التى تسمعها
من خلال « الميكروفون » ! ...
والأدب الحق هو الذى يجعلك تدرك
عمقا جديدا، كما أعدت قراءة « الكتاب » ! ...

الأدب والسينما

إذا ذكر « الأدب » تبادر إلى الذهن « الكتاب »... والحق أن الكتاب هو في أغلب الأحيان الوعاء الطبيعي ، الذي يحفظ فيه الأدب... وإن كان العكس غير صحيح ، فليس كل ما يوضع في كتاب ، يمكن أن يعتبر أدباً... ولما كان الكتاب أداة هينة بسيطة متينة ، تستطيع أن تلازم الإنسان في كل زمان ومكان ، — فقد أتاح للأدب الذي يحويه أن يتخذ ما يحول له من دقيق المعاني ، وبعيد المرامي ، ورفيع التعبير ، وعملية التفكير ؛ — اعتماداً منه على أن القارئ في مقدوره دائماً أن يتمهل ، ويتأمل ، ويطالع ما بين السطور ، ويعيد القراءة ، ويعاود التفهم والبحث كلما شاء... طبيعة الكتابة الثابتة ، يسرت إذن للأدب ، إثبات ما في أغوار النفس والذهن ، وإيصاله في أي وقت إلى القارئ مباشرة عن طريق ملكاته العاقلة... لو أردنا أن نضع الأدب في إناء آخر ، ذي طبيعة متحركة ، فماذا يحدث ؟... أول إناء متحرك وضع فيه الأدب من قديم هو : الفم ، فتتج ذلك النوع الذي نسميه « الخطابة » ؛ — أدب في وعاء متحرك... أدب يلفظه الفم ، فتلقاه الأذن ، وهذا الفم يتدفق تدفقاً ، دون أن يقف ، أو يعيد ما لفظ ؛ تبعاً لمشيئة سامع... فلم تلتقفه الأذن ، ويفهمه الذهن ، فقد ضاع على سامعه هباء... لذلك كان على الخطابة أن تتجنب في كلامها — كل ما يحتاج إلى وقت في التفكير ، أو جهد في الاستيعاب... هذا التجنب للفكر ، والتأمل ، والجهد ، والبحث ؛ — يحتم عليها الانصراف عن مخاطبة الرأس ، والاندفاع إلى مخاطبة الشعور... فالخطيب الجيد يجب أن يتخير نوع الكلام الذي يشعر أنه يؤثر في عاطفة سامعه... والخطيب الجيد قد

يكون كاتباً رديئاً... كما أن الكاتب الجيد قد يكون خطيباً رديئاً؛ فكلام الخطيب المفوه يسرك إذا سمعته، ولا يذكرك - إذا قرأته متأملاً - فقد تجده سطحياً أجوف؛ كصوت الطبل الفخم الفارغ!... ذكر لى المرحوم « خليل مطران » حادثة في هذا الصدد، قال: « كنت مدعوّاً لإلقاء قصيدة في حفل بأحد مسارح « القاهرة »، وكان معي « حافظ إبراهيم »، وقد أعد هو الآخر قصيدة لتلقى؛ كإدفع « شوقي » بقصيدة له هو أيضاً لتلقى في الحفل، فألقيت قصيدة « شوقي » على الجمهور المحتشد في المسرح، فقوبلت بالاستحسان المصطنع!... ثم نهض « حافظ » وألقى قصيدته، فصفق له الناس مجاملين!... ثم نهضت، وألقيت قصيدتي، فصفق لى الناس فاترين!... وإذا شاب ينهض ملقياً قصيدة، ذات عبارات حماسية، وجمل طنانة؛ بصوت مجلجل، ونبرات مؤثرة، وإذا المسرح يهتز اهتزازاً بتصفيق الناس، والهمتاف يتصاعد كالرعد من الحناجر!... فقال « حافظ إبراهيم » على أذني: يئسني امتعاضه وسخطه، فهمست له قائلاً: انتظر إلى الغد حين تنشر القصائد في الصحف!... وكان!... ونشرت في الغد القصائد!... وقرأ الناس على مهل تلك المعاني الرائعة، والصور البارعة، والأفكار العالية، والبلاغة السامية في شعر « شوقي » و « حافظ »!...

هذا ما رواه « خليل مطران »!... وهناك قول مثل هذا رواه الناقد المسرحي « سارسي »؛ فقد كان يردد دائماً قوله: « إن الشعر الجيد يقتل أحياناً الرواية المسرحية »!... فالشعر الجيد يقتضي عمقاً وثراء في الفكرة والصورة والصياغة... وكل هذا يفلت إفلتاً من أذن السامع... أو يلقي برداً وفثوراً على حركة الحوادث المسرحية!... والعكس أحياناً صحيح؛ فالشعر الرديء قد يخدم الرواية المسرحية!... فالشعر الرديء، هو ذلك الكلام المنتفخ بالأقوال المأثورة، التي يعرفها الجمهور سلفاً، فتمس ذاكرته، وتهيج أشجانته، فتنتلق أكفه بالتصفيق؛ دون أن يعنى! أو يفكر!...

من هذا يتضح أن الوعاء المتحرك ، لا بد له من مادة سريعة الاستيعاب ... وإذا كانت خطب الخطباء يمكن أن تحفظ - بعدئذ في الوعاء الثابت - بوضعها في كتاب ، وكذلك المسرحيات ، يمكن أن تحسب في الأدب الثابت بوضعها في كتاب . فمن ألوان الفن ، ما لا يمكن أن يقدم إلى الناس إلا في وعاء واحد - هو الوعاء المتحرك - من ذلك فن الصور المتحركة : « السينما » ... فهي فن السرعة التي تخطف البصر ... وهي من أجل ذلك يجب أن تتجرد من كل ما يدعو إلى التمثل ... فأنت في « السينما » لا تستطيع أن تتمهل : لتفهم أولتذوق أولتعجب ، أو حتى لتصفق : دون أن تنوءك عجالات الشريط ، التي تدور بسرعة البرق ... ولا تستطيع انتظار من يريد أن يأمل ، أو يتفكر ... هذا الفن السريع يقوم على لغة أخرى ، غير لغة الأدب المكتوب ... قال لي مخرج أجنبي ذات يوم : « إذا أردت أن تعبر عن معنى من المعاني ؛ فإنه تكفيك عبارة لغوية قوامها الكلمات ... أما أنا فأحتاج إلى عبارة سينمائية ، قوامها المرئيات ... » ، والحق أن فنان « السينما » عليه - قبل كل شيء - أن يترجم كل فكرة إلى حركة منظورة ... في حين أن الأديب يترجم الحركة المنظورة إلى فكرة ... فواقع الحياة ، وأحداث المجتمع ، وحوادث الأفراد ؛ تمر أمام الأديب ، فيلاحظ دقائقها ، ويحاول تصويرها . ونقلها إلى الورق ! .. وهي ذاتها تمر أمام رجل « السينما » ، فيلاحظها هو الآخر في دقائقها ، ويحاول تصويرها ، ونقلها إلى « الشاشة » ؛ غير أن هنالك فرقاً كبيراً بين عمل الرجلين : فالسينمائي ينقل أمام مشاهدة صورة بالفعل ... ولكن الأديب لا ينقل إلى قارئه صورة ، بل ينقل معنى ! ... هذا المعنى هو الذي يثير في رأس القارئ صورة ... فالأديب إذن لا يستطيع أن ينقل الصور إلا عن طريق المعاني على حين أن السينمائي يستطيع أن ينقل الصور ، صوراً عن طريق مباشر ... فالعاني إذن أداة الأديب ... كما أن الصور المرئية هي أداة السينمائي ... ولما كانت

المعاني أوسع نطاقاً، وأعمق عالماً من الصور المرئية؛ لأنها تشمل ما يرى بالعين، وما لا يمكن أن يرى؛ كما تشمل كل ما يمكن أن يقع في مرتفعات العقل المتأمل، وفي أغوار النفس المعقدة، وفي أبعاد الذاكرة المظلمة؛ — وكل ما يسبح في محيط الفلسفة، والتصوف، والتفكير، والتجرد...! . فلذلك وقفت السينما أمام واجهة الأدب المنظورة البراقة، دون أن تجرؤ على ولوج بابه، والتوغل في دهاليزه وسراديبه...!

هذا ما يلاحظه دائماً أولئك الذين يقرءون قصص الأدباء العظام في الكتب، ثم يشاهدونها بعد ذلك مصورة على «الشاشة» في السينما... ما أقسى النقد الذي وجه إلى قصة «أنا كارينينا» لـ «تولستوى» في السينما!... وإلى قصة «إخوان كارامازوف» لـ «دستوفسكي»...! وإلى قصة «مدام بوفاري» لـ «فلوبيير»... بل إلى قصة «ذهب مع الريح» أيضاً، على فرط ما بذل في إخراجها من جهد، وعلى قلة ما فيها من معان أدبية عميقة...! أكثر من قرأ هذه القصص في الكتب، خرج بعد مشاهدتها في السينما، يوازن بين الأثر الذي أحدثه الكتاب في نفسه، والأثر الذي أحدثته «الشاشة»؛ — فيرجح أثر الكتاب، موقناً أن شيئاً ما قد أفلت من قبضة السينما.. هذا الشيء الذي أفلت هو الجانب غير المنظور، الذي يستطيع القلم أن ينقل معانيه إلى روح القارئ، ولا تستطيع «الكاميرا» أن تبرزه في صورة تتحرك أمام نظر المشاهد...! وليس هذا عيباً للسينما إنما تلك طبيعتها؛ وتلك حدود قدرتها بالنسبة إلى الأدب؛ فعالم الكتاب أضخم، وأعمق، وأغنى من عالم «الشاشة»؛ — لأن القلم يصل إلى أبعاد في الفكر والنفس، لا تصل إليها «الكاميرا»...!

كثير من الأدباء لا يريد أن يفهم ذلك، عندما ينقل أثراً من آثاره إلى السينما؛ فهو يتطلب من السينما التعبير الكامل عن تفكيره وأسلوبه...! إنى لم أزل أذكر تلك القضية التي رفعها الكاتب المسرحي «هنري برنستين»، ضد إحدى الشركات السينمائية؛ لأنهارأت

وهي تنقل إحدى تمثيلياته إلى «الشاشة» - أن تنفذ حوارها المسرحي الرائع الذي اشتهر به ، وأن تلجأ إلى أحد صناع الحوار السينمائي ليقوم بالمهمة ؛ - فأداها بالطبع على نحو سخر منه الكاتب المشهور وثار له ، ولكن الشركة قالت : إن روعة الحوار الأدبي لن يتذوقها جمهور السينما الكبير ، ولن تكون إلا عقبة في سبيل تتبعه لحوادث الشريطا... وجمهور السينما - الواسع المنتشر في أسواقها الكثيرة في أنحاء العالم - عقلية واحدة ، على اختلاف أجناسه ! ... هذه العقلية يدرسها رجال السينما أدق دراسة ، وهم يبنون مشروعاتهم الفنية على أساس هذه العقلية ؛ فهم ينتجون قصصهم السينمائية استنادا إلى مستوى معين من الإدراك العام ، يوقنون أنه في مقدور مختلف الجماهير في مختلف البلدان ! ... ذلك أن السينما ليست حتى الآن مجرد فن ؛ - بل هي إلى جانب ذلك صناعة ! ... والفرق بين الصناعة والفن : أن الفن في جوهره تعبير حر عما في نفس الفنان . دون نظر إلى أي اعتبار - في حين أن الصناعة هي تعبير عن حاجة السوق وحالة المستهلك ! ... وهذا ما جعلني أو جس منها خيفة ، وأتردد في الاقتراب منها كثيرا ! ... ولقد أصغيت أخيرا إلى أحد المخرجين ، وتركته يعرض على - سرا فيما بيننا - مشروعه لقصة أراد أن ينقلها عن كتاب لي ، فها لي أنه أخذ المظهر والحوادث ، وترك اللب ، فلما ناقشته في ذلك قال : الجمهور في السينما لن يفهم غير هذا الجانب الظاهر الواضح ! ... والمهم لدينا هو أن نجعل الجمهور يفهم ما يعرض ! ... من الحق أن نذكر لبعض المخرجين محاولات أملت المقاصد الفنية الرفيعة ، تناولوا فيها بعض آثار «سكشبير» ، وأظهروها على «الشاشة» ؛ متوخين المحافظة بقدر المستطاع على روح الشاعر ، وتفكيره ، وأسلوبه ! ... من ذلك قصة «حلم ليلة صيف» التي أخرجها للسينما «ماكس رانيهات» الألماني في «هوليود» ، قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات ! ... ومن ذلك أيضا «هملت» التي أخرجها أخيرا في إنجلترا الممثل

الإنجليزي «أورنس أوليفيه»... على أن هذا الحرص الشديد من هذين المخرجين على أسلوب الشاعر وفكره أرغمهما - عن وعي أو غير وعي - على الابتعاد عن طبيعة السينما ، والانزلاق إلى طريقة المسرح ، فجاء عملهما أقرب إلى التصوير الفوتوغرافي للمسرحيتين ، منه إلى الوضع السينمائي بمعناه الحقيقي...! فمخرج «هملت» مثلاً - لفرط إعجابه بشعر «شكسبير» - تركه كما كان في المسرحية ، يؤدي مهمة المعبر الأول عن كل مراميها ، واكتفى بتصوير الممثلين وهم يلقونه إلقاء... في حين أن طبيعة السينما كانت تقضى بتحويل هذا التعبير الكلامي ، إلى تعبير بالحوادث المرئية ، وأن ينقل «الكاميرا» في الزمان ، والمكان ، والماضي ، والحاضر ؛ - لا أن يثبتها داخل قلعة «إلسينور» طول الشريط ، كما كان الحال في المسرحية...! للسينما أسلوبها الخاص ؛ كما أن للمسرح أسلوبه الخاص... ومن الإنصاف أن أقول : إن في مقدور السينما أحياناً - عندما تعثر على السينمائي الفنان الحقيقي - أن تصل إلى الشعر بوسائلها الخاصة ؛ فمن أساذير «والت ديزني» الطويلة ما يكاد يكون من الشعر ، ثم من ذا الذي شاهد رواية «الساحر أوز» ولم يهتز لما توحى به من شعر...!؟ شعر ساذج بسيط ، يخرج من الصور والألوان ، لا من المعاني والكلمات ، ولكنه يملأ النفس براءة ، وراحة ، وصفاء...! فالأدب - إذن بشعره - يستطيع أن يكون هور وروح السينما ، وأن ينبجج بها وتسمو به ، على شرط أن تحتفظ هي بطبيعة كيائها الخاطف المتحرك...! كذلك يستطيع الأدب ، بفكره أحياناً ، أن يحل في رأس السينما ؛ فيرفع بمعناها ومرماها - على شرط أن تبسط ذلك الفكر ، وتحلله إلى عناصر سهلة ميسرة ، في أشعة بصرية سمعية ، تسرى في نفوس الناس ، دون أن تقف طويلاً بعقولهم ، أو تستوجب جهداً في الالتفات ، أو بحثاً عند التلق...! إن السينمائي الموهوب ، هو ذلك الذي يجعلك تدرك أعظم ما يمكن من اللوحة ، التي تخطف بصرك فوق «الشاشة» على حين أن الأديب الموهوب ، هو ذلك الذي يجعلك تدرك عمقاً جديداً كلما أعدت قراءة الكتاب...!

الأدب والإذاعة

الإذاعة - هي الأخرى - كالسينما ، وعاء متحرك للفن والأدب وإذا كانت العين هي عماد السينما ، فالأذن هي عماد الإذاعة وهنا نقطة الاختلاف بينهما ؛ فرجل السينما يتخذ من البصريات لغته التي يعبر بها عن مراميه ، ويؤثر بها في مشاهديه ، ولكن رجل الإذاعة يتخذ من الصوتيات لغته ، التي يسيطر بها على سامعيه هذا الاختلاف في الأسلوب لا يحول دون الاتفاق في الطبيعة ؛ فكلاهما يدرك صفته المتحركة ، وما تقتضيه من تبسيط ، يغنى العقل عن المراجعة فالإذاعة تدرك أنها صيحة عابرة ، لا تقف حتى يسمعها من ذهل ، أو يفهمها من جهل كما تدرك مع السينما جانب الصناعة فيها ، وما تستوجب من مراعاة المستوى الشائع لجمهور المستمعين هذا الجانب الصناعي - في الإذاعة ، والسينما ، والصحافة - له أثره ، واعتباره في نوع الإنتاج ، وأهدافه فتلك أدوات لا تقوم إلا على نظام المؤسسات أى على نظام جماعى يعامل جماعات ففى كلها إذن لا تستطيع أن ترضى جماعة دون جماعة ، أو توافق ذوقا دون ذوق وهى دائماً تضع فى حسابها حل هذه المشكلة : إرضاء ذوق الأغلبية الغالبة

نظام المؤسسة هذا لا نجده فى أدب الكتاب ، ولا فى حساب الأديب فالأديب الحق يضع تفكيره وأسلوبه فى صدر كتابه ، ويترك بعدئذ كتابه يمشى فى الزمان والمكان ؛ حاملا الضوء لمن يريد هداية هدف الأديب تبليغ الناس رسالته ، وهدف المؤسسات اجتذاب الجماهير ، وهى لذلك قلما تفرض رأيا بعينه ، أو تبليغ رسالته بعينها ؛ - خشية ألا تعجب العدد الذى لا تعنيه

تلك الرسالة ، ولا يهمه ذلك الرأى ! .. ولكنها فى بعض الأحيان - عندما يكون عليها واجب لخدمة العامة ؛ كالإذاعة الرسمية فى دولة من الدول - تحاول تخصيص قدر من برنامجها لأصحاب الثقافة الرفيعة من المستمعين ، وهذا ما تسميه إذاعة - كالإذاعة البريطانية فى « لندن » - بالبرنامج الثالث ! ... ولعل الإذاعة أقدر من السينما على تبليغ رسالة الفن الرفيع بانتظام ، على قدر ما تسمح لها به طبيعتها المتحركة ! ... فى إمكانها تخصيص محطة أو برنامج لهذا الغرض ، دون أن يؤثر ذلك فى مجرى الإذاعة العامة للناس كافة ! ...

هنالك سؤال بعد ذلك يجب أن يطرح : هل الإذاعة فن ؟ .. هذا السؤال قد طرح بالنسبة إلى السينما ، فكان الجواب فى أغلب الأحيان بالإيجاب ! ... والامر فى السينما واضح ؛ فالقصة السينمائية أثر له وحدته وطابعه ، شأن القصة المسرحية - ولكن الإذاعة ببرنامجها اليومي « جراب » طويل ، يحوى اشتاتا مختلفة لا وحدة بينها ولا طابع : من أخبار ، إلى أغان ، إلى تمثيلات ، إلى أحاديث ؛ - إلى أركان للمرأة ، والطفل ، والزارع ، والعامل ، ... الخ

فالإذاعة - فى حقيقة الامر - ليست سوى صحافة مسموعة ! ... فهل الصحافة فن بالمعنى الذى يطلق على الفنون الجميلة المعروفة ؟ ... إن الفن يقتضى وجود فنان - أى خالق لا ترفق ! ... فمن الفنان بهذا المعنى فى الصحافة السيارة ؟ ... أهو رئيس التحرير ؟ ... أم سكرتير التحرير ؟ ... ما من شك فى أن الصحافة فن يحتاج إلى استعداد وموهبة ودراسة وتجربة ... ولكنها فن مخزن ، لا يجوز أن يدرج بين الفنون الجميلة المعروفة فالصحافة كالمصنع ... ولعل أقرب الأشياء فى وصفها أنها : فن صناعى ؛ فالشبه قريب بين مدير التحرير ، ومدير المصنع ! ... وكلاهما يعمل ، وبقربه ضجيج آلات ! ... الإذاعة أيضا - هذه الصحافة المسموعة - لا ريب فى أنها فن ، ولكنها فن صناعى أيضا ، وهى الأخرى تعيش فى جو الآلات ! ...

على أننا لو نظرنا إلى التفصيلات، وجدنا في الإذاعة ما يمكن أن يوصف بالفن، ومن يمكن أن يسمى بالفنان... ذلك هو المخرج الإذاعي في البرنامج التمثيلي... من ذا ينكر على هذا العمل صفة الوحدة والطابع؟... إن من تمثيلات الإذاعة ما يكاد يصل: بأسلوب تقطيعه وانتقاله، ومؤثراته الصوتية، وأغانيه، وموسيقاه وبراته التعبيرية؛ — إلى طاقة فنية تثير الإعجاب...!

هذا الفن الإذاعي يدخل كثير من عناصره وأسراره في نطاق السينما الناطقة، كما أن الكثير من عناصر فن السينما يقترن بالإذاعة في فن جديد هو «التلفزيون»... هذا الفن الثالث الذي يلخص ما عند الاثنين... أترأه يقضى عليهما؟...

ما من أحد يدري!... أغلب ظني أنه سيؤكد وجودهما، ويمد في عمرهما؛ لأنه سيتخذ منها مادته وغذاه، فكما أن الإذاعة استمدت من المسرح غذاء لها، سيستمد «التلفزيون» من السينما والمسرح غذاء له... وقد تموت الإذاعة بوضعها الحاضر، وتندمج في «التلفزيون»، كماتت السينما الصامتة، واندججت في السينما الناطقة؛ فلا يبقى على قيد الحياة أخيراً، غير الأنواع التي لا يكرر بعضها البعض!... وما من جدال في أن السينما لا تكرر المسرح؛ لذلك سيعيش المسرح!... لكن، ألا يكرر التلفزيون السينما؟... أتكون هناك حاجة إلى السينما بعد شيوع التلفزيون؟... إذا أصبح التلفزيون صحافة مسموعة مرئية، فلا بد أن تبقى السينما مقصورة على الرواية الطويلة الفنية — دون الجريدة المصورة، والأخبار السينمائية...!

ومع ذلك؛ لماذا تموت السينما بوضعها الحالي؟... ألأن الناس سيقبعون في المنازل، يشاهدون، ويسمعون من خلال «التلفزيون» كل ما كانوا يذهبون من أجله إلى قاعات السينما؟...!

العكس هو المحتمل الحدوث!... لقد دلت التجربة على أن الناس يضيقون

بمشاهدة الفنون محبوسين في حجرات البيوت ، وأنه لا غنى لهم أبداً عن ارتياد
المحافل العامة ؛ ليرى بعضهم بعضاً ، ولينعموا بالتمثيل ، والغناء ، والموسيقى في الجو
الحار ، المصطخب بروح الجماعة ... هذا الروح القديم المتأصل في نفوس البشر ،
منذ كانوا يحضرون حفلات الدين ، والفن جماعات ! ...

فالحفلات العامة ستبقى إذن دائماً ؛ سواء في السينما ، أو التمثيل ، أو الغناء ، أو
الموسيقى ، أو حتى المحاضرات ، والمناظرات ، وغيرهما من أنواع الاجتماعات ! ...
وستعيش أكثر قوة ، وأشد تألقاً مما كانت ؛ لأنها ستكون هي المادة الأساسية التي
يستغلها ، ويتغذى بها ، ويعيش عليها ، التلفزيون ، ... !

نجوم العين والأذن

من المسئول عن الأثر الفني في وحدته، وأسلوبه، وطابعه؟... في الأدب المكتوب لا جدال في أن المسئول عن شخصية العمل الأدبي، وطابعه هو الأديب، مؤلف الكتاب!... ولكن الأمر يحتاج إلى نظر في القصة السينمائية، أو التمثيلية الإذاعية!.. فعلى الرغم من قوة الموضوع. وقدرة الممثل؛ - فإن من العسير أن نحكم بأن واحداً منها بعينه هو المسئول الأول عن الوحدة النهائية، والطابع الشامل للعمل كله... أرجح الرأي أن المسئول الأول - عن ذلك في السينما، والإذاعة - هو المخرج... كتبت ذات يوم أقول: إن الكاتب الحق لا يمكن أن يلذه تأليف «سيناريو» للسينما؛ ذلك أن السينما تخضع كل شيء لإرادة المخرج؛ فمخرج السينما هو المنسق لكل شيء - هو الخلاق الذي يطبع العمل كله، بطابعه،... فاصانع «السيناريو»، وما واضع الحوار، وما مهندس المناظر والصوت، وما المصورون، والممثلون إلخ؛ - سوى عناصره منفردة، وأجزاء أشتات - المخرج جامعها، وموحدتها، وموجهها إلى حيث يصبها في القالب الذي يريد!... مثله مثل الكاتب الأديب في ميدانه؛ فالكاتب الحقيقي هو أيضاً ذلك الذي يخضع كل شيء لمشيتته - هو الذي يجمع الصور، والمشاهدات، والملاحظات، والتجارب الشخصية، وحوادث المجتمع، وأخبار التاريخ، وأساطير الأولين!... ويستخلص من هذا كله أو بعضه - عناصر وأجزاء يؤلف من بينها عملاً فنياً موحداً قائماً بذاته!... فالكاتب الحقيقي هو ذلك الذي يخلق عالماً زائراً بالاشخاص التي تحيا، وتسعى، وتشعر، وتفكر - دون أن يحتاج في إنشاء هذا العالم إلى غير قلبه وحده!... لهذا السبب يجب أن نفرق بين المسرحية، وبين «سيناريو»

السينما، وتمثيلية الإذاعة!... فسيناريو السينما لا يمكن أن يقوم بذاته، ويقرأ منفصلاً؛ كقطعة من الأدب!... وكذلك الحال في تمثيلية الإذاعة؛ لأنها مجرد عناصر في عمل أشمل!... ولا يملكان حياة مستقبلية خارج «الفيلم»، أو بعيداً عن «الميكروفون»!... وإذا أتى لقارئ أن يطالع على الكراسة النهائية لسيناريو، معد للإخراج السينمائي، أو على كراسة تمثيلية، معدة للإخراج الإذاعي؛ - فإنه يجد شيئاً لا يصلح للقراءة!... يجد الجانب القصصى فيها مبتوراً، والتعبير الأدبى قاصراً والحوادث والأشخاص تروى، وتوصف، وتحدد معالمها بطرق أخرى غير طريقة التعبير الكتابى!... وبغير التسلسل المعهود، فيما يكتب لينشر ويقرأ!... كما يجد إلى جانب ذلك اصطلاحات فنية لحركة «الكاميرا» وخطوط سيرها، أو لحركة «الميكروفون» وقربه وبعده، وإشارات الموسيقى، وتضخيم، أو تصغير الصور والأصوات، وغير ذلك من وسائل التعبير السينمائي، والإذاعي التي تملأ الكراسة، وتعمل مجتمعة على تكوين وحدة العمل!... فسيناريو السينما؛ كتمثيلية الإذاعة: كلاهما جزء من كل - جزء لا قيمة له بمفرده؛ لأنه بمفرده ليس له كيان أدبى فنى، يمكن أن ينشر على حدة، ويكون له قوة التأثير، والتعبير الذاتية. التي للأعمال الأدبية!... كاتب السيناريو إذن، وكذلك كاتب تمثيلية الإذاعة، لا يمكن أن يعتبر من الكتاب بمعناهم المعروف فى الأدب - على عكس كاتب المسرحية، فهو يستطيع - إذا كان أديباً - أن يكون مقروءاً لذاته وبذاته؛ فـ «شكسبير»، و «مولير»، و «جوتة»، كتاب حقيقيون؛ لأن قصصهم التمثيلية استطاعت أن تبرز للإنسانية عوالم هائلة رائعة، تقوم بنفسها بمجرد القراءة - دون اللجوء إلى مسرح وممثلين!... ولو كانت آياتهم، وآثارهم احتاجت كل الاحتياج إلى التمثيل؛ لتولد، وتوجد، وتقوم على أقدامها؛ - لما سميناها كتاباً وأدباء!... فالكاتب الأديب هو دائماً كل لا جزء!... بل إن طبقات

الكتاب تختلف أحيانا باختلاف قدرتهم على هذه الكلية وهذا التمام ، فالكتاب
العظام — فى نظرى — هم أولئك الذين منحهم السماء كل مفاتيح المشاعر البشرية...
فهم قديرون على الإبكاء، والإضحاك، والارتفاع بالمشاعر، والأفكار — إلى قمم الخيال
والشعر، والتصوف، والهبوط بها إلى أرض الواقع، والطبيعة الدنيا...!

من أجل ذلك كان أيضاً هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم كتاباً عظيماً كاملين ؛
«شكسبير»، فى كوميدياته، وفى مآسيه، وفى شعره ؛ — قد طاف بكل ما عرف الإنسان
من مشاعر، وتألفت أعماله بكل أشعة الكون الفكرى المعروف... وكذلك «مولير»،
قد أثبت — فى بعض قصصه — أنه قدير على الجذبة قدرته على الهزل !... أما «جوته»
فهو العبقرية الجامعة الشاملة !... فى حين أن كثيرين غيرهم اقتصرت عظمتهم على ناحية
من نواحي الإحساس الإنسانى؛ فجاءت عوالمهم التى خلقوها كواكب رائعة، باهرة،
سابحة، هى الأخرى فى الكون الفكرى، ولكن أشعتها لا تحوى كل ما فى قوس
قزح هذا الكون من ألوان وأضواء...! إن الكاتب العظيم لاعب بارع بكل
الأوتار...! وهو أحياناً — شأنه شأن المخرج السينمائى والإذاعى — يستطيع أن يضع
طابعه على أعمال، أجزاءها ليست من صنعته...! فـ «شكسبير» قد هبط على كثير
من القصص الإيطالى، و«مولير» على كثير من القصص الأسباني، و«جوته» على كثير
من أساطير القرون الوسطى...! الكاتب العظيم؛ كالفتاح العظيم يقع أحياناً على
أرض ليست له فيخضعها لسلطانه، ويقر فيها نظمه وأحكامه، ويصبغها بلون
تفكيره وحضارته، ثم يضع عليها راية عبقريته؛ ليعترف بها التاريخ...!

ولقد أثبتت السينما أن من بين مخزجها من يستطيع أن يكون فناناً عظيماً، له
طابع يميز به، وأسلوب يؤثر عنه...! فهناك مثلاً «سيسيل دى ميل»؛ باتجاهه
إلى موضوعات التاريخ، أو الأساطير — يبرزها فى إطار ضخم غم؛ كما فعل فى شريطه

الآخر «شمشون ودليلة»!... وهناك «أرست لوبتش»؛ يميله إلى السخرية اللاذعة؛ كما يمثلها شريطه المسمى «نكون أو لا نكون»!... وهناك «هتشكوك»؛ يحبه لإظهار البراعة، واستخدام الإيحاء، وإشاعة جو السر والغموض؛ كما ظهر في شريطه «ريكا»!... وهناك «هوايلر»؛ في عزوفه عن إظهار البراعة، وجهه لإخفاء حذقه تحت ستار البساطة؛ كما فعل في شريطه «أجمل أعوام حياتنا»!... وهناك «رنيه كليز»؛ بنزوعه إلى الفلسفة الساخرة؛ كما صنع في شريطه عن «فوست»... إلخ... إلخ

كل واحد من هؤلاء يستخدم «الكاميرا»؛ استخدام الأديب للقلم، يعبر بها عن لون طبيعته، واستعداده، ونوع نبوغه المكتسب بالهبة، أو المكتنز بالخبرة... وما من شك في أن للإذاعة أيضاً مخرجيها الممتازين... وإن كان ذلك على نطاق أضيق، وبجال أصغر!... فالإخراج الإذاعي ليس له حتى الآن الأهمية والمسؤولية التي للإخراج السينمائي؛ لأن تمثيلية الإذاعة ليست سوى فقرة واحدة، بين فقرات كثيرة، في سلسلة البرنامج الطويل!... وقد يكون لمحدث بارع، أو محاضر بارز، أو مغنية مشهورة من الاعتبار عند السامعين؛ - ما تضاهل إلى جانبه بقية الفقرات!... وقد يكون لمخرج الإذاعة أهمية أكبر إذا تقدم «التلفزيون»!...

لكن، أترانا غالباً في أهمية المخرج بالنسبة إلى العمل السينمائي؟... هل معنى ذلك أن الممثل المشهور، والمغنية الممتازة، والمؤلف الكبير، والمصور القدير - كل أولئك ليس لهم في نظر الجماهير وجود ولا تقدير؟!... ربما كان الواقع أحياناً هو العكس؛ فالجماهير قد تذهب أفواجا إلى رواية سينمائية؛ لتشاهد ممثلة، أو لتسمع مغنية، أو لترى قصة مؤلف!... بل أكثر من ذلك؛ ربما كان الإخراج رديئاً، ولكن الرواية قد تنجح؛ بسبب مؤلف، أو ممثل، أو مغن!... بل - في أغلب الأحيان، وإلى عهد قريب - ما كان الجمهور يذهب قط إلى السينما من أجل مخرج!...

وما كان اسم المخرج — مهما بلغ شأنه — هو الذى يجذب الناس، أو يدفعهم إلى الحضور... كل هذا صحيح، وملاحظ فى كل يوم، ولكن ذلك لا يغير شيئاً فى تلك الحقيقة الفنية: وهى أن المخرج هو المسئول الأول عن وحدة العمل السينمائى وطابعه... والمسئولية الفنية شيء، وعامل النجاح شيء آخر... فرواية «أنا كارينينا» لـ «تولستوى»؛ مثلاً قد يكون نجاحها فى السينما راجعاً إلى قوة «تولستوى» وحده، وهذا معقول، ولكن ذلك لا يبنى طبيعة عمل المخرج، حتى إن كان هو المسئول للرواية، المقصر فى إبراز معانيها، المضعف لقوة مراميها... فالمخرج — قد يكون وقد لا يكون — هو العامل الأول فى نجاح الرواية السينمائية؛ — بل إن المخرج أحياناً يتلاشى أثره وطابعه، إذا كان ضعيفاً، وكان مؤلفه أو ممثله عظيماً... ولدينا الأمثلة: أين طابع المخرج فى شريط «هملت» لـ «لورنس أوليفيه»؟... نحن لم نر غير طابع «شكسبير» وحده... وأين طابع المخرج فى قصة «الملكة كريستيانا»؟... نحن لم نر غير طابع «جريتاجاربو» وحدها... إن من أهل التمثيل من يكون له شخصية، تطفئ على كل شيء، وتبدو للمشاهد مألوفة عليه كل حواسه، محتلة كل ذاكرته، منذ اللحظة الأولى!... حدث لى ذلك مع ممثلين، لم أعرف عنهم شيئاً يوم شاهدتهم للمرة الأولى، واكتشفت مواهبهم، قبل أن تأخذ مكانها المرموق من سماء الشهرة الواسعة... ومن حق أن أقول اكتشفت؛ فليست العبرة بالاكتشاف أن توجد ما كان معدوماً... إن أمريكا كانت موجودة قبل «كولمبس»، والكواكب والنجوم كانت ملء السماء قبل المراصد وعلم الفلك. إنما العبرة أن تشعر بالقيم الفنية، تدخل مدار حياتك لأول مرة... على هذا النحو دخل مدار حياتى بعض نجوم السينما: من ذلك أنى رأيت ممثلاً مجهولاً، فى شريط إنجليزى صامت، لرواية «أوسكار وايلد»: «مروحة الليدى وندرمير»،

لخفظت اسمه من ذلك الحين ، وجعلت أرقبه ، وأتبعه طول الأعوام حتى استوى في ذروة سمائه ، ثم اعتزل العمل في السينما ، وكاد يغور في ليل النسيان ... ذلك هو «رونالد كولمان» ! ... ورأيت ممثلة في رواية صامته لا أذكرها ! ... ولكنني - منذ شاهدها تمثل - أدركت أنها لا بد بالغة شاحق القمم ! ... كانت تلك الممثلة هي «نور ماشير» ... على أن الاكتشاف الذي قد يدesh حقاً ، هو اكتشافني لتلك الفتاة العجيبة ، التي يحيط تمثيلها غموض ! ... كان ذلك في شريط صامت ، في رواية غريبة الموضوع والإخراج ، لم يجرؤ أحد على عرضها ، في دار كبيرة شهيرة من دور «باريس» ، فعرضت في دار متواضعة ، يؤمها نفر خاص من النظارة المشغوفين بكل طريف غير مألوف ! ... كانت هذه الفتاة البارزة المظهر ؛ - الرائعة الجوهر ، ذات الوجه المقتصد في الانفعال ، والنفس الزاخرة بالأسرار ؛ - تجعلني أشعر أن هذه الممثلة لن تختفي بانهاء الرواية ، ولا بانهاء روايات مقبلة ! ... إنها شئ يجب أن يبقى ويعيش ؛ لأن من رآها لا يمكن أن ينساها ! ... إنها حلم لا تكفيه الحياة في قصص ، إنها حلم جيل وعصر ! ... كانت هذه الممثلة الصغيرة ، يومئذ هي «جريتاجاربو» ... ولكن اكتشافني الذي بقي لي وحدي ، ولن يشاركني في الإعجاب به كثير من الناس ؛ لأنهم قد لا يعلمون عنه شيئاً ؛ - هو ذلك الممثل الذي كان يقوم بدور صغير إلى جانب الفتاة ، «جريتاجاربو» في تلك الرواية الأولى القديمة ! ... كان يقوم بدور «جزار» في حي فقير ! ... منذ رأيت يومئذ ، وأنا أخف لمشاهدته ، في كل رواية يظهر فيها ! ... لقد رأيت من حسن حظي في روايات سينمائية ، صامته بالطبع ، مأخوذة عن درامات «إيسن» ، وشهد الله كم أبكاني ! ... لا لأنه كان يريد أن يبكي مشاهديه - على النقيض ؛ لقد كان يعيش في الشخصية التي يمثلها على نحو يثير كوامن النفس ! ... لقد كان هذا الممثل يؤدي دوره ، على صورة لا أظن لها شبيهاً

حتى اليوم في نظري ، ولن يستطيع قلبي أن يصف فن هذا الرجل ؛ فهذا فن ارتفع في ابتكاره ، وحلق في غرابته إلى ذرى عجيبة ! ... ولم يمض هذا الممثل بالفعل في طريق الشهرة العالمية ؛ فقد انقطع عن « السينما » ، ولم يبد له أثر في الأشرطة الناطقة ، ولم أتبع مصيره ، ولا ما انتهى إليه ! ... كل ما بلغني عنه أنه رفض الانغمار في عالم السينما ، وآثر العمل في مسارح « ألمانيا » موطنه ! ... وقيل لي إنه من عمد المسرح الألماني ، غير أنني لم أره إلا في تلك الروايات الصامتة الغربية النأليف والتمثيل ! ... كان هذا الممثل يدعى « وارنر كراوس » ! ... هذا ممثل لا يريد منه أن يبرح ذاكرتي ! ... لقد أرسل في ذهني أشعة ، وكشف لنفسه عن أكوان ، ثم اختفى ؛ كما يختفي كوكب قصي ، ويغيب في هوة الفناء السرمدي ، تاركا ضوءه يلمع في سمائنا الأعوام ! ...

الباب العاشر

الأدب ومشكلاته

رسالة الأدب — كغيرها من الرسائل الكبرى، التي
تبغى السمو بالبشرية — لا تبلغ الأسماع إلا بعد جهد
ومراع

نهر الحياة الكبرى

من العلل الشائعة في بلادنا ضعف الإقبال على المطالعة الجيدة ، ولقد سرى الداء في طائفة من شباب الجيل الجديد ، أخذهم دوار العجلة ، الذى ابتلى به هذا العصر ، وأغراهم حب الوصول بغير مجهود ، فوقع في وهمهم أن القراءة عبث ، وأن بطون الكتب ليست إلا مقابر ، وأن الذى يعينهم الحياة : — ولا شىء غير الحياة ! ...

وإنه لمن المفرح والمضحك معا أن نسمع شابا يحدثنا عن « الحياة » ، كما لو كان حقا يعرفها ؛ وكأ لو كنا — نحن الذين تقدمناه في الزمن — قد ولدنا فى كوكب المريخ ، فلم نهبط الأرض ، ولم نكدح فى الحياة قبله ، ولم نعشها ولم نرها ! ...

يحسن — قبل كل شىء — أن نبدد وهم هذا النفر الساذج من الشباب ، فنقول له إننا عشنا فى أحداث حريين عالميتين ، وعرفنا مصر وأوربا فى أزمتين وثورتين ، وإن كثيرين منا — ومنهم كاتب هذه السطور — لم يقض شبابه كله فى مقاعد الدرس أو التدريس ، ولم تكن حياته كلها غارقة فى النظريات ، أو فى التحرير ، والتحرير : — ولكنه غرق زمنا فى الحياة من حيث هى حياة ، بواقعها وحلوها ومرها ، وطيبها وخبيثها ؛ ومن ذلك يوم كان يعمل فى القضاء ، يحوس خلال الريف والمدن ، ويتصل بالحاكمين والمحكومين ، ويطلع على خبايا المجتمع ، وخفايا الصدور والأسر والأكواخ والقصور ، وأنه عرف حرية الوحدة ، ومسئولية الأسرة ، ولحظة التأمل ، وزحمة الاجتماع ، ومرارة الإخفاق ، ومشقة الكفاح من أجل العيش — وتبعات الرأى الحر فى المسائل السياسية أو الاجتماعية . ولم يفقد فى أى وقت اتصاله بالبيئات التى يرى

فيها ويعرف ما يجري في البلد، وما يحركه، ويتحرك فيه: من أشخاص ودوافع! ...
 ... كما عرفنا كلنا— ولا شك— تلك الحياة الأخرى الصغيرة، التي عرفها كل
 شاب؛— ذلك أنك لو حدثت شابا عما يعنيه بكلمة «الحياة»، لفهمت منه أن الحياة
 عنده هي وجوده المحدود الذي يعرفه، وظروفه التي تحيط به! ... هي الرغبات التي يحلم
 بها، وينالها، أو لا ينالها! ... هي الفتاة التي يحبها، ويريد أن يجعل من حبه لها مشكلة
 المجتمع، أو معضلة الكون! ... هي الخانات، أو الامتحانات، أو المرتبات، أو السهرات
 الحمراء، أو الليالي الظلماء، أو ما يقع تحت بصره؛ في الطريق العام، أو في الترام، أو في
 القهوة، أو في المكتب، أو في الحى! ... أو ما يقرؤه سريعا في صحيفة، أو مجلة، أو كتاب
 خفيف، أو ما يصل إلى عليه بالتواتر والإشاعة من أزمت العالم، ومشاكل
 العصر! ... هذه هي كل الحياة التي يمكن أن يحيط بها شاب من شباب اليوم! ...
 ولكن الحياة شيء أعمق من ذلك، وأطول، وأرحب! ... إنها مثل نهر لا
 نعرف منه المنبع، ولا المصب! ... البعض يكتفى منه باللعب عند الشط، والبعض
 يسبح بالقرب من شط النهر، أو ينغمر فيه، والبعض يفعل كل ذلك، ولا
 يكفيه؛— بل يحاول أن يصعد في منابعه، باحثا مر تادا! ...

* * *

آثار الأقدمين الخالدة؛ من كتب، ومعارف، وفنون؛ هي القوارب،
 والمراكب التي تصعد بها مستكشفين منقبين في منابع نهر الحياة الكبير! ...

* * *

وهنا تبدو صعوبة: ليس كل الناس يستطيع أن يكون مر تادا، ومستكشف! ...
 فلا بد لمن أراد التنقيب في هذا النهر، ومعرفة خباياه، وفهم أسرارها، من خبرة وتجربة! ...
 فنحن لا نلتفع كثيرا بمطالعة الأقدمين، إلا إذا تسلحنا بتجارب السنين ...

إن الخطأ الذى يقع فيه أكثر الناس ، هو ظنهم أن القراءة أخذ صرف ! ...
وأن القارئ ليس إلا جعبة ، فارغة يملؤها الشيء المقروء ! ... وأن المؤلف مانع ،
والمطالع ممنوع ، وأن الكتاب عائل ، والقارئ عالة ! ...

* * *

والواقع — كما دلنا علم النفس الحديث — أننا لن نستطيع أن نصل إلى ما نجهل
إلا عن طريق ما نعلم ! ... علمنا السابق هو مفتاحنا لباب المجهول ؛ فليس للألفاظ
التي نقرأها معنى ثابت محدد ، ولكنها تتغير ، ويضيق مدلولها ، ويتسع ؛ تبعا
لدرجة علمنا وخبرتنا ! ... فلفظ « الإسكندرية » مثلا — عند من لم يرها ولم
يعرفها — لا يدل على شيء كثير ، ولكنه — عند من رآها وعاش فيها — يدل على
صورة ومعان لا حصر لها ولا عدا ! ... فنحن ، في حقيقة الأمر ، لا نطالع بأذهاننا
وحدها ، ولكننا نطالع بتجاربنا ، وخبرتنا ! ...

وإن من الكتب ما يقل محصوله أو يكثر ، ويجذب أو يخضب ؛ — تبعا
للشخص الذى يقرأ هذه الكتب ، أو الجيل الذى يطالعها ! ...
ومن من الكهول والشيوخ لم يهز رأسه عجباً ، وهو يعيد قراءة « كليلة ودمنة »
أو « العقد الفريد » أو « الإلياذة » أو « هاملت » ، ولم يقل فى نفسه : « كيف لم
أفطن إلى هذه المعانى فى شباني » ؟ ... !

وهل كان من الممكن أن يدرك الإنسان — فى شبابه من معانى الحياة —
أكثر مما تتيح له سنه من خبرة وتجربة ؟ ... !

هنا سر عزوف أكثر الشباب عن الكتب القديمة النفيسة ! ... جهلهم بالحياة
العميقة الرحبة ، هو الذى يخيفهم من تلك الكتب ! ... إنهم يضجرون منها سريعا ؛
ضجروهم من مصاحبة من هم أكبر منهم سنا ! ... وهم يكتفون بالكلام عن الحياة ؛ ليوهموا

أنفسهم أنهم قد عرفوها ! ...

هذه المشكلة، ليست إذن مشكلة الشباب في عصرنا وحده ! ... إنها مشكلة الشباب دائماً — في كل العصور — إلا أنها في العصور الخوالي، كانت أخف وطأة، وأقل خطراً؛ ذلك أن الشباب ما كان يقع في أيديهم غير قيم الكتب؛ فكانوا مضطرين اضطراراً إلى احترامها، والعكوف عليها، يسبقون منها ما يسبقون، ويتركون للأيام ما يتركون ! ... إلى أن تتقدم بهم السن، ويختزنوا من تجارب الحياة، ما يمكنهم من فهم ما تركوا، وما يؤهلهم لبعث ماضيه مدفوناً في بطون الكتب؛ من حياة ما ماتت، ولا يمكن أن تموت؛ لأنها قطعة من الحياة الكبرى، التي لا تغنى، وبضعة من أنفسنا التي لا تهم ! ... أما اليوم فإن وسائل اللهو قد تنوعت، وألوان القراءات الخفيفة السائغة قد تعددت، وكلها بما يناسب مزاج الشباب، ويطيب لسنه ويتفق مع محيطه؛ فما الذي يضطره إذن إلى بذل الجهد، وتجشم المشقة في اتخاذ القوارب والمراكب، يصعد بها إلى « حياة » هي بالنسبة إلى مداركه وتجاربه « مجاهل »، لا يمكن أن ينفذ إلى جوفها وهو في ربيع العمر ! ... مع الشباب شيء من الحق، فما من أحد يحب لهم هذا الكفاح المؤلم على الدوام — وإن لسنهم عليهم حقاً — ولكن، إذا استطعنا أن نغريهم ببعض الشيء بهذه المحاولة الشاقة، ونسألهم أن يمنحوا المطالعة المجددة وقتاً يسيراً إلى جانب المطالعة المسلية؛ — فإنهم، ولا ريب، لن يندموا على هذا الوقت، في مستقبل الأيام ... لأنهم سيجدون لذة في أن يقولوا هم أيضاً — وقد وخطروا وسهم الشيب — مثل ما قال كل جيل سابق :

« كيف لم نلفظن إلى هذه المعاني في شبابنا، ١٩ ... »

وعند ما تنبض الكتب القديمة بحياة جديدة، تحت نور تجاربهم، سوف يصيحون زهواً :

« نحن أيضاً لم نقنع بالشط، وارتدنا النهر الكبير ... نهر الحياة الكبرى، ... »

الشعر وأشعته

هل الشعر تصوير للحياة ؟ ...

ما من ريب في أن للشعر صلة بالحياة ؛ لأنه ينبع من كائن حي : هو الشاعر ...
غير أن الذي أرتاب فيه قليلا ، هو أن الشعر تصوير مباشر للحياة ... فإن الحضارة
تملك من الأدوات ما هو أدق في تصوير الحياة من الشعر : ففضلا عن النثر المنوط
به - دائما من القدم - تصوير الحياة في جملتها ، وتفصيلها ، وجوهرها ، وتفكيرها
تصويرا حقيقيا واقعا ؛ - فإن لدينا اليوم أيضا «السينما» ... تستطيع أن تسجل في شريط
كل تفضيلات الحياة ، في بلد ، وزمن ، وطبقة ، وبيئة ؛ - بالألوان واللسان واللهجات ! ...
على صورة يعجز ، عن وصفها للعين والأذن أي كاتب في أي لغة من اللغات ! ... ولدينا
الصحافة الإخبارية : والتصويرية ، والتحليلية ، فيما يسمى «الربور تاج» ! ... تستطيع
أن تتغلغل في طبقات الحياة المختلفة ؛ فتسجل الأحداث ، والأخبار ، وتصور
«بالروتوغرافور» ، وترسل محرريها : يختلطون ويندججون ، ويتحرون ويتقصون ،
ويرجعون إليها بأدق المعلومات ، والإحصاءات ، والوصف ، والسرد ، عن حدث من
أحداث المجتمع ، أو حالة بيئة من بيئات الشعب ! ...

وإنه ليكفي - في الغد - أن يطلع الإنسان على مجموعة صحفية ، لعام من الأعوام ، في
بلد من البلاد ؛ ليخرج في الحال بصورة دقيقة ، عن حياة ذلك البلد ، في تلك الفترة
من تاريخه ! ... ويكفي أن يشاهد شريطا سينمائيا محفوظا - سجل حياة مجتمع في زمن
من الأزمان - ليرى تلك الحياة بذاتها ، قد بعثت ماثلة للعيان ! ... فمهمة الشعر إذن
عندئذ ، وقدملكننا أدوات أخرى غيره ، تمثل لنا الحياة خير تمثيل ؟ ! . لا بد أن

يكون للشعر مهمة أخرى ، مجرد تصوير الحياة الجارية ، وتمثيل الأمم والشعوب والأجيال — ذلك التمثيل الظاهري ، المادى ، المباشر ! ! ! .

ما هي هذه المهمة الأخرى للشعر ؟ ... هذه المهمة التى يستطيع القيام بها وحده ؛ دون غيره من تلك الأدوات — التى وجدت ، والتى قد توجد — فى مستقبل الأحقاب ؟ ! ... لا بد أن تكون تلك المهمة الخالدة شيئاً يتصل بالشاعر نفسه ... بطبيعته هو ، وبمزاجه ، وبنظرته الخاصة إلى ما يحيط به من كائنات ! ...

على هذا النحو يجب تعريف الشعر ، لا بأنه تصوير للحياة ؛ — بل بأنه انعكاس الحياة على نفس الشاعر ! ... فالشاعر ؛ مثل القمو ، لا يعطينا الحياة فى أشعتها المحرقة ، ووهجها الذى يعمى البصر ، ولكنه يتلقى بعض أشعتها ، ويصفىها من خلال نفسه ، ويعرضها علينا بعد ذلك ؛ — ضوءاً جميلاً منظماً مهذباً ، ترتاح له العين ، ويسبح فيه الذهن ، ويأنس له القلب ! ...

من أجل ذلك كان الشعر غير دقيق ؛ فى تصوير الحياة لنا ، كما أن القمر غير دقيق ؛ فى نقل أشعة الشمس إلينا ! ... كلاهما يعطينا شيئاً ممزوجاً بطبيعته ، مخلوطاً بخصائصه ! ... وكلاهما أيضاً ، فيما أرى . يرمى إلى الهدف عينه ؛ فالسؤال الذى يلقى على الشعر هو السؤال عينه الذى يطرح على القمر : ما الذى تقصد إليه من إعطائنا هذا الضوء المهذب الجميل ؟ ...

أما القمر فيجيب :

لست أقصد بهذا الضوء أن أريكم واقع الأشياء ؛ فإنكم ترون هذا الواقع مثلاً واضحاً فى وهج النهار ، ولكنى أريد أن أدثر لكم الأشياء فى رداء جديد ، من نور وظلال ؛ لأوقف فيكم روح الوجود ، وجوهر الكائنات ، وأثير فى أذهانكم

عوالم أخرى أجل وأكمل من العالم الموجود ، وأجعلكم ترون في ضوئي شيئا آخر غير
الذى ترون في ضوء الشمس ، فتحيون بذلك حياتين ، فيزداد وجودكم بذلك اتساعا ! ...
ويجب الشعر بمثل ذلك قائلا :

أنا - أيضا - لست أقصد أن أريكم واقع الأشياء ، في حقيقتها المادية : فهذا من
شأن العلم ، وما يجرى مجرى العلم من تاريخ ، وبحوث ، وتحقيق ، وإحصاء ،
وتسجيل ! ... ولكني أريد ، بضوئي ، أن أطرق أبواب تفكيركم ، ومشاعركم ،
وأمنى فيكم ملكة التخيل ، والتأمل ، وأجعلكم أنا أيضا تحيون حياتين : حياة
الواقع الأرضي ، وحياة الفكر العلوى ! .

ولسكان الشعر أدرك خطر السينما والصحافة ، الذى يهدد فى الغد ، فأردف يقول :
لا تنتظروا من عدستي أن تلتقط ظاهر الحياة : فإن « الكاميرا » ، والمصور
الصحفى سيكون لهما غدا فى ذلك فن دقيق رائع ، ولكن عدستي هى التى تلتقط
وتسجل حياة القلب ... وهى حياة لا تستطيع أن تصورها « الكاميرا » ، ولن
تستطيع ! ... وسيكون الشاعر الذى يمثل عصره ، هو ذلك الذى يصور -
لا مجرد الحياة العادية الجارية ، ولا الأوضاع والأحداث المحلية ؛ - بل هو ذلك
الذى يمثل حياة الفكر والروح فى عصره ! ... هو « أبو العلاء » ؛ بالنسبة إلى
الدولة العباسية ! ... وهو « داتى » ؛ بالنسبة إلى القرون الوسطى ! ... و « طاغور » ؛
بالنسبة إلى الهند اليوم ! ... و « فاليرى » ؛ بالنسبة إلى أوروبا الحديثة إلخ ...
وأخيرا يجب القمر قائلا :

عدستي - أنا أيضا - ليست مثل عدسة الشمس ؛ فهى لا تلقى أشعة كاشفة . ولكن
تلقى أشعة موحية ! ... أشعة الشمس تقول للناس : انظروا ، وأبصروا ! ... وأشعنى
تقول للناس : اشعروا ، وفكروا .

مستقبل الشعر

هل دولة الشعر موشكة على الزوال؟ .. هل قرص الشعر سينقرض في مستقبل غير بعيد؟ ...

ما من ريب في أن هنالك أخطارا تهدد حياة الشعر ، وهذه الأخطار ليست وليدة اليوم ؛ فقد ظهرت كلما ظهر في الإنسانية حدث أو تحول ؛ فالشاعر الذي كان يرفع القبيلة ، ويخفض القبيلة ، قد أحس الخطر على سلطانه ، يوم تحولت القبيلة إلى دولة ؛ فلم يعد الشاعر - عندئذ - يتكلم باسم جماعة ، ولكنه يتكلم باسم فرد هو ملك أو عظيم ، ثم تحولت الدولة من الأرستقراطية إلى الديمقراطية ؛ فعاد الشاعر يتكلم باسم ملك أو عظيم ، ولكنه أصبح يتكلم باسمه هو ؛ للتعبير عما في نفسه ! ... وإلى هنا لم يمس الخطر كيان الشعر في ذاته - وإن كان قد انتقص من سلطانه السياسي ، وحدث من نفوذه العام ! ...

أما الخطر الذي توجس الشعراء خيفة منه على كيان الشعر ، وهو ظهور « العلم » في القرن التاسع عشر ، على نحو عاصف بمصير البشرية ، مغير لنظرتها إلى الأشياء ! ...

فقد روى أن الشاعر « كيتس » نهض ذات ليلة ، في إحدى الولائم ، رافعا كأسه بهذا النخب الغريب : « اللعنة على ذكرى نيوتن ! ... » فلما سأله الحاضرون عما قصد قال : « لأن نيوتن حطم نظرتنا الشعرية إلى قوس قزح ، حين فسر لنا ذلك التفسير المادى ! ... » فشرب الحاضرون عندئذ - وكانوا من الشعراء - على « لعنة نيوتن ! ... » على أن الأيام أثبتت لنا - بعدئذ - أن « العلم » لم يستطع هدم « الشعر » ، كما أنه

لم يستطع هـدم « الدين » ...! فالحقيقة الفنية ، والحقيقة الدينية ، تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية ...!

فقوس قزح ، يمكن أن يكون موضوعا لقصيدة مبتكرة : اليوم ، وفي الغدا ... يتغنى فيه الشاعر بالجمال الذى يبعثه فى النفس ، فى أوقات الصحو ، أو فى أوقات الغيم ، دون أن يحفل بتكوينه العلمى ، أو بنظريات التحقيق الضوئى ...!

والسيف ، يمكن أن يظل رمزا للقوة والحرب ؛ يبرق نصله فى أبيات الشعر ، على مدى الدهور ، دون أن تنال من جماله الشعري حقائق القبلة الصاروخية والذرية ... والقمر سيمضى - طول الليالى - يدثر الدنيا بغلالة أشعته الفضية ، مهما يكن من أمر تبحرنا فى حقائقه الفلكية والجيولوجية ...! ولن نستطيع أن نقول للهاثمين بحسنه ؛ من شعراء وعشاق : « أفقروا ...! إنكم تيمون بحب جرم ميت ؛ لا ماء فيه ، مظلم مشوه بالبراكين المنطفئة ...! »

إن علمنا بحقيقة القمر ، لن يمنعنا من حب ضوءه الشاحب ، ولن يمنعه من التأثير فى نفوسنا الشاعرة ...!

مادامت هنالك نفس ؛ مستقلة عن الرأس ... فلا خوف على الشعر من العلم ...!

* * *

لكن ... على الرغم من كل ذلك ، فإن الشعر ، فى عصرنا الحديث ، أخذ فى الضعف ، سائر إلى الفناء ، أو إلى ما يشبه الفناء ...! إن كل شاعر يمضى ، يترك مكانه فراغا ... وكل ذواقة للشعر يذهب ، لا يترك له خلفا ...! وكل راوية للشعر منقرض ...! وكل ناشر لدواوينه مبتعد ... نرى هذا اليوم فى كل بلد ؛ فإن دور النشر فى أنحاء العالم لا تطبع ديوان الشعر إلا وهى مؤمنة بالخسارة ، مدركة لفداحة التضحية ...! لماذا ...؟ هنا الخطر ...! الخطر الحقيقى على الشعر ...!

العلة — فيما أعتقد — هي ضعف الثقافة في الشعوب !... إن شعوب الأرض اليوم تتعلم — على نطاق واسع — تعليماً سطحياً !... إن تلك الطبقة الممتازة — من المتذوقين للفنون العليا — تكاد تغرق اليوم في محيط هذه الملايين، من أشباه المتعلمين !... هذا المحيط الطامى لم تنتشر فيه الثقافة، ولكن الذى انتشر فيه هو ضعف الثقافة !... وهذا المحيط الذى يمتد في كل بقاع الأرض — من المشارق للمغرب — هو الذى يفرض ذوقه على الإنتاج الذهنى وعلى دور النشر !... والشعر هو خلاصة الثقافة، وعصارة الذوق؛ فهو لذلك فن مركز، يضغط، في آياته القليلة، ما يوحى بالكثير إلى أصحاب الأفهام !... إنه ليس كالنثر فن إسهاب وإيضاح، يفرغ في رؤوس الناس ما يريد من كلام، وثرثرة، ومعلومات — يزدردونها هيئة لينة، بلا جهد ولا اجتهاد !... إن الشعر فن إيجاز وإيحاء، يفترض في السامع قدراً من الثقافة، وحظاً من الذوق !... أنه لبس طعاماً، يقذف به في القم، ولكنه مفتاح تحريكه موسيقياً النفس؛ — فلا بد إذن أن تكون النفس مستعدة له، وأن تكون قد هذبت أوتارها، قبل أن تنهبا للمفتاح !... هذا التهذيب أو الإعداد لم يتح بعد لكل ذرات هذا المحيط الطامى من الشعوب !... وما دامت الغلبة للعدد، فلا مفر من أن يلج المجتمع نداء غالبية الطاغية الساحقة !... وما هو هذا النداء ؟... أنه الرغبة في التقام السهل؛ أى النثر !... وليس كل النثر أيضاً؛ ففي النثر ما يسمو إلى مرتبة الشعر؛ إيجازاً، وتفكيراً، وفناً !... هذا أيضاً يجب أن يبعد، أو يحد في أضيق نطاق — إلى أن يختنق !... لن يبق إذن حراً طليقاً، رأياً، مزدهراً؛ غير الغذاء الذى تستطيع الملايين إساغته واقتناؤه !...

وهو بالطبع لن يكون الشعر الممتاز !...

فهل يتغير يوما هذا الحال ؟ ... أو يصير الشعر آخر الأمر إلى زوال ؟ ...

* * *

وإذا استطاع الشعر أن يزول يوماً ، فهل يزول « الشاعر » ، ... ؟
 هذا الكائن العجيب ، الذي أوجدته الطبيعة ، من بين الخلق على نسق غريب ...
 هذا الذي قال فيه « موريك » : متسائلا :
 « من هذا الرجل الذي يتكلم بخيلاء ، ويمشى بكبرياء ؟ ... لا شك أنه رجل
 أصحاب الملايين ، أو أرباب البيوت المالية ! ... »
 لا ، لم يكن هذا الرجل سوى « شاعر » ، من أصحاب الآيات الشعرية ! ...
 أما كبرياؤه فليست سوى نوع من الدفاع عن النفس ! ...
 إن الشك ، في أعماق الشعراء ، يعيث كالسوس ! ... إنهم في حاجة إلى التفاتنا ؛
 حتى لا يغمرهم اليأس ! ... إن هذا البلبل الذي يشدو في الربيع ، هذا الكروان الذي
 ينشد والناس نيام ، هذا الذي يسمونه الشاعر ؛ — ما استوثق يوما ، كل الوثوق ،
 أن أذنا قد سمعته ! ... إن أغانيه تصعد ضائعة بين النجوم ؛ لتبسط عائدة إلى قلبه ! ...
 وإن صمتنا ليدو له ؛ كأنه خيانه ، أو كأنه نذالة ! ... إذا خرج الشاعر يوما عن
 طوره ، ورمانا بالتهم ، وغضب علينا وقذفنا بالحمم ؛ — فلنحتمل منه ! ... فإن
 أغلب الناس ، على هذا الأرض ، قد أصيبوا بالصمم ! ... إنهم لا يسمعون أهازيجهم ! ...
 ولكن ، هل من اليسير أن يسمع كل الناس أهازيج الشاعر ، وأن يرتفعوا إلى
 سماء معانيه ؟ ... حسبه ، فيما أعتقد ، أن يكون هناك اهتمام ؛ فهو لا يطلب في
 حقيقة الأمر أكثر من « إشهاد » بأنه موجود ، وأن الأمة في حاجة إلى وجوده ! ...
 ولقد نال ، في غابر الأزمان ، هذا « الإشهاد » الرسمي بوجوده . فمن ذا ينكر أن
 « المتنبي » كان له في دولته شأن وأى شأن ؟ ... ومن ذا ينكر أن « أوربا » تعترف

بفضل شعرائها وأدبائها حتى الآن :- اعترافاً معنوياً أديباً ، يعوضهم بعض الشيء عما فقدوه من تقدير مادي مالى فى العصور الحديثة ؟ ... فحكومات الغرب وشعوبها - إن لم تستطع أن تمنح ، الشاعر أو الأديب ، مالا وإقبالا :- فإنها تمنحه تعظيما وإكباراً ... فتقيم له التماثيل ، واحتفالات الذكرى ، وتحفل بأثاره ، وتفاخر بأعماله ! ...

ولكن ، الشرق ؟ ... ولكن ، مصر ؟ ... إن بعض السطحين يتساءلون أحيانا : كيف لا ينتج أدباؤنا وشعراؤنا إنتاج زملائهم فى بلاد الغرب ؟ .. أما أنا فأتساءل : كيف استطاع أدباؤنا وشعراؤنا أن ينتجوا إطلاقا ؟ ... ولماذا هم ينتجون ؟ ... إن موقف أدبائنا وشعرائنا اليوم ليدعو إلى العجب : إنهم فى موقف لم يقفه أدب ، ولا شعر فى عصر من العصور ؛ فالمعروف أن الأدب يعيش دائما بتشجيع طبقة من المجتمع : ففى العهود الماضية كان فى كنف العظماء والأغنياء - يتبارون فى حمايته ، ويتسابقون فى إعلاء كلمته ! ... وفى العهود الحديثة ، وزوال الأمية ، انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم ؛ فهو الذى يثبت الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه ، وهو الذى يحيطه بمظاهر الاحتفال والتقدير ! ... أما أدبنا اليوم فهو حائر : كاليتم بين أغنياء ؛ لا شأن لهم بأدباء ولا شعراء ، وبين شعوب لم يتم تعليمها ؛ فهى لا تستطيع أن تعنى بعد بأدب أو شعر ! .. فأدباؤنا وشعراؤنا ينتجون ، وهم يعرفون أن إنتاجهم لا يهتم إلا الأغنياء ولا الفقراء ! ...

لقد أحست الحكومة البريطانية أن الكتاب الإنجليزى فى أزمة ، وأن الفكر الإنجليزى : من أدب ، وشعر ، وفن ، وعلم :- يحتاج مرحلة دقيقة ، فسارع الوزير المختص بطلب اعتماد يقدر بمئات الآلاف من الجنيهات ، ينفق فى سبيل الفكر الإنجليزى فى الخارج ، حتى يظل الإنتاج الفكرى فى إنجلترا محتفظا بمستواه ؛ فلا يهبط المؤنسون ، ولا ينصرفوا عن التأليف والإنتاج ! ...

أما في «مصر»؛ فإن الحكومات تدع المؤلفات الأدبية، تعامل معاملة الأرز،
والقطن، والسكر؛ — فتكبل بقيود التصدير، وأغلال العملة، وتحبس في أيدي
مؤلفيها، لا يدرون ما يصنعون بها — ولا لمن صنعوها...
هناك، الحكومات تغار على نشر الفكر القومي، وهنا، تنام الحكومات،
أو تهبط لتقص أجنحة الفكر العربي...
وبعد ذلك يقال لأدبائنا: ألغوا؛ كما يؤلف أدباء «أوروبا» ولشعرائنا: غنوا
وأشددوا؛ كما يغنى وينشد الشعراء العالميون...!

أرب القصة

إن الإنسان ليس مجرد جسم، يتحرك في محيط البيئة المادية؛ من ريف، أو حضر، أو منزل، أو ناد، أو مكان عمل؛ — مما درج بعض القصاصين عندنا على تسميته بالحياة الواقعية!... ولكن الإنسان أيضاً — فوق ذلك، وأكثر من ذلك — «عقل»؛ يتحرك في عوالم فكرية!... وهو «روح»؛ يسبح في معان شعرية!... وهو مبادئ فلسفية، ودينية، واجتماعية؛ تصطرع وتطور!... فالعناية — بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان — هي التي تجعل من القصة أدباً رفيعاً!... لولا ذلك لما كان لمثل: «سوفوكلس» أو «تولستوى» أو «فولتير» أو «شكسبير» أو «جوته»؛ — ذلك المكان السامق في الآداب الخالدة؛ فهم ما أرادوا أن يحكوا للناس مجرد قصص ولكنهم أرادوا أن يبرزوا لنا أعماق ما في الإنسان!...

فما من واحد من هؤلاء قنع بتصوير بيئته، أو لونه المحلي؛ لمجرد التصوير!... فإن «فولتير» لم يرسم لنا الفرنسيين فقط، و «شكسبير» لم يرسم لنا الإنجليز فقط، و «تولستوى» لم يرسم لنا الروس فقط، و «جوته» لم يرسم لنا الألمان فقط؛ — فهم جميعاً ما رسموا حقاً، وما صوروا غير «الإنسان»!...

وما من واحد منهم أراد أن يصور «الإنسان»؛ في حياته القومية، المحدودة، ذات الألوان الصارخة العابرة!... ولكنهم جميعاً قصدوا أن يصوروا فيه شيئاً ثابتاً خالداً!... لمخنا منه — في ومضات تفكيرهم، وقبسات عبقريتهم — شيئاً هو فوق الإنسان ذاته!... وهذا هو الذي جعلهم يُقَرَّون في كل بلد، وكل لغة، وكل زمن!...

ذلك لأنه ما من واحد من أولئك الخالدين، جرؤ على حمل القلم قبل أن ترسخ قدمه في أعماق الثقافة المعروفة في عصره؛ فقد كانوا يدركون أنهم ينشئون «أدبا»، أى ذلك الشيء الذى يتصل اتصالا مباشرا؛ بالجوهر الثابت فى كيان الإنسان... ولكن انتشار القصة — باعتبارها مطالعة سهلة — قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق، والهرب من الجهد، واتخاذ القصة مركبا هينا، لا يكلف أكثر من سرد حوادث محلية، وجبك مواقف مسلية، ووصف أشخاص، ورسم مناظر من الحياة الجارية: بأى أسلوب اتفق؛ ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ، اسم «الأدب» المبتكر والخلق الأصيل...!

وما دامت هناك جماهير. ينتشر بينها التعليم البسيط، عاما بعد عام، وينجذب بطبيعتها إلى اللون اليسير الخفيف الشائق، ومادام هناك ناشرون يريدون الربح، فيمدون الناس بما يشتهون؛ — فلا بد أن تثبت «القصة»، وأن يكتب لها الذبوع... ومهما يكثر عدد القصاصين فلن يستطيعوا أن يكفوا فى المستقبل تلك الأسراق التى ستفتح للقصة؛ فليست دور النشر وحدها هى التى تحتاج إلى القصص، ولكن الصحافة اليومية والأسبوعية — بأنهارها الواسعة — لن تكف عن طلب فيض من القصص لا ينتهى... فالقصة إذن مقضى عليها بأن تكون «صناعة»، رابحة، يزدهم عليها الطلب!... وبهذا وحده يقضى عليها فى الوقت عينه بأن تباعد نهائيا عن منطقة «الأدب»...!

والأدب — من ناحيته — سوف يرى أنه غير مستطيع أن يعمل طليقا، فى أجوائه العليا، وهو مرتبط بالقصة!... لقد أراد أن يستعين ببريقها وتشويقها فى اجتذاب الناس، ولكن الناس، ما إن يروا قصة تافهة القيمة، محبوكة الصنعة؛ — حتى يندفعوا

إليها متحمسين صائحين : « هذه هي الحياة ! » ، وينصرفوا بجموعهم عن القصة الأخرى ، التي تطوى في أعماقها الحياة الحقيقية ، تلك التي غاص لها الأدب والفكر ، ضجرين قائلين : « ليست فيها حياة ! » ؛ ذلك أن الحياة عندهم ، هي التي يرونها فقط : بعواطفهم السطحية ، جاهلين أن الحياة في الأدب والفن ليس معناها السطحية في النظر إلى الحياة فهل يأتي يوم ينفصل فيه الأدب عن القصة ؟ . . . فلا يحتفظ منها إلا بالقدر الصغير الذي قد يخدم أهدافه ؟ . . . وبذلك يمضي مستقلاً باحثاً كاشفاً عن الحقائق في جوهرها ، لا يحسب لأحد حساباً ، ولا ينظر خلفه : ليرى من تبعه ، ومن لم يتبعه . . . تاركا « القصة » لشأنها ، ولأسواقها ، ولجماهيرها : — لها صفتها الخاصة ، شأنها — في ذلك — شأن الصحافة ، والإذاعة ، والسينما . . . غير مجترئة على أن تـمسح بأعتاب « الأدب » ، أو طامعة في أن يسبغ عليها جلاله . . . هذا الاتجاه في الأدب ظهرت بوادره منذ الآن — في أدباء عظام ، منهم : « أندريه جيد » الفرنسي ، و« ألدس هكسلي » الإنجليزي ، و« ستيفان زفايج » النمساوي ، و« إيليا هر نبرج » الروسي : فقد استخدموا القصة — فيما مضى — استخدام الجراح للقفاز ؛ كي يصلوا بها إلى شيء عميق دقيق ، في كيان الإنسان . . . ولم يجعلوها قفاز للمتعة أو الزينة ، يجذب النفس ، ويخلب اللب . . . ومع ذلك : فقد انتهوا إلى التجرد بعض الشيء من العنصر القصصي ؛ ليعرضوا حقيقة الإنسان ، ومشكلات الزمان في قالب أدبي طليق ، هو أحياناً قالب المذكرات ، أو اليوميات الحقيقية ، التي لا خيال فيها ، وأحياناً قالب التاريخ ، أو المقالة ، أو البحث الذي لا اختراع فيه ؛ كما جرت أخيراً في الصحف الأوروبية مناقشة بين بعض الأدباء البارزين ، موضوعها هذا السؤال : « هل ماتت القصة باعتبارها من فروع الأدب ؟ . . . هل هي في طريق الموت ؟ . . . وكان المؤيدون لفكرة موتها ، يقولون : إن الأدب ليس في حاجة إليها ؛ لأنها بطبيعتها الخاصة لا تستطيع أن

تقول كل شئ...! والأداة التي لا تستطيع في الأدب أن تقول كل الحقيقة، سيقضى عليها الأدب بالخروج من دولته... والمقصود بذلك أن القصة لها حدودها الضيقة الجبسة في إطار «حدوته» ممتعة، فهي لا يمكنها في كل الأحوال الاضطلاع بمهمة التعمق في بحث قضايا الإنسان الكبرى... تلك المهمة التي تميز الأدب الكبير!...

تقابل ذلك بؤادر اتجاه آخر في محيط القصة: ذلك أنها وقد أيقنت أن الأدب هو التعبير الأعلى للقيم الخالدة في الحياة والإنسان؛ مما يحتاج إلى ثقافة بعيدة الأفق، ودراسة للإنسانية، رحبة المحيط، عميقة الجذور!... في حين أن القصة المجردة لا تحتاج إلى كل هذه الأسباب؛ لتصل مباشرة إلى هدفها من إمتاع الجمهور، فقد أصبحت القصة اليوم، بمعناها الشائع، وهدفها المقتصر على الإمتاع العابر؛ هي الميدان الأعظم لنبوغ النساء!... فما من أحد رأى نجاح «ذهب مع الريح»، أو «عنبر إلى الأبد»، أو قصص «فيكي باوم»!... ومن يدرى ربما أثبت لنا الغد أن القصة لن تكون إلا «أدب» النساء!... لأنهن بطبعهن يحذرن ملاحظة التفاصيل الدقيقة لشئون الحياة اليومية، ويُجندن تحليل العواطف الداخلية ولديهن ولع فطري بالاسترسال في الوصف، وسليقة غريزية للإسهاب في القص، ولهن براعة في الإمساك بالقلم، ينسجن به قصة من حكايات بعض الناس؛ كما يمسكن بالإبرة ينسجن بها ثوبا من «التريكو»! إلا أنه قلما تستطيع المرأة أن تكون «أديبة»، أي كاتبة عميقة الثقافة، قوية الذهن، تتناول الإنسانية كلها بنظرة ناقدة، وتحيط بمشكلات عصرها، وتؤثر في تفكير زمناها!...

لكن، أليس من الجائز أن يتم زواج بين «الأدب» و«القصة»؟... ما من ريب في أن هذا شائع الحدوث، غير أن هذا الزواج أيضا شأنه شأن كل

زواج!... كثيرا ما يسيطر فيه طرف على طرف، ويتغلب طبع على طبع؛ فإذا تغلب «الأدب» فنحن أمام فن ناقص، وإذا تغلبت القصة فنحن أمام فن رخيص!... أما إذا حدثت المعجزة — وهي في الواقع معجزة كل أسرة — وتم التوازن التام في هذه الزوجية الموفقة!... وتمشى الأدب في القصة؛ كما يتمشى الروح العميق في التكوين البديع؛ — فنحن إذن أمام معجزة في الفن!... ولكن هذا الزواج السعيد لا يحدث أكثر من مرات قلائل في كل قرن؛ لهذا كانت الآثار الخالدة — في الأدب القصصي — أندر من تكون مناط حكم أو مجال قياس... لكان الطبيعة تغار من كمال تلك الآثار!... فهي تولد كاملة، في لحظات وئام، غفلت عنها عين الطبيعة التي لا تنام!...

حياة الشخصية القصصية

قوة الخلق الفني - لشخصية قصصية - لا تكون فقط في حياتها المتدفقة النابضة داخل القصة نفسها ، بل في حياتها خارج القصة ، في حياتها الممكن استمرارها على وجوه أخرى في رموس الناس !... فتقصة « روميو وجوليت » ، مثلا قد بلغ خلق أشخاصها من القوة حدا يمكن أن يمنحهم حياة جديدة في نفس القارى غير الحياة التى رسمها « شكسبير »... تأملت أخيرا شخصية « جوليت » ، طويلا ، وقلت فى نفسى : إنها لم تكن أول امرأة أحبها « روميو » ؛ فقد أوما إلينا « شكسبير » ، فى مطلع روايته أن « روزالين » كانت هى معبودة « روميو » الأولى. وهما كم حوارا وجيزا بين « بنفوليو » وصديقه العاشق المشهور ، ينبثنا بحقيقة مشاعره ، فى ذلك الحين... قال « بنفوليو » لـ « روميو » :

فى ذلك الحفل المقام فى دار آل « كابوليت » ، سوف تجد « روزالين » ، تلك التى تهيم بها حبا !... وستجد أيضا كل جميلات « فيرونا » ؛ فاذهب إلى هناك ، وصن عينيك عن المحابة والتحيز ، وتأمل مليا من أدلك عليهن ، ولسوف ترغم على الاعتراف بأن بجعتك ليست سوى غراب !... فقال « روميو » لـ « بنفولينو » :

لو كفرت عيني بمن تعبد ، وصرحت بهذا البهتان ؛ - لكان أولى بدموعى أن تنقلب نيرانا مستعرة ، وبعينى أن تحرق - هى ذاتها - كما يحرق الكذابون والسحرة !... امرأة أجمل من محبوبتى ؟ !... منذ أن ولدت الدنيا ؛ - فإن الشمس التى ترى كل شىء ، مارأت لحبيبتى « روزالين » ، نظيرا !...

وذهب « روميو » ، إلى حفل آل « كابوليت » ، متخفيا... وهناك وقع بصره ، لأول

مرة ، على « جوليت » وسأل: عن تكون؟ ... فلم يجبه أحد ... فوقف مشدوها ، يتأملها ، وبصيح في أعماق نفسه :

يا لهذه الروعة ! ... إن ضياءها ليسكشف أضواء المشاعل ! ... يا لهذا الجمال ! ...
 إن حسننها ليتألق في جبين الليل : كما تتألق الجوهرة في أذن غادة حبشية ! ...
 جمال أنف من أن يناله بشر ... وأرق من أن تحويه أرض ! ... إنها لتثير هذا
 الجمع : كأنها حمامة يضاء بين غربان ! ... أعرفت الحب أنا حتى الساعة ؟ ... !
 عيني تقول : « لا » ... إنها أول مرة أبصر فيها الجمال الحق ! ... !

ووقع في قلبه منذ تلك اللحظة ذلك الحب العنيف الذي سجلته الأساطير ،
 وخلدته عبقرية « شكسبير » ، وأصبح اسم « جوليت » على شفثيه ، وعلى لسان الدهر ،
 وشفاه المحبين : — رمز الغرام الذي يجرع كأس المنون للعاشقين ! ... أما
 « روزالين » فقد تلاشى رسمها من رأسه ، وذهب اسمها في النسيان ! ... ولم يعد لها
 مكان في ذاكرته ، ولا ذاكرة الزمان ! ... !

وقاد الحب « روميو » و « جوليت » إلى النهاية المحتومة ، وتزوجا خفية عن عيون
 أهلها المتعادين ، ولعب القدر للتفريق بينهما لعبته المرسومة : — فكانت المأساة
 المعروفة ! ... لقد أراد الراهب الذي عقد قرانهما سرا أن يجمع بينهما ، فأعطى
 « جوليت » المنوم الذي يظهرها بمظهر الموت ، فلما تجرعتة دفنها أهلها في قبر
 الأسرة الفخم ! ... وأقبل « روميو » وقد ظنها ميتة ، وجعل أنها منومة ، فأعد لنفسه
 هو الآخر سما يذيقه نوم الأبد ، ودخل عليها القبر قائلا لجسدها المسجى :

يا حبيبتى ! ... يا زوجتى ! ... ما استطاع الموت أن ينال من جمالك شيئا ! ...
 هاهو ذا الحسن ، لم يزل ، نابضا ابتاج سلطانه ، فوق مرجان ثغرك ، وورد خدك ! ...
 وإن لواءك الأسود ، أيها الموت ، ليقف دونها مخذولا لا يستطيع حراكا ! ... آه

يا «جوليت» المعبودة . لماذا أنت هكذا جميلة ؟ ...! إني لأكاد أعتقد أن الموت نفسه هائم بمفاتن سحره ! ...! إن شبحه حائم حولك في هذا الظلام ؛ لينالك ، ولكنى سأبقى إلى جانبك دائما ! ...!

وأخرج من جرابه قارورة السم وأفرغها في جوفه ، وهو يقول :
« لقد صدقتنى القول أيها الكيميائي ! ...! سمك يسرى في جسدى سريعا ؛ —
قبلة أخيرة ! ...! »

ولثم ثغر «جوليت» ، وسقط غائبا عن الوعي ، ولم يمض قليل حتى انتهى فعل المنوم ، واستيقظت «جوليت» . وأبصرت «روميو» ممددا تحت قدميها ، فأدركت ما حدث ... لقد حسبها ميتة حقا ، فلاحق بها إلى السماء . فنظرت إليه وقالت :
ماذا أرى ؟ ...! كأسا لم تزل يد جيبى قابضة عليها ؟ ...! إنه السم الذى قاده سريعا إلى حتفه ! ...! أهكذا شربت كل ما فيها أيها «الأنانى» ! ...! هلا تركت لحبيبتك «جوليت» قطرة منها ؟ ...! سأعتصر شفتيك بقبلاقي ، عسى أن أرتشف من بينهما قليلا من سم ، يمنحني الموت ، الذى يجمع بينى وبينك دائما ! ...!

وأخذت تلم فمه ، وهى تقول : «شفتك حارتان» ! ...! إلى أن سمعت ضجيجا خارج القبر ، خافت أن تموت منها فرصة الموت ، وأن يحول الناس بينها وبين اللحاق بحبيبها إلى السماء ! ...! فاستلت خنجر «روميو» وطعنت به قلبها طعنة أردتها قتلا ، وسقطت فوق صدره جثة هامدة ! ...!

تلك هى القصة كما سجلتها الأساطير ، وخلدتها عبقرية «شكسبير» ! ...! ولكنى أفترض أن الكيميائي الذى أعطى «روميو» قارورة السم لم يصدقه القول ، وما فعل إلا ما فعله الراهب ، وأعطاه منوما هو الآخر يتهى أثره بعد حين ! ...!

واستيقظ «روميو» فألقى الناس محيطين به ، يذودون عن حياته ، ويمنعونه من

التفكير في الموت ، وقد جردوه من سلاحه وحرسوه ، وعهدوا به إلى الراهب
يلزمه ملازمة ظله ، ويغسل بالنصح الطويل أحزان قلبه ... حتى مرت الأيام
السود ، وعاد إليه بعض صوابه ، وخضع للمحنة واستسلم للقدر ، وبعد عنه شبح
الموت . وتسرب إلى نفسه بصيص العزاء ، وليس أقوى من الزمن سلطانا ،
إذا اجتزنا عتبة قصره المسحور ، نسينا من أمرنا مالا ينسى ! ...

وكانت هناك امرأة سحرتها قصة هذا الغرام — كما سحرت كل نساء « فيرونا » —
فتمنت — كما تمنين — أن تدنو من ذلك العاشق ، الذي وقفت المدينة كلها سدا يحول بينه
وبين الموت لحاقا بمحبوبته ! ... إنها تعض الآن بنان الندم على ما كان من صدها له
وفتورها نحوه فيما سلف ! ... أترأه يحفظ لها في طيات قلبه شيئا من شغفه الماضي ،
دون أن يعي ؟ ! ... ذلك كل أملها الآن ، إذا نفخت في ذلك الرماد ... فمن يدرى ؟ ...
لعل تحته جرة تلهب من أنفاسها ! ... وإذا التهب من جديد نيران حبه الغابر لها
فأى غفر ، بل أى سعادة كتب لها أن تراها ؟ ؟ ... « روميو » الذى ماتت من أجله
« جوليت » ... يصبح لها ، وملسكها ، والهاثم بها ؟ ! ...

كان هذا حلم « روزالين » ! ...

وإذا تمكن حلم من امرأة ، وتمكنت هى منه ، فإن تتركه حتى يغدو حقيقة ! ...
وسعت « روزالين » إلى « روميو » ، وأدنت أنامل عطفها من خده ، لابسة له ثياب
الصديقة الوفية ، التى يحتاج إلى حنانها فى ساعات حزنه . ولبثت بجواره الأيام
والليالى تبدى له إخلاصا بلا غاية ، وتظهر له حبا بلا أمل ، حتى استطاعت أن
تظفر منه ، مع الزمن ، بعاطفة من المودة ، أخذت تنمو فى كل يوم وتكبر وتتقد ،
حتى كادت تلامس المحبة والميل ، وأخيرا ... تزوج « روميو » من « روزالين » ! ...

مضى عام على عقد القران... وأنجب « روميو » طفلا... وبدأ يحس كأنه يتخبط في خيوط الحياة الزوجية، وأنه ليس أكثر من ثور يدور في ساقية الأيام المتشابهة في أنينها، وصياحها، وبكائها، وصمتها، وصخبها... وبدأت « روزالين » ترى « روميو » زوجا ككل الأزواج، لاهو عاشق في قصة، ولا بطل في أسطورة... وجعلت ذات صباح تنأمله وهو يرتدى على عجل ثياب الخروج، مهمل الهندام، أشعت الشعر!... فقالت له متهمكة، وكأنها تخاطب نفسها:

أهذا « روميو » الذى ماتت من أجله « جوليت »؟!...

فالتفت إليها ضجرا:

دعى « جوليت » في قبرها نائمة!...

— ولماذا تنظر إلى بهذا الوجه المتبرم؟!...

— لأنى ضقت ذرعا بهذا الكلام... مامن شيء عندك غير « جوليت »!...

« جوليت »... إني أسمع منك مائة مرة في اليوم اسم « جوليت »!...

— وماذا يغضبك فى هذا... إلا أن يكون فى ذلك فتح لجراح قلبك!...

— لاشأن لك بقلبي!...

— ومن قال لك إني أريد أن يكون لى شأن بقلبك؟!... وهل هو موجود؟!...

إنى أعلم أنه لم يعد لك قلب منذ أن ماتت « جوليت »!...

— لاتحدثنى عنه إذن!...

— إنى لا أفعل سوى شيء واحد، أسائل نفسى دائما لماذا أنت حى؟!... ما فائدة

حياتك؟!... إن أكر غلظة ارتكبتها هو أنك لم تمت مع « جوليت »... كل قيمتك

هى أنك كنت عاشق « جوليت »... أما فيما عدا ذلك فأنت لاتساوى شيئا فى

الرجال!... إنما أنت التفاهة بعينها، والحق، والخول، والغباوة!...

— وصلنا إلى السباب وسلاطة اللسان ؟ ...

— لا أريد شتمك ... فالذنب ذنبي — غلطى هي أنى تزوجتك ...
نظرتى الأولى إليك يوم صددتك كانت هي الصائبة ، ولكن «جوليت» خدعتنى ،
سأحبها الله ، وجعلتنى أراك من خلال عينها ... لقد كانت قصيرة النظر ...
لقد كانت ضعيفة الإدراك بلهاء ...

— اشتمنى أنا ما شئت ، ولكن لا تشتمى ميتة تحت التراب ...

— تدافع عنها ؟ ... ألم أقل إنك لم تزل تحبها ؟ ...

— إني لا أدافع عنها ، بل أدافع عما يليق ، وما ينبغي للموتى من احترام ...
— يا حرارة صوتك ، كلما تعلق الأمر بجوليت ... قلبك هذا البركان الخامد
بين يدي أنظر فى فوهته ، فلا أجد فيه غير فراغ وصقيع ... هذا الجراب
الذى لا يصلح إلا لأن ألقى فيه بكل قاذورات بيتى ... أرى الدخان يتصاعد
منه فجأة عندما يمر بيننا شبح جوليت ...

— إن هذا الدخان ، الذى تقولين عنه ، لا يتصاعد من قلبي ، ولكنه يتصاعد
من حياتى معك تلك التى أصبحت جحيماً ...

— خسئت وخرست ... اذهب عني ... اذهب عني أيها الوقح — بل
أيها الأثيم الذى يرضى أن يعيش مع امرأة لا يحبها ...

— لقد أكدت لك مراراً أنك مخطئة واهمة ؛ إذ تظنين أنى لا أحبك ...

— إنك كاذب ... أنت لم تحبني يوماً ...

— لقد أحبيتك يوماً حباً عنيفاً ...

— يوماً ، .. فيما مضى ... فى الغابر من الأيام ... قبل أن تراها بالطبع ... قبل

أن تعرف «جوليت» ، نعم هي دائماً «جوليت» ... أرايت أنك لا تريد أن تنساها ؟ ...

— لماذا تعذبين نفسك هكذا «يا روزالين»؟ ... أنت التي لا تريد أن تبدأ أن تنسىها؟ ... خذى هذا المنديل ، وكفـكفى دموعك ... ودعيني أكشف لك عن دخيلة قلبي ...!

— أنت كاذب ...! لا أصدق حرفاً مما تقول ...! لن أصدق حرفاً من كلامك ...! ستزعم لي أنك تحبني ؛ كما قلت لي كثيراً هذا العام ، وأن الماضي قد دفن ، وأن حبي قد نبت في قلبك ...! نعم ، وأى نبات ؟ ... كالزهرة التي تنبت في تراب المقبرة ...! ولكن هذا هراء ...! ما أنت إلا زوج يريد السلام في بيته بأى ثمن ، ولو كان الثمن هذه الكذبة الكبرى ...! لا ، لا أستطيع أن أصدق أنك تحبني ، وأن بك قلباً حياً يتسع لي ...! إنما الحب كله له «جوليت» ...! «جوليت» هي حبك الخالد ...! «جوليت» هذه المرأة التي انتزعتك مني ، تلك السارقة التي سرقتك مني - حية وميتة - لا تكف عن تطويقك بذراعيها ...! إنها دائماً هاهنا في بيتي ...! لكأنه بيتها ...! وفراشنا ؛ لكأنه فراش عرسها ...! لا أستطيع لها طرداً ... هذه اللصّة الملعونة ... هذه الدخيلة الملعونة ... هذه الملعونة ...! هذه الملعونة ...!

— وأأسفاه ...! زوجتي ...! زوجتي ، قد جئت ...!

وترك «روميو» منزله ، وخرج هائماً على وجهه في الطرقات يقول لنفسه : نعم ، كان يجب أن أموت بموت «جوليت» ...! لا من أجل الحب ؛ بل من أجل راحة دماغى بعد ذلك ...!

فقد كان هذا الحوار مع «روزالين» يكرر ويعاد في الأسبوع مرات ... وعبثاً حاول هو أن يقنعها بالحقيقة ، وهى أنه يحبها ؛ حباً لا هو بالصاحب ،

ولاهو بالثائر، جبالاً لعلاقة له بحبه الأول العنيف... ولا صلة له بحبه. «جوليت»
 الملتهب!... إنه الحب الزوجي الهادي الدائم!... إنه ليس الحمى الطارئة على
 الأجسام. وهي مريضة!... ولكنها الحرارة الطبيعية المقيمة في الأجسام
 وهي صحيحة!...

ما كان في إمكان «روزالين» أن ترى هذه الحقيقة: لأن بصرها لم يكن
 يرى غير تلك الصفحة الواحدة، في ماضي زوجها، صفحة «جوليت» الرائعة!...
 إنه لمن العسير على امرأة أن تدرك أن هذه الصفحة، لن تبقى خالدة في تاريخ
 رجل!... لقد جلبت «روزالين»، على نفسها وعلى زوجها الشقاء؛ لأنها لم تصدق أن
 «جوليت» كانت حلماً في شباب «روميو»، وأنه ليس في مقدور الإنسان أن
 يعيش في الحلم إلى ما بعد طلوع النهار!...

القدر في الخلق القصصى

ما من قصة من واقع الحياة، يمكن أن تسلم من عنصر «المصادقة»؛ ذلك أن الحياة لا يمكن أن تسمى حياة، بدون أن يسيطر عليها «القدر»؛ فإذا لم يكن هنالك قدر؛ فعنى ذلك أن هنالك فقط عقلا بشريا... والعقل البشرى وحده إذا صنع قصة فإنه يخرجها مخلوقا خياليا، لا يتصل بالحياة؛ فلا بد إذن من المصادقة لوجود القدر؛ لأنهما زوجان لا ينفصلان...

فأمن زوجين خلق أحدهما للآخر، مثل هذين الزوجين... لكأنهما طبق وغطاؤه، والكف وأصابعها، والقلم ومحبرته، والجلاد وسيفه، والجو ادوفارسه؛ عمل أحدهما مرتبط بعمل صاحبه، ولا يبرم أحدهما أمرا إلا بمعونة الآخر... وإنى لأتمثل الزوج - وهو «القدر» - قد جلس ذات ليلة إلى زوجته «المصادقة».. يتسامران... فقال الزوج:

إنى أعجب لحياتنا معا... أنا مثال الصرامه والدقة والحزم، أعيش معك أنت، يامثال الهوى، والطيش، والجنون... فقالت الزوجة:

صف نفسك وصفنى بما تشاء... لاتهمنى الأوصاف والنعوت... ولكن، هل نسيت أنى أنا التى أخرجك دائما من المأزق، وأنتذك من الوردات... متى ذلك؟... إنى ضعيف الذاكرة...

— نعم؛ كمثل الأزراج عند اللزوم، ولكنى أذكرك على الأقل بحادث واحد لا ينسى، وواقعة لا تنكر؛ لأنها مسجلة فى الأساير، يتناولها الشعراء

ويتناقضها الفنانون، من جيل إلى جيل: حادثة «أوديب»... ألا تذكر؟... أوديب الملك، أنسيت يوم جثتي يائسا، عاجزا، متوسلا، تقولى لى: «ماذا أصنع؟ أمامى مخلوق يدعى «أوديب»، مكتوب فى «لوحي» أنه يجب أن يقتل أباه، ويتزوج أمه... كيف يتم هذا الحكم العجيب عليه؟... ماذا أصنع، حتى ينزل به القضاء المكتوب!...؟ عند ذاك، هدأت أنا من روعك، وقلت لك: يا عزيزى القدر... لا تصنع أنت الآن شيئا... دعنى أنا أحوك لك الحوادث، وأنسج لك الظروف... أنسيت كل هذا؟!...»

فقال الزوج:

أما أنك «خياطة» بارعة، فهذا مالا سبيل إلى إنكاره، وهل كنت تريدين أن أعطى زوجة، لا تجيد على الأقل الخياطة والنسج؟... ولكن الذى آخذه عليك هو ذلك المقص الطائش فى يدك...! بعض التانى...! بعض العقل...! لا تكونى هكذا عصبية المزاج...! إنك تلبسين أعمالى - أحيانا - أردية سخيفة التفصيل، سريعة التطير!... لظالما سمعت من ينتقدنى، من الناس بقوله: يا لهذا القدر، الذى يبدو فى صورة بعيدة عن العقل والمنطق...! ولو علم الناس أن العقل والمنطق، لا يمكن أن يكونا من صنع امرأة! - لما اتهموني ظلما...! ولكن أين لهم أن يعلموا أنى متزوج؟...! وأنى متزوج منك أنت يا عزيزتى «مصادفة»؟...! فقلت الزوجة، بهدوء ورفق:

أستطيع أن تدلنى على رداء واحد، لم أتمكن نسجه؟... هل انتقد أحد - على مر الأحقاب - ما صنعت فى «أوديب»؟... قلت لى: إنه يجب أن يقتل أباه، ويتزوج أمه...! فانظر ماذا فعلت أنا! لا يمكن من ذلك: جعلت والديه يعرفان هذا المصير: من أحد العرافين: فيدفعان به. وهو فى المهد، إلى راع: ليسلمه إلى الفناء... ولكن الراعى

أسلمه إلى ملكة عاقر ، في مملكة بعيدة ، حتى شب وهو يعتقد أنه ابن هذه الملكة وزوجها ، ثم جعلته - وهو قتي - يعلم بنبوة العراف ، فيهرب ممن يعتقد أنهما والداه ...! وعندئذ ، جعلت أباء الحقيقي يسافر من مملكته - مع حاشية قليلة العدد - فيتقابل مع ابنه ، وهو لا يعرفه عند مفترق طرق ، ويحدث بينهما نزاع على من يمر قبل الآخر ، ويشتد الشجار إلى حد الضرب ، وهنا جعلت ضربة من يد الابن تنحرف فتصيب أياه ، فيقع جثة هامدة ، ويخلو عرش الملكة ، وتظل أم «أوديب» الحقيقية بلا زوج ...! عند ذاك ، جعلت وحشا غريبا ، يهدد أهل تلك الملكة ، وينفك بشبابها ...! وجعلت الملكة الأرملة ، تعلن إلى الناس أنها تقدم نفسها عروسا لمن يقتل الوحش ، وينجى المدينة من شره ... وهنا جعلت «أوديب» هو الذي يقتل الوحش ، وينال العروس التي هي أمه ...! ماذا في ذلك يخالف العقل أو المنطق؟! ..

فقال الزوج متجنباً الرد على سؤالها :

لا فائدة ...! أهنا لك امرأة تعترف بأن تصرفاتها غير معقولة ...! إنك في كل يوم تفرق بين ما ينبغي أن يتلاقى ، وتجمع بين ما يجب أن يفترق ...! لشد ما يغني أن أرى رجلاً وامرأة ، كل شيء في أحدهما يناسب الآخر ، كل شيء في أحدهما ينأى الآخر ، وهما يعيشان الأعوام - أحدهما على مقربة من الآخر - فما تتدخلين أنت بحركة ، أو بهمسة ، أو بوخزة ؛ لتنبهي أحدهما إلى صاحبه ...! وإذا كل منهما يسير بعد ذلك في طريق ، فتدخلين أنت ، وتقحمين على كل منهما إقحاما - شخما غريبا ، ذا طباع مختلفة متنافرة ، ولا تزالين بهما حتى يجتمعا ، وكل شيء فيهما يصرخ : مستغيثا ، طالبا أن يتعدا بعد السماء عن الأرض ...!

— أنسيت أنتي إنما أسير وفقا لأوامرك ؟ . .

— هذا صحيح . . أنا أصدر الأمر ، وأنت تدبرين ...! أنا آمر بالطعام ، ولكنك

أنت المسئولة عن الألوان إذا تنافرت ، والطهو إذا لم يحسن سبك ! ...
 — كيف تريد أن يكون حسن السبك ، وأنت الذى قلت لى فى الحالة التى ذكرتها :
 مكتوب فى لوحى ، أن هذين الزوجين يجب أن يكونا فى زواجهما شقيين ؟ ...
 فأطرق الزوج ، ولم يجب ؛ وكأن أمرا هاما يشغل باله ، وفجأة رفع رأسه ،
 والتفت إلى زوجته قائلا :

ماعلينا ، ... اسمعى يا عزيزتى « مصادقة » ... أأماى حالة ، أريد أن أختبر فى
 علاجها براعتك ! ... رجل فى تمام صحته ، قد حجز محله فى القطار المتحرك بعد ساعة
 ولكن المكتوب فى لوحى ، أنه سيموت فى الجو ، ذلك اليوم نفسه ، ماذا نصنع ؟ ..
 — ليس أبسط منها حالة ! ... انظر ! .. سأجعله يقابل صديقا ، يحدثه عن وقوع
 تصادم لقطار فيتشام ، وينوى السفر بالطائرة التى علم أن صديقه مسافر بها .
 وإذا لم يكن موت الصديق أيضا مقررآ - فى لوحك ذلك اليوم - فإنى أجعله يؤجل
 سفره ، وينزل لصاحبك عن محله ، وترتفع الطائرة بالرجل ، وتحترق فى الجو بمن
 فيها ! ... مارأيك ؟ ...

فهز الزوج رأسه ، وقال منهدا :

دائما أسلوبك الملتوى كحِوطة العنكبوت ! ... لماذا لا تنزلين صريحة
 صارمة كالصاعقة ! ... ولكنك امرأة ، لا تجدين غير « شغل الإبرة » ...
 فأنفضت الزوجة غاضبة ، ونهضت صائحة :

يا ظلم الأزواج ! ... إن طول العشرة يضجركم وييطركم ! ... ولكنى أقسم لك :
 لو استمر نقدك لى ، على هذه الصورة : - لكففت عن معونتك ، وامتنعت عن هذا
 العمل الذى تسميه « شغل الإبرة » : لأرى ماذا تصنع بمفردك - أنت
 الصارم الحازم ! ...

فراجع الزوج، وأجلس زوجته إلى جانبه، وقال لها برفق :
 مهلا يا عزيزتي « مصادفة » ...! مهلا ...! ترفقي بصحتك ...! لا تكوني
 هكذا عصبية المزاج ...!
 فقالت الزوجة متدلة :

لست عصبية المزاج ...! إن نسيجي الذي تلتقطه، ليس سوى خيال خصب ...!
 أما أنت — بحزمك وعزمك — فضعيف الحيلة، فقير الخيلة ... تريد أن تنزل
 بأحكامك؛ كالسيف الأصم، بلا تمهيد ولا تدبير ...!
 — أحمدُ الله أنكِ معنى؛ لتمهدي وتدبري. أما من قبلة للصالح ...!
 — على شرط ألا تعود؛ فترميني بقلة العقل والمنطق ...!
 وألا تعودى أنتِ فترميني بضعف الحيلة والخيال ...!

وتعانقا وتصالحا، وباتتا ليلتهما متصافين هائنين، إلى أن طلع النهار، وتوالت
 الليالي، ونسي الشرط والوعد. وعاد كل منهما إلى سابق عهده، يبدى رأيه في
 صاحبه، ويعقد في جو الزوجية سحابة، تبرق، وترعد، ثم تنقشع، وهكذا دواليك؛
 لأن تلك هي الحياة التي اصطلح على تسميتها « الحياة الزوجية الموفقة السعيدة »
 حتى إن كان الزوج اسمه « القدر »، والزوجة اسمها « المصادفة » ...!

الفنان والجمهور

هل يجب على الفنان أن يهبط إلى الجمهور، أو أن يصعد إليه الجمهور؟ ... سؤال كثير التردد على شفاه الناس، والإجابة عنه تقتضى شيئاً من التأني؛ فلا بد - قبل كل شيء - أن يكون هنالك «فنان» ... أى إنسان، أقوى في الإدراك، وأسلم في الذوق؛ - من سواد الجماهير ... فإذا انعدم هذا الشرط لم يعد هنالك محل لهبوط، أو صعود ... ولم يبق إذن معنى للسؤال! ... فإذا استوثقنا من أن الفنان موجود، وأنه قائم، بإدراكه، وذوقه، وأسلوبه؛ فوق قمة، يشرف منها على الجموع؛ - فقد حق علينا أن نبحث: أيهما يخطو نحو الآخر حتى يتم اللقاء؟ ... أم الذين يتسلقون إليه الجبل؟ ... أم هو الذى ينزل إليهم السفح؟ ...

قد يكون من الخير أن نلتمس الهداية، عند المبدع الأعظم لهذا الكون! ... لقد أراد - وهو في عليائه - أن يبلغ الناس رسالة. فإذا فعل؟ ... إنه تعالى لم ينتظر من الناس، بمفردهم، صعوداً إليه؛ لأن هذا شاق عليهم؛ ولأنهم في ظلامهم وجهلهم لا يعرفون مسالك الطريق إلى نوره! ... إنهم في حاجة إلى من يمسك بأيديهم، ويقودهم، ويصعد بهم! ... لا بد إذن من النزول بينهم، ولكن من الذى ينزل؟ ... الدين الإسلامى يعلننا أن الذى نزل هو محمد؛ رسولاً من عند الله! ... أما الدين المسيحى فيقول لنا: إن الذى نزل هو الله نفسه؛ متجسداً فى المسيح! ...

مهما يكن من اختلاف فى الدينين، فهما متفقان فى الغاية: أن الله رأى أن يدنو هو من الناس برسالته - لأن يتركهم هم، يصعدون إليها؛ من أَرْضهم! ... لا جدال - إذن - فى أن الفنان لا يستطيع أن يبقى فى القمة، حبيس فيه؛ منتظراً

أن يصعد إليه الجماهير، في جبله الوعر، يحملون المصابيح في أيديهم، ويتصبب العرق من أبدانهم وهم يصيحون به: « أين أنت أيها الفنان المعلق في السحب؟ ...! جئنا نبحث عنك؛ فقد أدركنا بالفراسة، أو بالحدس والتخمين، أنك في ذلك المكان؛ فهل عندك رسالة تبلغنا إياها؟ ...! »

لا يمكن بالطبع أن يقع شيء من ذلك، ولكن المعقول هو أن ينزل ذلك الفنان، حاملاً رسالته تحت إبطه، ليلتمس الناس؛ في مسارحهم، ومشاربهم، وأسواقهم، ومتاجرهم، وملاهيهم؛ ليقول لهم: « أيها الناس! ...! أصغوا إلى لحظة! ...! إلى لم آت لأثقل عليكم، ولا لأضيق وقتكم عبثاً؛ — ولكن معي شيئاً أعرضه: فيه متعة لكم! ...! ولكن، فيه أيضاً تهذيباً لنفوسكم، ورفعاً لمدارككم! ...! »

وهنا تقوم - في وجه الفنان مثل الصعوبة التي قامت في وجه الأنبياء، فالجماهير - أمام النبي أو الفنان - تتفرع عندئذ إلى طائفتين؛ طائفة تحسن الإصغاء إلى لب الرسالة، ولا يشغلها الغث عن السمين، ولا الغلاف المزوق عن الغرض المتكون، ولا الظاهر الشائق عن الباطن المقصود، فتتبع الفنان في كل طريق، وتسلمه قيادها، فيصعد بها الجبل خطوة خطوة، متحاملة على نفسها متمسكة بالصبر، ماسحة عن وجهها غبار الكد وآثار الضجر، مؤمنة بقائدها وبالهدف الذي يسير بها إليه؛ - حتى تجد نفسها - آخر الأمر - قد استوت معه فوق القمة! ...! وطائفة، عامية، عابثة، ما إن ينتهي بها الإصغاء إلى معانٍ أعمق مما تصورت - حتى يطيش حلها، ويذهب صبرها، وتسرع منفضة من حول الفنان، ضاحكة ساخرة، ماوعت من رسالته غير السطح المموه، والقشرة الملونة، والجانب السهل الخفيف، والشكل البراق السخيف، الذي ما قصد به إلا اجتذابها، وإثارة استطلاعها واستدراجها إلى ماني داخله من جوهر مفيد! ...!

هذه الطائفة الأخيرة — من غوغاء الفكر، وكفرة الدين — هي التي تتعب
 الأنبياء والفنانين!... وهي في الفن تتظاهر بمتابعة الفنان، إلى أن يدو عليه
 ميل للجد والصعود؛ فتحزن، وتقف، وتقول له هازلة: «إلى هنا، واطرك يدنا،
 واصعدوحدك!...»، وهي في الدين، تسير النبي، حتى ينهاها عن منكر تريده،
 فتهزأ به، وتقول: «اذهب عنا، واطركنا في لذائذنا!...» تلك هي الطائفة التي كتب
 عليها الضلال في العقيدة، والظلام في الفكر وهي التي لن ترقى إلى قمة أبدا!...

الشجرة الأدبية

من رأى «كارليل» أن «جان جاك روسو» رجل مريض، وأن رغبته المحرقة — في مدح الناس له — قد بلغت حد الجوع، الذي لا يعرف له شبع!... ولقد روى عنه أنه دعى، ذات مساء، إلى حضور رواية تمثل على المسرح، فاشترط على من دعاه أن يذهب متنكراً؛ كما يفعل الملوك، أى يخفى وجوده عن الناس، حتى يكون في زعمه، غلى شيء من الراحة والتحرر والطمأنينة، ولكن الجمهور مالبت أن لمح «جان جاك روسو» في مقعده، ولم يلق بالآ إليه، ولم يحنل بأمره، فثارت ثائرة «روسو»، وضاق صدره طول المساء، وساء خلقه، وغضب إذ خاب تدبيره، وأخطأ حسابه، وعرفه الناس... على أن الذى دعاه ورأى منه هذا الحال؛ — أيقن كل اليقين أن العلة الحقيقية — في غضب «روسو» وثورته — ليست في معرفة الناس له... بل في أنهم عرفوه وتبينوه، ولم ييسدوا له الحفاوة، ولم يستقبلوه بالترحيب!... ويعلق «كارليل» على ذلك بأن طبيعة «روسو» كلها قد سممتها هذه الفكرة المسيطرة — فكرة الشهرة عند الجماهير، وما يقرن بها من مساس بشخصه، وإعلاء أو حط من قدره!...

وإذا تركنا «روسو»، وصدقنا ما قيل في «جوته»، و«بيتهوفن»؛ من أنها كانا يضمران الغيظ، كلما مرا في الطريق معا على جماعة من الناس، تعرفها وتحبها؛ فقد كان كل منهما — فيها روى — يعتقد أن التحية موجهة إليه، وأنه هو المقصود بإيماء الرأس، وإشارة البنان!...

وإذا تركنا كل هؤلاء، ورجعنا إلى أدباء العرب وشعرائهم :- وجدنا كثيرا من أعظمهم يحبون الشهرة، ويفخرون بذيوع الصيت في جموع الناس... وهذا هو «المتنبى»، الذى يقول مباحيا:

أنا مملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
ما هذه الشهرة التى يحبها أكثر العظماء؟...! أهى شئ غير أن تكون معروفا
لأناس لا تعرفهم؟...! وما قيمة ذلك عند رجل عاقل؟...! ما الذى يجب
إليك هذا الوضع الغريب: أن يكون سترك مهتوكا، وأمرك مكشوبا؛ لقوم مجبولين
لك، يحملقون فى وجهك إذا سرت، ويتهايمسون عليك إذا أقبلت، وينبشون فى
أسرارك، ويبدون رأيهم فى حياتك، ويجعلون منك موضوعا للحديث الفارغ
أو الساخر، ويرون من حقهم أن يشرحوك حيا أمام الملأ، وأن يجردوك من
ملابسك فى الطريق العام؛ لأنك كما يقولون: رجل عام...! ليس من حقك
الستر، ولا بد أن تعرض للناس حقيقةك العارية...! أليس هذا الذى يجب
لنفسه هذا الوضع غير مريض أو مجنون؟...!

ما من شك أنه مريض أو مجنون، ذلك الذى يحب راضيا مباحيا أن ينزل عن
ملكياته لنفسه، ويصبح مملوكا لأناس، لا يمتون إليه بصلة، يتصرفون فى أمره كما
يريدون، ويصورونه لأنفسهم وللمجتمع على النحو الذى يحلو لخيالهم السقيم
أو السليم...!

إن المشهور شخص باع الحرية واشترى العبودية، باع حرته فى أن يذهب
حيثما يريد، فلا يجد من يفسر تنقلاته وتفسيرات مختلفة، وباع حرته فى أن
يتصرف كما يشاء، فلا يجد على تصرفاته معلقا، وباع حرته فى أن يراقب الناس ولا يراقبه
أحد، ويطلق لسانه فى كل شئ، فلا يحاسب على ما يقول، ويكون هو السائل،

ولا يكون هو المسئول ...!

لماذا تباع هذه الحرية - إذن - في سبيل هذه العبودية ؟

لا يوجد غير سبيين :

إما أن الشخص يتعرض للشهرة ، أو يسعى إليها ، وهو عالم بعواقبها السيئة ، وأعبائها الثقيلة ، ولكنه لا يجد منها بدا في سبيل غاية أسمى : كتبليغ رسالة إلى الناس ، أو نشر أفكار في المجتمع ؛ فمثلته مثل الذي يسعى إلى هدف دونه بحر ، فلا يجد مفرا من أن يرضى بخلع ملابسه ، ويتجرد ليخوض الماء ...!

ولما أن الشخص يحب الشهرة لذاتها ويجعلها هي الهدف ، ولا يهمه أن يصل بعدها إلى شيء ؛ فمثلته هنا مثل الذي يتجرد ويقذف بنفسه في البحر ، لا ليعبه إلى غاية أخرى ، بل ليظل فيه سابحا ، أو غارقا وهو بذلك وحده ناعم راض مسرور ... لا يريد من هذا البحر خروجا ، ولا يريد من هذه العبودية انطلاقا ، يتأذى إذا صدف عنه بحر المجتمع ، فلم يصفق لمجيئه ، ولم يهتز لذهابه ...!

حب الشهرة على هذا النحو مرض من غير ريب وهو يسبب آلاما نفسية لصاحبه وهو أشد فتكا في العظماء والأقوياء من البشر - أيت العلم الحديث يكشف له علاجاً ...!

شخص الفنان

جلسنا أمام البحر ، تهب علينا أنسام « سبتمبر » الباردة اللطيفة ؛ كأنها الطيور المهاجرة ، هاربة من طلائع الزمهرير إلى الجنوب ...! هذا أوان « السمان » بدأ موسمه وكثر باعته ، يحملون الأقفاص ، ويصيحون من حولنا منادين ...
قال صاحبي :

يا لهذا السمان القوى ! ...! إنه يقطع هذا البحر العظيم طائرا في الفضاء ، لا يستريح على أرض ، ولا يتنفس فوق شجرة ...! أذكر أني في مستهل العمر تمنيت لو أن خلقني الله طائرا من الطيور ، أما وقد خلقت إنسانا ؛ فقد كان الأولى بي أن أكون على الأقل فنانا — ولكن الحياة جرفتني في نهريها الضيق ...!
— وما الذي كان يغريك بتلك الأمنية ؟

— أمر واحد كان يجذبني ويغريني : حرية الفنان ! ... إن الحرية لقوة ...! تلك الحرية التي هي أتم امتياز ، منحه المجتمع لرجل الفن ! ... أو قل إنه هو الذي استخلص هذه الحرية بيده ...!

فالمجتمع لا يستطيع أن يمنح الفنان شيئا — إنما الفنان هو الذي هرب من قيود الناس الأرضية ، وخرج على أوضاعهم السطحية ، وزهد في قيمهم المادية ، وارتفع إلى قيم أخرى أسمى وأبقى ؛ — وبذلك استطاع أن يطير إلى الأعلى ؛ لأن وظيفته التحليق فوق رهوس الناس ، ليرى ما لا تراه عيونهم ...!

* * *

قالها الصديق بحرارة وإيمان وسكت منتظرا مني الكلام ...! ولكنني رفعت بصري إلى سرب من طير « النورس » الأبيض ، يسطر أجنحته على صدر الماء ، وقلت :

هذا «النورس» يرى الأسماك تسبح في الأعماق ، وهي لا تراه! ... تلك هي الحرية حقاً... ولكن الأسماك الآدمية لا تلبث أن تلتح ، وهي في غمرتها ، الفنان في ارتفاعه ، فتصوب إليه نظرات الأفاعى حتى يسقط في أفواهها! ... كم من الفنانين استطاع أن يحتفظ بقيمه العليا طويلاً ؟ ...

— الفنان الذى يسقط ، ليس هو الفنان الحق! ...

— هذا صحيح! ... ولكن المؤلم أن ترى فناناً ، يجاهد في سبيل المحافظة على قيمه العليا ؛ كما يجاهد الطير ليبقى في علوه ، ولكن الناس لا يتركونه يجاهد ضد نفسه ، وضد جاذبية الأرض ، بل يسرعون إليه ، مدفوعين بالفضول ، يتناولونه بالنبش في ريش حياته ، والتفتيش في حنايا وجوده وشخصه ؛ — يفسرون كل شيء فيه بمقاييسهم ، ويخضعون كل بادرة منه إلى أوضاعهم ، ولا يدعونه حتى يربطوا رجله بخيط يلهون به ، ويشدونهم إليهم كلما آنسوا فيه ميلاً للهرب .. لا ، يا صاحبي! ... لا نتحدث كثيراً عن حرية الفنان! .

وسكت لحظة أتأمل موج البحر ، ثم مضيت أقول :

قرأت يوماً لأحد الأدباء الغابرين هذه العبارة : «حبذا لو قرأ الناس مؤلفاتي ؛ كالألو كانت وجدت ، داخل زجاجة مختومة ، مملقة بين أمواج اليم! ... هذا أديب يتمنى أن يلقى إلى الناس إنتاجه ، ولا يلقى إليهم بشخصه! ... لقد كانت هذه خطي دائماً في مطالعة آثار الفن! ... ما أذكر أنى قرأت مرة مقدمة عمل فى! ... بل كنت أنصرف قدماً إلى العمل ذاته ، إنى لا أعرف شيئاً كثيراً عن حياة «شكسبير» ، ولم أعن بالنظر في حياة «الفردوسى» ، أو «الجاحظ»! ... ولم أحاول أن أقرأ حياة «جوته» ، أو «مولير»! ... كل هؤلاء تغذيت بكثير من إنتاجهم - قبل أن أعرف من

هم — بل لقد منعت نفسى منعا صارما عن قراءة حياة « فاجنر » بقلبه ، وهى فى ثلاثة أجزاء ملأى بالطريف الغريب ، ولم تهزنى حياة « بيتهوفن » ولا حياة « موزار » ، ولكنى حفظت الكثير من موسيقاهم عن ظهر قلب !... إني أريد أن أكتشف الكنوز بنفسى ، ولا أريد غواصا معى يخنق أنفاسى بثرثته ، أو دليلا يقودنى حسب هواه !...

وغرقت فى الصمت ... وأطرق الصديق لحظة ... ولكنه مالبث أن التفت إلى قائلا بنبرة شك :

لا .. لست من رأيك فى هذا !... وهل يستطيع الناس أن يقدروا الأثر الفنى ، دون أن يعرفوا صانعه ؟... لو لم ندرس حياة الكثير من الفنانين ونلم بظروف إنتاجهم ، ونعرف تفكيرهم وفلسفتهم وبيئتهم ونشأتهم واتجاهاتهم ... أكان من الممكن أن نفهم مرامى أعمالهم ؟... إليك مثالا بسيطا : الفن الإغريق ، ماسر تقدير العالم له ؟... أليس لما يعرفه الناس عن حياة أكثر خالقيه ؟... ماذا يحدث لو جهلنا كل شيء عن شخصية فنانين ؛ من أمثال « فيدياس » ، أو « براكسيثيل » ، ؟... — لا يحدث شيء ... وأبادر فأطرح عليك هذا السؤال :

ألا تقدر أنت - ويقدر العالم كله معك - ذلك التمثال المصرى البديع « رأس « نفر تى » ؟... أأتستطيع أن أخبرنى من صانعه ؟ .. و « أبو الهول » الرهيب ، أتعرف من ناحته ؟... ١٩ ...

— إذا عرفنا ذلك كان أدعى إلى زيادة متعتنا الفنية !...

— أأنظن ذلك ؟... أم أنا بأرتاب فيما تقول ... ماذا يحدث لو عرفنا كل شيء عن الخالق الأعظم ، الذى أبدع الكون المنسق العظيم ؟... ١٩ ...

— إن الخالق الأعظم هو نفسه الذى يبعث إلينا برسله ؛ ليعرفونا به تعالى ،
ويصفوه لنا ، ولم يقتصر على ذكائنا وحده فى معرفته. ولم يكتف بقدرتنا المحدودة
على فهم آثاره ، وأعماله ، ومراميه ...!

— وهل استطاع الرسل أن يصفوه لنا على حقيقته ، أو أنهم وصفوه لنا
على تلك الصورة التى توافق عقولنا ، ولا تعلو على إدراكنا ؟ ... إنه لأمر عسير
على الرسل أنفسهم ، قبل أن يكون عسيرا على الناس ...! وإن قليلا من بينهم من
أمكنه التحليق إلى حيث يقبس شعاعا من نور الله ، وأقل من هؤلاء من تمكن
من شرح هذا الشعاع للناس ، على نحو يفهمونه ، ولم يكن فى مقدور الناس أن
يعرفوا عن الله أكثر من أنه جبار قهار ، لطيف غفور ، كريم رحيم ... إلخ ...
صفات إنسانية تدركها مشاعرهم الأدمية ...! لا يا صاحبي ...! إن الناس لا يمكن
أن يتصوروا إلا ما كان على صورتهم ...! وإنهم هم الذين يفرضون عليك الصورة
التي يعرفونها كما لو كانت ثوبا من صنع أيديهم يلبسونك إياه قهرا . هذا مادفع الخالق
الأعظم أيضا إلى تحذير الناس من الخوض فى شخصه ... وحمل رسله على منع
الناس من الاسترسال فى أسئلة خاصة بذاته تعالى - وإذا كان الناس قديرين على
تناول الذات العلية بالقشويہ ، فما بالك بشخص الفنان — وما هو إلا فرد من بينهم ،
يستطيعون أن يقولوا فيه ما يشاءون ؛ حتى من يزعم أنه شارح لشخصه ، ومفسر ، أو
مدون لحياته ، أو مؤرخ ؛ قلما يوفق إلى تقصى الحقيقة فيه ...! إنما هو يجمع تنقمان
تقولات الناس ، إذا لم يكن قد رآه ، فإذا كان من معارفه رسم له صورة من وحي
رأيه الشخصى فيه ، قد يخطئ فيها أكثر مما يصيب ...! لو علمت كيف يكتب التاريخ
لألقيت فى هذا البحر بكل كتب التراجم ...! ثق أنه ليس أصدق من «الآثر الفنى»
وحده ، هو صورة الفنان التى لا تشوه ... هو روحه المنطلق من جوف ردهائه

الدينوى... هذا الرداء الذى لا يستطيع الناس أن يتقو لو افى تفصيله، بما شاء لهم جهلهم
أوز يفهم، أو تحمسهم، أو إغراقهم!... «العمل الفنى» هو وحده الذى يخلق فوق
الآجيال حرا، سليما، بعيدا عن أيدي العابثين، وأفواه الناهشين . هنا حرية الفنان ،
التي ليس له حرية سواها!...

ومر بنا فى تلك اللحظة بائع «سمان» يحمل قفصه وينادى ..
فقلت لصاحبي :

حرية الفنان ، مثل حرية «السمان»!... إنها فى الفترة التي يخلق فيها فوق
البحر... بحر الفن — مهاجرا ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الجنوب إلى الشمال!...
أما فيما عدا ذلك فإنه يهرب من أطباق الثرى . أو الثلوج؛ ليسقط فى أطباق الارز ،
أو الثريد!...

منطق الفنان

المجتمع — هذا الكائن الضخم كالبحر — يحيط بمنارة الفنان ويعلو بسواد أهواجه على صخرتها يريد أن يضمه بين أحضانه... متوهما أنه يغمره بعطفه وحنانه، محاولا أن يخضعه لمنطقه وقوانينه، فإذا أقصى الفنان رأسه عن مستوى الغمر، وأبعده صباحه عن لفحة الموج؛ وتصرف في أمر بوحى من ضوئه الداخلى؛ — حكم عليه المجتمع من الفور بالشذوذ...!

ما من أحد أشد التصاقا بالمنطق كالفنان؛ لأن الفن ذاته منطق...! ما الفن إلا منطق في رداء جميل...! «يتهوفن» في عالم الأصوات هو سيد المنطقيين بلا مرأ...! إنه «أرسطو» الموسيقى...! أنغامه تنساب في منطق عجيب خلاب، مقدماتها تفضى إلى نتائجها الحتمية، وتتسلسل مثل أبرع الأفكار الفلسفية إحكاما...! وإذا كان الخلق صورة من الخالق، فلا بد أن يكون المنطق — وهو روح الفن — من خصائص الفنان...!

كل فنان منطقي مع نفسه، وحياته، وشخصيته، والظروف، اتى فيها: يعمل، وينتج ويخلق...! ولا أستطيع أن أصدق شيئا غير ذلك، ولكنه نوع من المنطق خاص به، ملائم لحياته، وظروفه الخاصة؛ لا علاقة له بالمنطق العام الذى اصطلح عليه المجتمع، وسنه شريعة للناس، بغير تفريق ولا تمييز...!

إن الفنان لا يتقيد بنظرة الناس إلى الأشياء...! لأن الناس تصنع نظارات مصنوعة سلفا، لكل أمر من أمور الدنيا...! أما هو فينظر إلى الأشياء بعينه هو المجردة عن كل منظار، صنع بيد غيره، فيرى بالضرورة غير الذى يراه الآخرون...! إنه يتدع منطقته بنفسه؛ كما يتدع فنه، فإذا أدهشت الناس تصرفاته رموه بالشذوذ...!

قليل من المفكرين، أو المنصفين من يفهم الفنانين... إن من أراد أن يفهم فنانا وجب عليه أن يضع نفسه في مكانه، ويحس إحساسه، ويعرف لون حياته ونشأته وماضيه، وعراكه وجهاده، وميوله ونزعاته؛ — فإذا تعمق في درسه خرج منه يقول: «معقول»... ليس هنالك شذوذا... إنما هو منطق مقبول!...

إن المجتمع يخطئ دائما فهم الفنان، كلما أراد أن يطبق عليه قانونا ثابتا... لطالما سمعنا من يزعم — عن تخطيط وجهل — أن الفنان ينبغي له أن يتزوج؛ لينتج، أو أن يعيش مترهبا؛ ليدع، أو أن يشقى في الحب؛ ليخلق أو أن يذوق الفقر، أو أن ينعم بالثراء... إلخ؛ — كل هذه الأقوال هراء!...

لقد أشبع التاريخ أولئك المتحذلقين تكذيب، وخلد في سجله عباقرة في الفن أنتجوا آيات!... بعضهم وهو عزب، وبعضهم وهو متزوج!... بعضهم وهو في ذلة الفاقة، وبعضهم وهو في نعمة الرخاء!... بعضهم وهو غارق في الحب، وبعضهم وهو محروم من الحب!...

ولطالما توهم الناس أن الفنان الذي ينتج — من أجل المال — يسف، وأن من يعمل — بناء على طلب — يهبط ويسخن!... وهاهو ذا «بيتهوفن» يخلق «السانفونية» التاسعة العظيمة؛ من أجل خمسين جنيها «بناء على طلب» دار من دور النشر الموسيقي!... وهاهو ذا «شكسبير»، كان يحشر أحيانا، في بعض مسرحياته الفكاهية، ما يعجب جماهير الملاعب، ويربح ما يقيم أوده، ويكفل معاشه؛ فلا الإنتاج من أجل المال، ولا العمل على إرضاء الجماهير؛ — منع الفنان الحق أن يخرج في الفن روائع؛ لأن العبقرية إذا تفجرت فإنها تستمد وحيها من السماء ومن الأرض، من الروح ومن المال، من السحب ومن الوحل!... كل شيء لها منبع وحي، ومصدر غذاء...

ليس في الوجود قانون يطبق على الطبيعة الفنية!...

إنها قادرة على الإبداع فى أى ظرف ، وفى كل جال — لاشئ يقتلها ! ...
كل شئ يغذيها ، ويقويها ، وينفعها ... إنها لا تقتل أبداً من الخارج ... ما من شئ فى
الكون يهدم الفنان ، حتى ولا يده ! ... حتى ولا أخطاؤه ، لأن فيه يأكل ، ويطعم ،
ويستفيد من كل ما يصادفه ! ... من العلو ومن الهبوط ، من الفوز ومن الإخفاق ،
من الفضائل ومن الرذائل ! ... من الاعتصام بالشواهد ، ومن التردى فى المساقط
والمهاوى ! ...

شئ واحد يقتل الفنان .. ولا يصيبه إلا من الداخل ، هو : نضوب الزيت
من مصباحه .. وانطفاء جذوته ، وانتهاء رسالته ! ... وهو نفسه لا يعرف ذلك
الموعد ، ولا يتنبأ بذلك الحين ! ... وربما سكت دهرًا ، فإذا الفتيلة تنوهج بلهجة
أخيرة رائعة ، قبل أن تحبو طبيعته الفنية ، وترقد رقدة الأبد ! ...

ليس أثقل — فى نظرى — من أولئك الذين يسألون الفنان : لماذا كف عن إنتاج
الأثار القيمة ؟ ... لو أنهم أعطوا قدرًا من الفهم والعلم ، لأدركوا أن الفنان لا يخلق
بإرادتهم ولا بإرادته ! ... فليسألوا ذلك الجبل الشامخ فوق البحر : بركان « فيزوف » ،
الآشم : متى تضطرم أحشاؤه ؟ ... ومتى يخرج رأسه النور ، وصدره الحمم ؟ ... !

الفنان لايشيخ

لا أنسى تلك المذكرات التي قرأتها منذ سنوات؛ عن «تولستوى» بقلم سكرتيره الذي لازمه في كهولته وشيخوخته!... كان ذلك السكرتير شاباً لم يتخط الثلاثين، وكان حديث عهد بالتخرج في الجامعات، يوم دعى إلى خدمة «تولستوى»!... كتب يصف أول لقاء له بالكاتب العظيم، فقال: إنه ذهب إليه في قريته «ياسنايا بوليانا» حيث مزرعته الواسعة، وهو يرتعد فرقا من رهبة المقابلة!... ويحسب حساباً لما يقول وما لا يقول، ويرتب الكلام بمقدار، والصمت بمقدار؛ فهو أمام عقل من أكبر عقول «أوروبا» في ذلك الوقت!... ومشى متثدماً مضطرباً في طريقه إلى البيت الكبير، فرأى رجلاً أشيب الرأس واللحية في ثياب الفلاحين، يجلس تحت شجرة، فسأله عن «تولستوى»، وأين يكون الساعة؟... في البيت أوفى الحقل؟... فابتسم له الكهل، وأجلسه إلى جواره، وجعل يلاطفه ويحاوره، حتى أنس له الشاب، واطمأن إليه، فقال الكهل على أذن الشاب هامساً: «أنا «تولستوى»!... وطفق السكرتير الشاب، يسرد بعدئذ مفصلاً في صمحات طوال كيف نشأت بينه وبين «تولستوى» صداقة وألفة، واتفاق واتساق، في كل قول وشعور - إلى حد، نسي معه الفارق الذي يفصل بينهما: في السن والفكر، والمقام!... وكلمامرت الأيام بهما، تأكد إحساس الشاب بأن «تولستوى» ليس أكبر منه سناً، وأنه مثله في نحو الثلاثين!... شيء واحد يضحكهما معاً، ويبيكهما معاً، ويشيراهما بهما معاً!... إلى أن كان يوم، هبط فيه القرية أنجال الكاتب العظيم، جاءوا من المدينة، ونزلوا ضيوفاً على أبيهم!... وكانوا في سن الشاب السكرتير؛ فإذا شعور مفاجئ يصدمه

على الفور !... لكأن أولئك الأنجال هم الكهول؛ وكأن أباهم هو الشاب والخبول !...
فقد كان في كلام أولئك الأبناء، وفي حركاتهم وضجحاتهم؛ - ذلك الوقار المتكلف
والجد المصنوع، والبعد عن البساطة والطبيعة، مما حمل السكرتير على الصمت
رهبة منهم، واكتفى بأن نظر إلى «تولستوى» بعينه وكأنه يقول له: فلنصبر عليهم
حتى يرحلوا؛ إنهم أكبر منا سناً !... فيتلقى الجواب نظرة باسممة متواضعة من
الكهل، وكأنه يجيبه موافقا: «أصبت يا صديق !... ما لنا ولهؤلاء المسنين ؟...»

مثل هذا القلب نجده عند «جوته»، فقد بلغ جوته الثمانين، وما شعر بأن
قلبه قد شاخ، وإذا هو يقع في غرام فتاة في الثامنة عشرة، نضرة كالزهرة...
وحاول أصدقائه عبثاً أن يفهموه الموقف، فما ازداد إلا تشبهاً برغبته في الزواج
منها !... إنهم هم الذين لم يفهموه، ولم يدركوا أن هذا الشاعر الشيخ كان له دائماً
قلب شاب !... إنه ليدهشني كيف وقف «جوته» ذلك الموقف الصارم من «هايني» !...
فقد روى «هايني» أنه يوم كان شاعراً شاباً طالب مقابلة «جوته»، شاعر «المايا»
العظيم... فلما أذن له ودخل عليه، وجده صامتا صارماً؛ كتمثال إله ولم يرض
أن يلقى من عليائه بكلمة رقيقة، إلى الشاعر الشاب !... وخرج «هايني» من ذلك
المكان الرهيب، يسخط ويقول: «ما جوته هذا سرى معبد أجوف !...» في
يقيني أن ما بدا من «جوته» يومئذ، لم يكن سوى الرداء التمثيلي المزركش، الذي يحلو
للعبقرية أحياناً أن تدثر فيه دلالها ونفرها !... ولو صبر «هايني» الشاب؛ حتى تتوثق
الآلفة بينه وبين الشاعر الكبير؛ - لرأى العبقرية قد خرجت له عارية من رداؤها
الرسمى... فإذا في جوفها قلب بسيط طيب صاف فياض بالرحمة نابض بالشباب...
ذلك أن الممتازين من الرجال لهم دائماً هذه الصفة:
إنهم يخلقون وبين ضلوعهم قلوب لا تشيخ !...

أدركتة حرفه الأدب

كتب « فولتير » إلى شاب ، يريد الاشتغال بالشعر والأدب رسالة ، يبصره فيها
بمتاعب هذه الحرفة - جاء فيها هذا القول :

« استعدادك الأدبي قوى ، مامن سبيل الى مقاومته أو إلى الشك فيه ؛ فالحلّة
يجب أن تفرز شهدا ، والدودة يجب أن تنسج حريرا ، ومسيو « ريومير » العالم
الطبيعي يجب أن يشرحها ، وأنت يجب أن تنشّد فيها شعرا ... ستكون شاعرا
وأديبا ، لا لأنك تريد هـذا ، بل لأن الطبيعة أرادت ... ولكنك تخدع نفسك ، إذا
حسبت راحة البال ستكون من نصيبك ؛ فحرفة الأدب - وخصوصا لمن ابتلى
بالعبقريّة - ذات طريق أفعم بالأشواك من طريق الثراء .. فإذا شاء الحظ العاثر
أن تكون محدود الموهبة ، قليل الحظ من التفوق - وهو مالا أعتقه فيك - فأمامك
ندم سيلازمك طول العمر ! ... وإذا كنت ممتازا فائزا ، فأمامك خصوم وأعداء
سينبتون من حولك ! ... إنك ستسير على حافة هاوية ، بين الحقد والاحتقار ! ...
قد تسألني : ولماذا أتعرض للحقد ؟ ... ألاني صنعت قصيدة بليغة ، أو مسرحية
رفيعة ، أو كتابا في التاريخ نفيسا ، أو حاولت أن أستثير وأثير الآخرين ؟ ... نعم ،
يا صديقي ! ... من أجل هذا ، ولهذا ستجلب على نفسك الشقاء إلى آخر الدهر ،
ولنفرض أنك أنشأت مؤلفا رائعا ، فإنك لابد لك من أن تهجر الراحة التي
تعرش على بيتك ؛ لتبحث عن يفحص لك عمالك ، ويعينك على نشره بين الناس ! ...
فإذا كان ذا أفكار تخالف أفكارك ، أو لم يكن صديقا لأصدقائك ، أو كان بالمصادفة

في جانب منافسيك وحسادك، فإنك لن تظفر منه بمعونة ولن يكون حالك معه خيرا من حال رجل يبحث عن وظيفة في دوائر المال، وهو متجرد من وساطة النساء... ولنفرض أنك، بعد عام قضيته — بين رفض ومفاوضة — نجحت آخر الأمر في طبع كتابك، فما الذي سيكون ؟ ... لا مفركك من أحد أمرين : إما أن تنجح في كم أفواه تلك الكلاب الحارسة لباب الأدب، وإما أن تجعلها تنجح في جانبك وتزوج لبضاعتك ! ... وفي «فرنسا» ثلاث مجلات أدبية أو أربع، ومثل هذا العدد في «هولندا» .. وهي تختلف في اتجاهاتها، ومواقفها، وتحزبها .. ولاصحاب هذه الصحف مصلحة في أن يجعلوها ساخرة .. وللحررين فيها رغبة في أن يتملقوا طبيعة البخل والخبث، التي فطر عليها الجمهور ! ...

وأنت تريد أن تقرر لك طول الشهرة، فلا يحصى لك من مداينة الكتاب، ومصانعة الحماة، وبمالة رجال الدين وأهل العلم، بل أهل التجارة، حتى الباعة الجوانين ! .. وبرغم كل هذا الحرص منك، فلن يمنع ذلك صحفيا من الصحفيين أن يتناولك بالنهش والتمزيق ! ...

ومضى «فولتير»، مسترسلا في مثل هذا القول، حتى ختم رسالته بقوله :
« ما هدى من كل هذا النصيح الطويل ؟ ... أهو صرفك عن طريق الأدب ؟ كلا ...
فليس لي أن أقف في وجه القدر، ولكنني أردت فقط أن أحملك على التريث والصبر ! ... »

* * *

ليس من الضروري أن يكون الإنسان « فولتير » : حتى يصادف مثل هذه المشاهد، من حين إلى حين ! ... فلقد قال لي شاب ذات يوم :
« الأدب يأسى في دمي ! ... وأنا دائما تائه النفس، موزع الفكر، هائم الخيال ...
لا أتحكم في وقتي ؛ فهو يتمزق بفترات طويلة من السباحات، والسرعات، والتحليق في الفضاء ! ... »

مامن شك في أن هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الصحف ، التي تصور « الأديب » : في تلك الرسوم الكاريكاتورية : شخصاً مذهبولاً ، مخبولاً ، لا يعرف الفرق بين رأسه وقدمه ! ... فيؤخذ هذا الهذر على أنه حقيقة ، ويقع في وهم الشبان أن تلك هي علامة الأديب ، الذي خلق الأدب في دمه ! ... ومتى شاع هذا الوهم فيهم ، صعب إقناعهم بأن الفكر صحو لا نوم ، وأن المفكر هو أشد الناس يقظة ؛ لأنه يجب أن يرى للناس مالم يروا ، وأن يبصرهم بلم يبصروا ، وأن ينههم ويهديهم : وهو مكتمل العقل متفتق الذهن ، متسع الأفق ، والحيلة ، والمعرفة ، والتجارب ! ... لمثل هذا الشاب أقول : عش أولاً إنساناً صحيحاً ؛ لتستطيع بعدئذ أن تفكر للناس تفكيراً صحيحاً ! ...

ثم هنالك سؤال ، يجب أن يطرح على مثل هذا الشاب :

ما الذي يغريك بحرفة الأدب أو مهنة الفكر ؟ ...

إذا كان الجواب : بريق الشهرة ! ... فليعلم أن الشهرة ، تصاحب الامتياز في كل مهنة أخرى ! ... على أن الشهرة في كل مهنة تقترن بها الثروة ، إلا شهرة الأديب أو المفكر ؛ فالطبيب المشهور ، أو المهندس المشهور ، أو حتى المطرب ، والحاوي ، والمهرج ، إذا ذاع لهم صيت ؛ — جاءهم الصيت بالمال الوافر ! ... أما المفكر الشهير ، فقليل يستطيع أن يجمع من تفكيره مالا ! ...

الهدف للأديب ، أو العالم ، أو الفنان الحق ، هو : أن يعيش ؛ لينتج ثروة فكرية ! ... أما الهدف للآخرين فهو : أن ينتجوا ؛ ليعيشوا في ثروة مادية ! ...

يجب أن يكون ذلك مفهوماً لكل شاب ، قبل أن يقدم على الانقطاع لهذه الحرفة ! ... وإن أكثر رجال الأدب ، حتى في بلادنا ، لم يظفروا بمال يذكر ، وحادوا عن طرق جمع الثروة ، وقد يسرتها الحرب الأخيرة ، لكل من سعى إليها ، حتى من الغوغاء .

والجهال والحقى... وكرسوا جهودهم للواجب المفروض عليهم . أو الذى فرضوه
 هم على أنفسهم؛ طمعا فى ماذا؟... لست أدرى!... ربما كان الجزء الحقيقى للفكر
 هو لذة التفكير ذاتها!... ولذة الكشف عن تلك الأسرار، التى تزخر بها نفسه
 ونفس الإنسانية!...

إن حقيقة رجل الفكر تتمثل لى فى هذه الصورة البسيطة : صورة قاعة ،
 متسعة ، معلق بـحيطانها عديد من الساعات الدقاقة!... تلك هى الدنيا، وقد تعلق بها
 جموع الناس!... هكذا تمضى الحياة ؛ بناسها فوق حائطها : يسرون فى مجراهم ،
 ويدقون دقات الحظ أو المصير فى أوقاتهم ، ثم يقفون وقفهم الأخيرة ، وقد
 سكن محركهم ، وانهى أجلهم!...

ساعة واحدة من بين ساعات الحائط ، تركت مكانها من الجدار ، وكشفت
 عنها الغطاء ، ولم تحفل بالسير كما يسير غيرها ، ولا طربت لرنين الدقات كما طربت
 البقية ؛ بل جعلت همها وشاغلها فحص نفسها من الداخل!... فنشرت التروس ،
 وطارحت الأجراس ، وفسكت الأجزاء ، وحلت المحركات ، وطفقت - بدافع الفضول ،
 أو بياعث الرغبة فى المعرفة والنور - تدرس عمل كل ترس ، وجزء ، وآلة ، وعقرب ؛ -
 لتقول - بعد ذلك - لبقية الساعات المعلقة السائرة فى طريقها ، مغلقة البصر ، محجبة
 الوجه بغطاء الزجاج :

هل عرفتم من أتم؟... وما نبضاتكم؟... ومادقات قلوبكم؟... وكيف
 تسرون؟...

الأدب والسعادة

يقال أحيانا : إن مهمة الأدب هي إسعاد الناس ، أو معاوتهم على بلوغ السعادة . .
ربما كان هذا صحيحاً ، لو عرفنا أولاً : ما هي السعادة ؟ ...
أريد أن أتصور هذه الفكرة الخيالية : البشر يضجون على هذه الأرض ،
ويصيحون طالبين : « السعادة » ، وقد انقسموا فريقين : فريق يراها في العدالة
الاجتماعية ، والمساواة الإنسانية ، وفريق يراها في الثراء الفردي والإنتاج الواسع . .
واشتد الخلاف بين الفريقين ، وأيقن كل منهما أن الآخر ، هو الذي يحول بينه
وبين « السعادة » التي يحلم بها البشر : فأخذ يهتان معدات الحرب ، غير حافلين
بتدمير الأرض ، في سبيل الهدف ! ...

وعلا صخبهما حتى بلغ السماء ، فقالت الملائكة :

سيدمرون الأرض : من أجل « السعادة » ! ...

فنزل عليهم صوت من عليين :

أعطوهم ما يريدون ! ...

وعندئذ حدثت في الأرض معجزة : فقد انقلبت الصحارى جنات واسعة ،
جارية الأنهار ، دانية القطوف ، شبيهة الثمار ! ... وزالت الفوارق بين الناس فإذا كل
فرد غني ثرى ، ولم يعد هناك ظالم ولا مظلوم ، ولا سليم ولا سقيم : - فالجميع في صحة
ورفاهية ، وسلامة ، وعافية ! ... والمستوى الاجتماعي والعقلي ، والروحي : - مرتفع للجميع :
« الكل سادة ، والكل أحرار ! ... إنه العالم المثالي ، الذي كان ينشده الفلاسفة والحكماء ! ...
ومرت على الناس لحظة ، شملهم فيها العجب والذهول . وجعلوا ينظرون إلى

حياتهم الجديدة ، وكأنهم لا يصدقون ! ... كل شيء في متناول أيديهم : الرزق موفور ،
والصحة دائمة ، والحرية قائمة ! ... مامن مطلب إذن يسعون إليه ... ومامن أمر
يشكون منه ، إنها السعادة ! ... نعم ، هي السعادة ! ...

وهكذا غرقوا لحظة في سعادتهم ، فرحين ، مهللين ! ...

إلى أن استيقظوا ، بعد حين ، وهم يقولون :

وبعد ؟ ! . .

وكشفت لهم هذه الكلمة فجأة ، عن هول مجهول ! ... فصاحوا في الأرض :

وبعد ؟ ... وبعد ؟ ... وبعد ؟ ...

وقعدوا يتأملون حائلين :

وبعد ، ألا يوجد غد ؟ ... وما قيمة الغد ، إذا لم يحدث فيه شيء ؟ ! ...

وما هو الشيء الذي يجب أن يحدث ؟ ... كل شيء قد حدث ... الحرية ،

الثروة ، الصحة ! ...

واستولت عليهم هذه الفكرة المروعة فثاروا :

لا يوجد غد ، لا يوجد أمل ، لا يوجد كفاح ، لا يوجد عمل ! ...

ومشوا في مسالك الأرض يرددون ذلك القول : كأنه نشيد ! ... وقد أحسوا بعض

الراحة الخفية ، وهم يثيرون هذه الثورة : لقد وجدوا أخيرا — منذ أن ابتلوا

« بالسعادة » — شيئا يشكون منه ! ... لقد عرفوا حلاوة الشكوى مرة أخرى ! ...

نعم ، لقد أدركوا أنهم سجناء ! ... سجناء سعادتهم ! ... إنهم خلقوا ؛ ليكون لهم

غد ! ... غد يعطيهم شيئا ، هو ثمرة عمل اليوم ... غده هو في نظرهم رمز التقدم ، ولكنهم

لا يتقدموا ؛ لأن كل تقدم قد تم — أى أن كل شيء قد وقف ! ... وما دام كل شيء

قد وقف ؛ فهو إذن الموت ! ... هم إذن أموات ، هادئون في قبور سعادتهم ! ...

أترى السماء قد أعطتهم « الموت » بدلا من « السعادة » .. أم أن هذه السعادة الكاملة هي نوع من الموت ؟ ...

ولكن الموتى لا يشكون ولا يشعرون ، وهم قد اكتشفوا في نفوسهم هذا الخيط الضئيل ، من خيوط الحياة : الشكوى ، والثورة ... فهناك إذن أمل ... لكن ، إلى من يتجهون بهذه الشكوى ؟ ...

وهنا رفعوا جميعاً رؤوسهم إلى السماء صائحين :
أيها السماء ! ... رحمة بنا ولطفاً ! ... ارفعى عنا هذه السعادة ! ...
فسمعوا صوتاً يأتي من عليين :

تريدون الفقر ؟ ...

فقالوا جميعاً :

نعم ! ... لنكسح من أجل الغنى ! ...
فقال الصوت .

تريدون المرض ؟ ...

فقالوا جميعاً :

نعم ! ... لنقاوم من أجل الصحة ! ...
فقال الصوت :

تريدون العبودية ؟ ...

فقالوا جميعاً :

نعم ! ... لنكافح من أجل الحرية ! ...
فقال الصوت :

وإذا عدتم إلى الشكوى ؟ ...

فقالوا أجمعون :

سنعود إلى الشكوى ؛ لأننا بها نطلب ونأمل ونعمل !... وبالطلب ، والأمل ،
والعمل ؛ نسير ، ونتقدم ، ونتطور... وبالسير ، والتقدم والتطور ، يكون لنا أمس ، ويوم ،
وغد !... وبالأمس ، واليوم ، والغد ؛ نعيش !... نعيش !... نعيش !...

فقال الصوت :

والسعادة ؟ ...

فقالوا جميعهم :

هى شىء يأتينا من داخل أنفسنا ، لا من الخارج !...
فقال الصوت ، وهو يخفت ، ويرتفع ، وينقطع :
لعلكم الآن قد فهمتم حكمة الخالق !...

* * *

نعم !... هنا مهمة الأدب !... هى أن يعين الناس على تفهم حكمة الخلق ، وروح
الوجود !... وإفهام البشر أن السعادة عمل ، وكفاح ، وتقدم ، وتطور !...

الأدب ومصير العالم

عندما نشرت « سليمان الحكيم » عام ١٩٤٣ ، لم يكن قد وقع بعد ذلك الحدث العظيم الذى هز البشرية ، وهو انطلاق تلك القوة الهائلة من الذرة ؛ كما انطلق « الجنى » من القمم ... ولم تكن الحرب القائمة الدائمة فى أغوار الإنسان ، قد أسفرت عن وجهها الحقيقى ؟ ... تلك الحرب بين غريزة السيطرة والطموح ، التى تمتطى « القدرة » الجاحمة ، وبين الحكمة « العاقلة » ، التى تريد أن تمسك بأعنه المطية الخطرة ! ...

اليوم يخيل إلى أنى تنبأت بذلك قبل حدوثه ، وقصدت فى القصة تصور ذلك الصراع الدائر الآن ، على مسرح الدنيا ، الذى كاد ميزانه يميل بنا إلى الهاوية ! ... فالجنى المنطلق من القمم ، هو المتسلط الساعة على النفوس ، والقوة عمياء ! ... ما نالها أحد ، حتى اندفع يدوس بها الآخرين ! ... والقدرة مغرية — ماملكها أحد حتى بادر إلى استخدامها — فيما ينبغى ومالا ينبغى ! ...

إن أزمة الإنسانية - الآن وفى كل زمان - هى أنها تتقدم فى وسائل قدرتها ، أسرع مما تتقدم فى وسائل حكمتها ! إن - المخالب فى الإنسان الأول - قد تطورت إلى أسلحة حجرية ، ثم إلى سيف ، ثم إلى مدفع ، ثم إلى قنبلة ذرية ! ... ولكن وسائل تحكمه فى غرائزه ، لم تتطور إلى حد يمكنها ، فى كل الأحيان ، من كبح جماح القدرة المطلقة ! ... لذلك كان لابد دائماً من وقوع كارثة ، أو حدوث إخفاق ؛ حتى يفتن العالم آخر الأمر إلى ضرورة الحكمة ! ...

ولكن المشكلة هى أنه قلما يفتن ، وإن فطن فقلما يستطيع الوقوف فى الوقت

المناسب... إن منظر الإنسان في هذا القرن العشرين ليدعو إلى العجب!...
 فالصورة الحقيقية له هي صورة مخلوق: له ذكاء العالم، وضمير القرصان، وغريزة الحيوان...
 لسنا نطمع، طبعاً — وقد منحنا هذا الكيان الآدمي بخيره وشره — في أن
 نقتل «الجنى» الذى فىنا — بذكائه، وعبقريته، وطموحه، وسلطته؛ — ولكننا نأمل
 أبداً في أن نقيم، من نفوسنا الخيرة، سداً يقف في وجه إغرائه كلها طغى، وأراد
 أن يجمع بنا إلى الهلاك!...

لكن، ما وسيلتنا اليوم في بناء هذا السد؟.. ومن الذى يتولى إقامته
 وتشديده؟... أهم رجال السياسة؟... أم رجال الفكر؟... أم رجال الدين؟...
 ليس رجال السياسة بالطبع!... فهم، مهما تخلص نياتهم، عاجزون عن
 التحرر من مطامع دولهم، وهم المتهمون، وهم المخفقون!... أما رجال الدين
 فغير من يضطلع بهذه المهمة — لولا تلك القيود التى تمنعهم من الخوض في كل
 ميدان!...

بقى رجال الفكر!... ولهم من سعة الأفق، وسمو النزعة الإنسانية، ومن
 التجرد عن الهوى، ومن الحرية في العمل؛ — ما يمكنهم من أداء هذا الواجب العظيم...
 فما الذى يقعدهم؟...

لقد قام منذ أعوام قليلة نحو خمسمائة من رجال الفكر والأدب، على رأسهم
 «أندريه جيد»، و«فرانسوا مورياك»، يطلبون إلى هيئة الأمم المتحدة، العمل على إلغاء
 الحروب؛ باعتبارها وسيلة من وسائل حل المشكلات الدولية!...

هذا عمل طيب، وصيحة قيمة من رجال الفكر والأدب هناك!... ولكن
 مع الأسف!... من الذى سيصغى إليها؟... ومن الذى سيستجيب؟...

أهم ممثلو تلك الأمم التي اجتمعت؛ كما يجتمع وحوش الغاب، عند تقسيم الفريسة، لا يسمع منها إلا زججرة من هنا، وتحفز من هناك؟ ...!

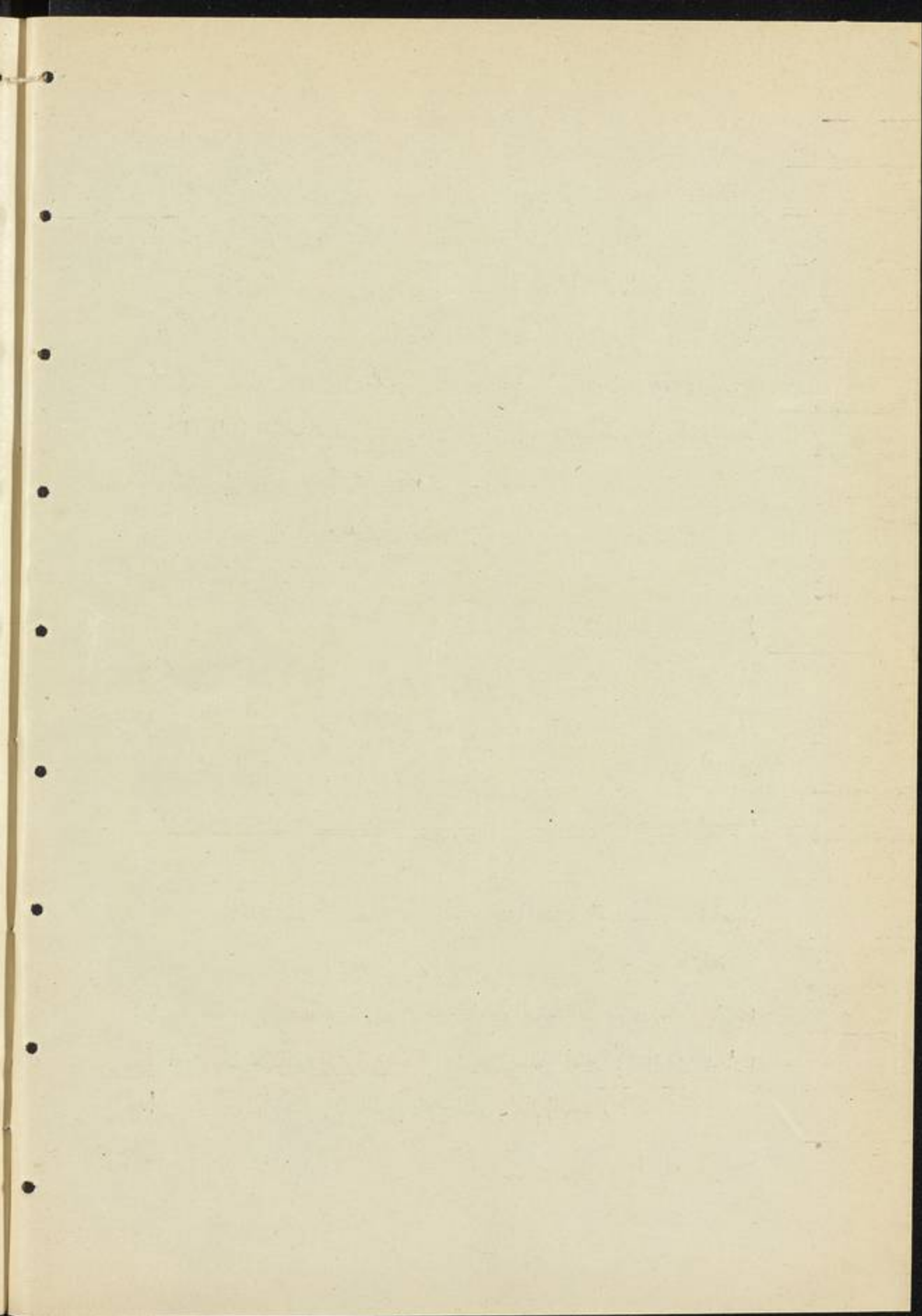
إن إطلاق الصيحات والاحتجاجات، من رجال الفكر، ما عاد يجدى ... لم يبق للإنسانية من طريقة سوى إيفاد رجال الفكر أنفسهم، بدلا من رجال السياسة، إلى حيث يتون في مصير العالم كله ...! يوفدون في هيئة دولية، لها السلطة المطلقة في توجيه هذا العالم ... لا يمثلون في هذه الهيئة مصالح دولهم وحدها؛ بل يمثلون الإنسانية، باعتبارها وحدة لا تتجزأ ...!

ولكن من الذى سيوفدهم بهذه الصفة؟ ...!

هنا المسألة؟ ...

على أن هذه الصعوبة الكبرى لا يجب أن تدعونا إلى اليأس؛ فهذا حلم لا يمكن أن يتحقق في مستقبل قريب ... حسب رجال الفكر أن يؤدوا واجبهم على قدر ما يستطيعون ...! وعلى الأيام أن تنضج ما غرسوه من أفكار ...! جذبا لوقام رجال الفكر والأدب، في مصر والشرق العربى أيضا؛ يرسلون إلى هيئة الأمم مثل هذه الصيحة: - فإن الشرق أولى أن تصدر من مفكره مثل هذه المشاعر الإنسانية ...!

إنى لوائق أن تضامن المفكرين المؤمنين، في أنحاء العالم، بهذه الرسالة العليا - رسالة الحكمة التي تكبح القوة - كفيل على مر الزمن أن يحدث في نفوس البشر فرقة، ربما استطاعت - في يوم من الأيام - أن تسكت صوت القنبلة الذرية؛ فإنى أؤمن بأن للأدب والأدباء مهمة كبرى: هي صيانة المصير الإنساني من الدمار؛ كما أن للأدب والأدباء رسالة عظمى: هي السير بالعالم إلى مصير أفضل ...!



الباب الحادى عشر

الأدب وأجياله

الأجيال تتناسك فى الأمم ؛ كما تتناسك حلقات
السلسلة الفقرية فى الأجسام ...

حلقات الأجيال

الدنيا حلقات ...! كل جيل يجب أن يمد يده إلى الجيل الذي يليه! ... إذ اتهم ذلك
في أمة فقد صح كيانها واستقام؛ شأن الجسم السليم، بسلسلته الفقرية المتماسكة، وإذا
لم يتم ذلك فنحن أمام كائن سقيم، انفصلت حلقات وجوده، وانفصم عمود ظهره،
ولم يعد يصلح للبقاء...! وإذا كان من واجب القادة أن يرسلوا البصر إلى خمس سنوات
أو عشر إلى الأمام، يعدون خلالها برامج الإنتاج؛ - فإن من واجبهم أيضا أن
يعدوا الرجال الذين يخلفونهم في مراكز القيادة...! بهذا لن تكف عجلة
التقدم عن المسير...!

والإنتاج الفكري؛ ككل إنتاج - يجب ألا يشذ عن هذا المبدأ، وعلى
المفكرين أن يرسلوا، هم قبل غيرهم، ذلك النظر البعيد إلى حياة الفكر في خلال
ما يستقبل من أعوام، وأن يعدوا الأمر؛ ليحتل غيرهم ما احتلوا من مقاعد، وأن
يمدوا الطريق أمام المواهب الجديدة؛ لتظهر، وتزهو، وتوتق ثمراتها! ... فإن السؤال
الذي يحول دائما في الخواطر هو: ما الذي سيحدث في العشرة أو العشرين عاما
المقبلة؟ ... هل الأمل معقود على طائفة من الأدباء، يمكن أن تبرز بنوبتها في الصنف
الأول؛ لتتضي في رفع مشعل الأدب والفكر في هذا البلد؟! أو أنه كما يقال: ليس
في الإمكان أبدع مما كان...!

رأيت أن إمكان الإبداع ممتد في كل أوان...! فالإبداع شيء حي متحرك في الزمان
والمكان، لا يتعلن بالماضي وحده، ولكنه كالشجرة يمتد ويتطور في مختلف
الفصول، يبدل ويغير في أوراقه وفي مظاهر إنباءه وإثماره، ماضيه متصل بحاضره،

وحاضره مرتبط بجبل مستقبلي... إن المجهودات تبني فوق المجهودات ، والمواهب تنبع من المواهب ، والإبداع يؤدي إلى إبداع... والثمرة تخرج منها الثمرة ، وكل هذا في فلك يدور ، ولا ينفك عن الدوران إلى آخر الأزمان... ونحن — إذا جلنا اليوم في حديقة الأدب العربي الحديث — وجدنا أشجاراً مملوءة بعصير الحياة ، يانعة بأزهار الفن ، لا ينقصها إلا أن ننظر إليها بعين الرضا ، وأن نتخيل ما ستكون عليه غداً من سموق وارتفاع؛ فلا شيء يفسد الحديقة ويقفرها ويفقرها ؛ مثل أن نرى دائماً أشجارها شجيرات ، لن تكون يوماً ضخمة الجذوع وارقة الظلال... يجب أن نروض عيوننا على أن نرى الأشياء والأشخاص في غدها — لافي حاضرها وحده ، وأن نعرف كيف تقرأ المستقبل . من خلال سطور الحاضر!... إذا استطعنا ذلك ، فما من شك أننا واجدون في مختلف فروع الأدب أقلاماً ، سيكون لها من الصدارة والقيادة في الأعوام العشرة أو العشرين المقبلة ، مثلما كان لأصحاب الصدارة والبروز في العشرة أو العشرين عاماً الماضية... فحديقة الشباب تزخر بأزهار طيبة الأريج ، لا سبيل هنا إلى تعداد صنوفها وألوانها!... وكل ما أردناه هنا هو أن ندعم الأمل في غدنا الأدبي وأن نتساءل عن واجبنا إزاء هذه النخبة من أعلام الغد — أولئك الذين يمسكون بطرف الخيط من وجودنا ؛ ليصبحوا غداً امتدادنا — وأن نحاسب أنفسنا ، نحن الذين تقدمنا هم في حلقة الزمن ، عما صنعناه من أجلهم وعما يجب أن نصنع بالوارثين لنتأجج جهودنا... قبل كل شيء يجب أن نعلم : أهم حقاً في حاجة إلينا ؟... وأي نوع من المعونة هم مفتقرون إليه ؟ .. أهو مجرد اهتمام بأعمالهم ؟... مامن شك في أن الاهتمام خير نافخ في همة الفنان ؛ فإن الفنان لا يصبر طويلاً على الإنتاج لنفسه !... إنه يعمل كي يسمع لعمله صدى... إنه زهرة تعيش بأشعة من نظرات الناس!... أخيراً كانت

تحمل تلك النظرات أم شرا . إن الفنان لا يهدمه الذم ولا القدح بل يدعمه وجوده .
إنما الذى يهدمه حقا « الإهمال » ...! كفته منسوج من العنكبوت ، ومدفنه تحت
غبار النسيان ، ومن خيرة الفنانين من توهم أنه مهمل ، فدفن فنه حيا ، وانطلق
يجد في عمل آخر من أعمال الدنيا ، لاصلة له بأدب ولا بفن ، نخسره الفن والأدب ...!

* * *

لا بد إذن من التنويه بأعمال الفنانين والأدباء ، وإشعارهم من حين إلى حين ،
أن رسالاتهم إلى قلوبنا وعقولنا قد وصلت ، وأنها لجهودهم شاكرون ، ولمزاياتهم
عارفون! ... ولكن ما هي الطريقة ؟ .. مامن شك في أن علينا نحن أن نصنع شيئا
من أجل الذين جاءوا بعدنا ؟ لطالما اتهمنا بالآثرة والانصراف عن مساعدة الآخرين ،
وربما كان في هذا الاتهام بعض الصواب ؛ فقد شغلنا عن ذلك زمنا ... لاعت
آثرة وحب ذات ، بل لتوهم طبيعي أننا نستطيع أن نحمل في الأدب كل الأعباء! ...
ولعل هذا من دوافع العمل المشروعة ؛ أن نتصور أنه لن يتم شيء إلا بأيدينا
نحن! ... فلقد جاهدنا كثيرا ، وأنفقنا أغلب العمر في التسكيب والإعداد ،
واستكمال الأداة الفنية ؛ كما لو كنا نحن وحدنا المنوط بهم فتح الحصون وبناء
القصور! ...

ولكن الحياة علمتنا أننا لن نستطيع أن نفعل أكثر من شق طرق ووضع
أسس ، وعلى غيرنا أن يبنى! ... شعورنا اليوم شعور من يولد له الولد على
كبر! .. إنه يفيق فجأة على نظرة أخرى إلى الأشياء : أنه لن يرى نفسه مركز دنياه ،
المسؤول وحده عن الرسالة! ... ولكنه يرى دنياه حلقات يكمل بعضها البعض ،
ويرى أن صغيره لم يولد عبثا ، بل خلق ليكمل شيئا لن يستطيع هو إتمامه ،
وأن عليه منذ اليوم واجبا آخر غير مجرد الإنتاج — عليه أن يعين خلفه على

الوقوف على قدميه ؛ ليحمل « بدوره » رسالته على منكبيه ...
 غير أن المشكلة التي تخيرنا دائما هي : وسيلة المعونة ... أهي في تجنيب الجيل
 الجديد أخطاءنا ؟ ... أم هي في إشعاره بأخطائه ؟ ... أهي في إعدادة قبل الظهور ؟ ...
 أم في إظهاره قبل الإعداد ؟ ... ثم أولئك الذين قطعوا في قنهم شوطا ، وظهروا
 بعض الظهور ، وبدت مواهبهم متألفة كقطع النور ، أعلينا إزاهم واجب ؟ ...
 ماهو ؟ ... وما السبيل إلى الوفاء به ؟ ... إنا جميعا لعل استعداد أن نؤدى واجبنا ،
 ولن نحجم عنه أبدا - إذا عرفنا الوسائل ، وملكنا الأسباب ...

تبعات الأجيال

كل جيل مسئول عن أفكاره التي قد تتسرب بعلمه ، أو بغير علمه إلى نفوس الأجيال الجديدة .. لذلك يحسن تفسير تلك الأفكار من حين إلى حين ، حتى لا يساء فهمها !...

من ذلك أني رأيت بعض الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب في طلب العلم ، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية ... فإذا هم أحيانا ، يفكرون ويشعرون شعور « محسن » وتفكيره في كتاب « عصفور من الشرق » يوم ذهب بعد الحرب العالمية الأولى إلى الغرب ... فهم يهيمون مثله باحثين هناك عن « الروح » ... وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة : هي روحانية الشرق ، وعظمتها وموضعها ، ومنابعها !... ثم يسировون خلف « محسن » الآخر في كتاب « عودة الروح » ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافي والروحي ، في « رواسب » الآلاف من السنين الكامنة في ضمير مصر ، ريفها وأهلها الصادقين !... ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصري ، ويرددون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته !... إلخ ..

من الخير بالطبع ، أن ندع هذا الشباب يعيش في مثل هذه المشاعر والأفكار !... لكن من الخير أيضا أن نقول له : قدس ماضيك ، دون أن تذهب في ذلك التقديس إلى الحد الذي يجعلك توحد روحك ، دون تلقى كل جديد ينفعك ، ولو كان ذرة من أشعة !... اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث ؛ لتثري نفسك ، ويتسع أفقك !...

هذا قول من واجبي أن أكرره دائماً !...

فالخطر على غدنا كل الخطر ، من ذلك الفهم المحدود لكلمة «طابعنا» ومن تلك الفكرة التي تجعل الشاب يتخذ من روحانيته الشرقية ، ورواسب حضارته المصرية سجوناً وحصوناً ، تعزله عن تفكير العالم ، وتمنعه من المساهمة في النشاط الفكري الإنسانى العام بقوة وشجاعة ، دون أن يرى بهلع فى الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانا تستطيع أن تخطئ بسهولة روحه من بين جنبه !... إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطفئ عليه حضارة من الحضارات ... فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى ؟ ... !

كل من أراد أن يكتب عندنا قصة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح : «قصة مصرية» ... ! وعنى بأن يجرى حوادثها فى الأحياء الوطنية ، ويصوغها صبغاً عفيفاً بالألوان المحلية !... كل ذلك ليقنع نفسه بأنه يصنع فناً قومياً ذا روح مصرية أصيلة ... كل هذا نوع من مركب النقص ، أو من الخوف لا مبرر له ... إن الروح المصرى الأصل يستطيع أن يطبع أى موضوع يمس ، ولو كان فى محيط أجنبي ؛ كما استطاع الروح الإسلامى أن يطبع فن العمارة ، الذى استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين !... وكما استطاع «شكسبير» أن يطبع بشخصيته الأساطير ، التى نقلها عن الإيطاليين ، والدانمركيين ، والشرقيين !...

بل إن جانباً كبيراً من الآداب الكبرى يعتمد أن يتخذ موضوعه بلاداً وأشخاصاً أجنبية عنه !... وهو ممتلئ الثقة بأن الموضوع الأجنبي ، لا يؤثر مقدار شعرة فى لون الطابع الشخصى لهذا الأدب !... هذا هو الأدب القوى الواثق بنفسه ، يطبع بخاتمه ماشاء من موضوعات ، ويدع عليه يرفرف على ماشاء من بلاد !... فكرة أخرى تحتاج إلى تفسير : نشرت منذ أعوام فى صفحة ١٠٥ من كتاب «تحت المصباح الأخضر» هذه السطور :

«... إن سفور المرأة في مصر قد سبق سفور الأديب!... من أجل هذا نرى أن جانباً كبيراً من أدبنا الحديث، مازال أدباً «حبيساً»، تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة!... أدب صناعة، وأدب «علب مخنوقة» من التعبيرات المستعارة، والأساليب، والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين!..

أما أدب الهواء الطلق، أدب التعبير عما في أعماق النفس في حرية وأمانة وإخلاص، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية. هذا الأدب الخارج من القلب؛ ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة، هذا الأدب العالمي الذي يؤثر في نفس كل أمة، وكل جنس، وكل آدمي؛ لأنه ينبع صافياً خالصاً حاراً من قلب آدمي؛ - هذا الأدب حظنا منه قليل، لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل!... إلخ...

هذا كلام جرت به الأقلام اليوم كثيراً... كما رددت الألسن عبارات «الفن والحياة»، و«الفن والشعور»، و«الفن والصدق» إلخ بما يدل على أن معنى الأدب أخذ يتحول إلى الاتجاه المثمر، في مجتمعاتنا المعاصرة... لكن هل معنى ذلك أن نكف عن النظر في كتب الأقدمين؟

أرى من واجبي أيضاً أن أوضح... لقد أحيت وزارة المعارف ذكرى أبي العلاء المعري، وأخرجت كتاب «سقط الزند» فعكفت على مطالعته من جديد!... وخرجت من ذلك أقول: «فن هذا العبقري «رهين المحبسين»... أهو فن... هواء طلق وقلب وشعور وحياة!... أم هو فن رجل ضريح حبيس حجرة مغلقة يمتعنا حقاً!... ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا، بقدر ما يثير تفكيرنا، ولا يهز قلوبنا بقدر ما يهز رؤوسنا، ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة، ولا كنا نبلغها بذهننا بعد كد وجد وغوص!»،

إذن يجب أن أوضح للشباب كلامي المطلق ، الذى نشرته منذ أعوام ، وأن أقول لهم إن الشعور الحار وحده ، بما يثيره من انفعال ؛ — ليس هو كل الفن ، ولا هو خير الفن فى بعض الأحيان : لأن المنفعة التى تأتى عن غير غوص ، هى فى أكثر الأحوال رخيصة... وآلام «فرتر» العاطفية أقل رتبة فى نظر «جوته» نفسه ، وتاريخ الأدب من «فاوست» الذهنية ...

غموض قولى السابق ، أتى من أنى لم أحدد معنى «القلب» ... القلب فى الفن هو الصدق — لا الصدق بمعناه الضيق ، المقصور على الشعور العاطفى أو الوجدانى — بل أيضا صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار ...!

على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى «الحياة» فى الفن ...! ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة... وليس من السهل تصور فن منفصل عن الحياة، إلا أن تتمثل فن الزخرفة الإسلامى ، الذى لا يصور زهورا ، ولا طيورا ، ولا حيوانا... ويقوم على تخطيط هندسى... فن عريق بديع لا شك فيه ، ولكن نسبته إلى الحياة ، التى تعرفها تحتاج إلى مشقة فى التخريج ! .. هذا التجريد الذهنى فى الزخرف الإسلامى ، يماثله التجريد الذهنى فى الفن المصرى القديم ، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم... لقد كان همه أن يحيى الفكرة فى الحجر — لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق ...

مهما يكن من أمر تفضيلنا هذا النوع أو ذاك . فإن اختلاف العقليات والاتجاهات والأنواع فى الأدب والفن ، يحملنا على أن نوسع معنى «الحياة» حتى تشمل كل هذه الألوان من الآداب والفنون ..

لا بد أن تكون «الحياة» فى الفن ليست بعض ما يقع فى العالم الخارجى ، ويضطرب فيه الإنسان بحسه ومشاعره فقط — بل أيضا كل ما يقع فى العالم الداخلى ، ويستخرجه الإنسان بفكره ، وذنه ، وتأملاته...! إن الحياة فى الأدب والفن هى الحياة كلها —

الحياة الكاملة ، بمعناها الواسع العميق — تلك « الحياة » التي تسكن في كل جزء من أجزاء الإنسان الحي في قلبه ، وفي غريزته ، وفي حسه وفي رأسه ! ...

* * *

ذلك بعض من تلك الأفكار التي تركناها ، تسعى من جحور الكتب إلى وعي الشباب دون انتباه ! ... حبذا لو عدنا من حين إلى حين ؛ بأيدينا أو بأيدي غيرنا من النقاد والباحثين ، نراجع مانشرنا ، ونسترجع ماأصدرنا ، لنعيده مفسراً مجدداً ؛ كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدي الناس أوراق العملة القديمة لتردها في حلة جديدة ! ...

انفصال الأجيال

العلاقة بين الأجيال ظاهرة طبيعية ، تسترعى دائما النظر ، وتستوجب الدراسة والبحث ، ولكنها في « مصر » قد اتخذت من الصور ما يثير العجب ، ويحير الفكر ؛ فلقد شاهدت بنفسى صورتين متناقضتين كل التناقض — أما الصورة الأولى فهي التي عاش في إطارها جيلنا ، والأجيال التي سبقتها ، ولا حاجة بي أن أصفها بالقول ! ...
يمكنني أن أورد واقعة واحدة ، فيها كل الدلالة والمغزى :

سمعت المرحوم والدى ، يتحدث عن أبيه باحترام عميق في كل مقام ، وكان أبوه ممن تعلموا في الأزهر ، ثم أقاموا بعدئذ في الريف ، يزرعون ما يملكون من أطيان ! .. وكان والدى قد أوغل في الحلقة الرابعة ورقى إلى منصب القضاء ... ووفق أبوه في ذلك الحين يتصرف في أطيانه بالرهن والبيع ، ثم يعود إلى الشراء والاقتناء ثم يقترض ، ويتعهد ، ويتعاقد ! ... فقال بعض أصدقائه :

هذه تصرفات قانونية ، وابنك قاض من خيرة القضاة ، ألم تستشره ؟ ...
فما كان من الأب إلا أن صاح :

ابنى !؟ أسنشير العيال ؟ ! ...

ولم يكن والدى يجد غضاضة في ذلك القول ... وكان يتلقاه بابتسامة التسامح ، وشعور التوقير . ولو أنه في دخيلة نفسه ما أراه اعتقد أن أباه كان على صواب ! ... إني ما سمعت منه قط نقدا لآبيه فقد كان ينحن على يده يقبلها أينما التقى به ! ... وكان يلتمس له المعاذير . غير أنى ، على قدر ما تسعفتى ذا كرتى ، قد خيل إلى وقتئذ ، أن والدى كانت له نظرة أخرى ، في الصلة التي يجب أن تقوم بين الآباء

والأبناء، ولكن حدث بعدئذ ما جعلني أضرب كفا بكف من الدهشة والعجب؛ فقد صرت - أنا بدورى - فى الحلقة الرابعة وانخرطت فى سلك القضاء، وشاهدت المرحوم والدى يتصرف بالرهن تلو الرهن، فى بيت كنانة تزي به، ويقابل أمامى كل من هب ودب من السماسرة والمرابين، يسر إليهم الحديث ويهمس لهم فى الأذان، ولا يخطر بباله قط أن يكشف لى عن جليلة الأمر، وبواعث التصرف، أو يسألنى، رأى المتواضع، فيما هو مقبل عليه، وأنا الذى أحقاق كل يوم فى تصرفات الناس، وأخص وأزن ما لهم وما عليهم من حجج وبيّنات، وأتحمل فى أرواحهم، وحرّياتهم، وأموالهم؛ - أخطر التبعات! ...

ومع ذلك، قامت فى نفسى ثورة، وما ارتفع لى فى حضرته صوت، وما كنت ألقاه وأنا فى ذروة العمر إلا بتقبيل يده والإصغاء إلى نصائحه.

* * *

تلك صورة طواها الزمن - فيما أعتقد - ونشر صورة أخرى لجيل جديد، يرى الأمور على وضع آخر؛ فهو يصر على أن يكون له رأى فى محيط البيت والمدرسة والمجتمع! ... وقد جاء هذا الجيل فى ظروف عالمية تبرر الانقلابات، وفى ظروف قومية تنادى بالحرية، واجدامن الجيل السابق الذى يحتضنه مؤازرا لنزعتة ومشجعاً، لأن هذا الجيل السابق لم يكن إلا جيل الثورة المصرية! .. على أبناءنا، وقد ظفروا بحق إبداء الرأى فى كل شىء، لم يقفوا عند هذا الحد، فما من شاب يقبل منك الآن نصحاً أو يلقاك اليوم، فتأنس منه توقير السنك؛ أو احتراماً لجيلك! .. إنه يخاطبك مخاطبة القرنين للقرنين، مهما يكن الفارق بينكما فى المكانة والسن، وما من شاب يقنع اليوم بأن يكون له فى شئون أسرته رأى، وفى مذاهب السياسة رأى، وفى برامج دراسته رأى، وفى أساتذته رأى! ... إن مجرد إبداء الرأى أصبح لا يكفيه! ..

جموح الشباب ، وبلبلّة الأفكار ، وزلزلة القيم ، وهزات الأحداث العالمية ، وسرعة التطورات الاجتماعية ؛ — كل هذا جعل الجيل الحديث يشب على عدم احترام القديم الثابت المستقر ، من النظم والأفكار والقيم والأشخاص ! ... وبانهيار هذا الجدار انطلق الشباب يهيم في كل واد ؛ بلا ضابط ولا رابط ! ... وتولدت عنده بذلك عقيدة راسخة هي أنه ليس في البلاد رأي غير رأيه هو الذي تستقيم به الأمور ... وأن من حقه أن يفرض هذا الرأي فرضاً على آباءه وأساتذته وقادته ، لو استطاع إلى ذلك سبيلاً ! ...

في صورتين إذن انفصال بين الأجيال ! ... في الماضي كان آباؤنا يفرضون علينا إرادتهم ، وفي الحاضر ، نرى أبناءنا يريدون فرض إرادتهم علينا ! ... أترانا نحن الجيل الذي بلا إرادة ... أعطيناها لآبائنا تبجيلاً ، ولأبنائنا تشجيعاً ؟ ! ...

تصادم الأجيال

كلما حدث في مجتمع انفصال بين الأجيال ، رأى كل جيل أن هذا المجتمع غريب عليه ، وأنه برئ منه ، لا يدري كيف جاء ، ولا كيف تكون ، ولا يعرف من المسئول عنه ؟ ...

جاءتني رسالتان تصوران هذه النظرة إلى المجتمع الأولى : تمثل رأى الجيل السابق هذا نصها :

«إن جيلنا كان له من الملامح » كازينو دى بارى« ، وفتيات » أوركسترا كافيه إجبسيان ، للطبقة المتفرجة . وقهوتان للرقص والغناء فى »وجه البركة« ... أما اليوم فقد أصبح من مستلزمات الطبقة المتوسطة وجود »البار« الأمرى كانى فى المساكن الخاصة ... وأصبح من حق جارى أن يثير أعصابى بميكرفون ... وأصبح الخشون يمشون متشابكين خمسة خمسة على الأفاريز ... وأصبحت الأوضاع مقلوبة ! ... القانون يهاب الإجرام ، والآب يخشى ثورة الابن ، الذى رضع من ثدى الحرية الفاجرة ! ... أما فى غير مصر فإن القانون الرقيب على المجتمع ، قد أجبر يوماً ممثلة مصرية كبيرة ، كانت تضع ساقا على ساق فى الترام »جنوا« أن تنزل ساقها فثارت واعتبرت هذا الإجبار اعتداء على الحرية ، ولكنها اضطرت آخر الأمر أن تلتزم حدود المجتمع الذى تعيش فيه ، فأنزلت ساقها على مضض ...»

أما الجيل الجديد فتمثله رسالة هذا نصها :

إننى - كأحد أبناء الجيل الجديد - أقول إنه جيل يريد أن يصل إلى إدراك معنى

الحياة ، وإلى بلوغ أقصى ما يمكن : من المعرفة ، والتقدم ، والرقى !... على الرغم مما يرى في تصرفاته من تهور واندفاع ، لا يقفها عقل ، ولا يحد منها إدراك ، حتى صار الناس يوجسون خيفة من أعماله ، ويرون فيها خطرا عليه وعلى المجتمع !... وما من شك أن للجيل الجديد أخطاء ، ولكن على من تقع التبعة ؟ ... أليس المسئول هو الجيل الذى سبقنا ؟ ... إنه لم يعرف كيف يقود الجيل الجديد إلى الشاطئ الآمن !... لقد أخافه وأرهبه هذا التطور فى التفكير الإنسانى ، فترك له الجبل على الغارب !... أهو قد حارين أن يقدم معه ، أو يحجم عن بحاراته !... ومن هنا ظهر تردده ، وضعفه ، وتخاذله !... أو أنه قد تجاهل ، أو تغافل عما تطورت إليه الحياة العامة ؛ فأراد أن يعود به القهقرى - وكانت النتيجة فى كل الأحوال أن عصى : لأن الحياة التى نعيشها فى هذا العالم الحاضر لا تسمح لحي أن يمشى إلى وراء ، وإلا داسته العجلات السائرة فى موكب الحضارة !... إنما الخلاف هو فى اختلاف طبيعة الجيلين : أحدهما يريد التقدم ، والآخر يريد القفز !... وليس هذا بجديدا ... هكذا كان الآباء والأبناء فى كل زمان ومكان ، ولكن الجديد فى عصرنا الحاضر - عصر الثورات والانقلابات - هو أن الخلاف فى الطبيعة والنظرة قد انقلب هو الآخر إلى ثورة : ثورة اتخذت لها شتى المظاهر : فى البيت ، والمدرسة ، والعمل ، والمجتمع !... ولم يعد من السهل أن نفرق فى دخانها بين حدود النظام والحرية ، والحق والواجب !... وبهذا اختلطت الأقدار ، وضاعت معالم القيم ، وفسدت العلاقة بين الأجيال ، وانفصلت حلقاتها !... وانعدم التعاون بينها ، و انتهى الأمر إلى ما نرى : من وقوف كل جيل موقف المرتاب من الجيل الآخر !...

كل الأزيمة إذن هى فى هذا الانفصال بين الأجيال !...

خرج البنون على آبائهم ، وخرج التابعون على قادتهم !...

في النظرتين إذن إنكار لحالة المجتمع ، واعتراف بأنه قائم على فساد... وليس
المهم إلقاء التبعات، وقذف الاتهامات ، إنما المهم هو البحث في العلة وعلاج الداء...
ومامن شك في أن الأفكار تتطور اليوم بسرعة ظاهرة، والحياة تتجدد، والمجتمع
يتابع كل ذلك على الرغم منه ؛ كورقة فوق تيار جار... وما أظن كثيرين من
الجيل السابق يخطر لهم أن يقفوا عجلة الزمان ، أو يرجعوا عقارب الساعات إلى
الوراء ؛ فهم متهمون أحيانا بأنهم قد جرفوا في التيار جرفا ، دون أن ينظموا
له الجسور والسدود ؛ فالتجديد الشامل في نواحي المجتمع ، لم يتم شيء منه في واقع
الأمر إلا : بإيحاء ، أو رضى ، أو تساهل من الجيل السابق... ولكن الجيل الجديد
يعيش في عصر التغيرات الخاطفة ، والتطورات السريعة ، والاختراعات المفاجئة ؛
فأصبح لذلك أقل من الجيل الذى سبقه صبرا وجلدا ، وأقوى منه رغبة في كل
تغيير ، وأعنف منه ثورة على كل ثابت مستقر...!

ليس الخلاف بين الجيلين، في الحقيقة ، على مبدأ التطور والتجديد ؛ فالكل مسلم
بضرورة الانحناء لدواعي التجديد والتطور. ، ولكن الخلاف الحقيقي في ذلك
التصادم — في ضياع الاحترام والثقة — في السير ، لابروح التعاون ، بل
بروح التحدى...!

تجاهل الأجيال

إن انقطاع العلة بين الأجيال يحدث أيضا من ذلك الجهل بطبيعة كل جيل ،
أو التجاهل لما تتطلبه تلك الطبيعة !... وها هي ذى رسالة ، تصور هذا الجهل ، أو
التجاهل بين جيلين :

«... يمنعنى والدى من قراءة المجلات والجرائد ، على اختلاف أنواعها ،
ولا يقبل مناقشة فى فائدة القراءة والاطلاع ، وكلما أبصر فى يدي مجلة مزقها !...
وهو ينهانى عن مصادفة أى شاب ، حتى إن كان مثقفا ، وهو يرتاب فى حركاتى
وسكناتى ، ويخاف على !... وهو يريدنى أن أعيش كعابد فى صومعة : لا يرانى
الناس ، ولا أراهم !... إني مشغوف بالقراءة ، فماذا أصنع لأرضى هوىي ،
وأرضى فى عين الوقت والدى ، الذى أكن له كل احترام ؟...»

هذا والديريد أن يربى ولده : كما يربى ذلك النوع من الزهر فى بيوت الزجاج !...
وأنا لست من علماء التربية ؛ للبشر ، أو للزهر ، حتى أبت فى هذا الأمر . ولكنى
أعتقد أن كل كائن إنسانى أو نباتى لا يتعرض للشمس ، والهواء ، والرياح ، والغبار :-
ينشأ رقيق التكوين ؛ ضعيف البنیان ، يحتاج إلى دثار من العناية ؛ ليحيا ، وإلى
جدران من الحيطه ؛ ليعيش ، ويكفى أن تحدث المصادفة فى تلك الدروع ثغرة
ذات يوم ؛ لينهار ذلك السكبان عند اللمسة الأولى !... كلا أيها الوالد الخائف !...
ليس هذا هو السبيل ، حطم بيت الزجاج ، وأخرج زهرتك ، وعرضها برفق للشمس
والهواء !... دع ولدك يقرأ ، ودعه يصادق ، ودعه يعيش ربيعاه !...

لا تتحش لون القراءة الذى يشغف به ابنك ، فى هذه السن المبكرة . إن الطبيعة

أعقل منك أيها الوالد، إنها هي التي تغرس الميول في النفوس، وتلونها على حسب
الأسنان والأعمار؛ كما تلون أوراق الأشجار...!

ففي الشباب يورق الخيال، والشعور، والعاطفة...! وفي الكهولة يورق
العقل، والحكمة، والتجارب...! ومن الخطأ أن يتحدى والد الطبيعة، وأن يتغلب
بغرسه على غرسها. وأن يطلب في ربيع العمر شجر اقامم الجذع، صلب العود، تحت عصف
الريح...! ولكنها فيما يظهر قصة كل والد: إنه يحكم على ولده بمزاجه، ويقيس
درجة حرارته «بترمومتره»؛ وكأنه لا يستطيع له فهما — كما لا يستطيع الشتاء أن
يفهم الربيع؛ فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر، فوق الغصون اللينة المخضرة،
ويهزأ من طيره الصادح، ومن ليله المقمّر، ومن نسيمه المعطر، ومن كل تلك الرقة
التي يملأ بها الدنيا — ذلك الفصل الرقيق...! إنها في نظر الشتاء الصارم ضعف؛ لأنه
فصل العنف، تصارع فيه العناصر، وتعارك القوى، إنه الحياة في كنفها الأكبر...!
أنا أيضا وقفت هذا الموقف من والدي — رحمه الله — وأنا في الثانية عشرة من
عمرى...! كنت أهرب أيام الجمع؛ لأنها الأيام التي يفرغ فيها لي، يناقشني فيما أقرأ،
وكان يتخير لي هو نوع الكتب، التي يجب في عرفه أن أقرأها...! وكان أخفها
وطأة كتاب يحوى «المعلقات السبع»، ضربت بسببه أوجع الضرب؛ فقد كان والدي
لا يكتفي مني بالحفظ عن ظهر قلب، بل يريد مني أن أشرح له أبيات ذلك الشعر
الجاهلي في تلك السن...! وكنت إذا عجزت عجب لجهلي وحمقى، ثم استشاط غيظا
مني — مدفوعا، ولا ريب، بالخشية على مستقبل الضائع — وإذا يده تتناول وجهي
بالصفع الثقيل؛ فلا تتركني حتى يسيل الدم من أنفي، وهو يصيح بي:

يا جاهل...! يا غبي...! أوجد أسهل من هذا البيت لزهير بن أبي

سلي...! هذا السهل الممتع يا أحمق...!

« ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسهم ،
ثم يبرز رأسه إعجاباً بالحكمة التي ينطوى عليها هذا الشعر ! حقا هذا شعر خليق
أن يقدره والدي الذي حنكه الدهر ، وعرف من تجاربه حقيقة كل كلمة في هذا
البيت ، ولكن الذي يدهشني الآن هو : كيف غاب عن والدي وقتئذ أن مثل هذا
البيت لا يمكن أن يتصور حقيقته ذهن غلام في الثانية عشرة ! ؟ ...

أترى كان المقصود أن أشرح البيت شرحا محفوظا ؛ كما ألقاه محفوظا ! ؟ ...
وما قيمة ذلك ؟ ... إن هذا لا يرغى عن البغاء إلا مرتبة بسيطة ! ... ولكن المقصود -
فيما أعتقد - أن يشرح الإنسان المعاني شرحا محسوسا ؛ بكل شعوره ، وكل إدراكه ،
وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر ! ... في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يطلب إلى
غلام ، أو شاب ، أن يفسر إلا ما تستطيع تجارب سنه أن تلم به من مدارك وإحساسات ! ...
من أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب -
الكذب على نفسه وعلى غيره ؛ بتلقيته تفسيرات « موضوعية » ، لأشياء لا تدركها سنه ! ...
لهذا أيضا يحسن بالوالد والمدرسة تمكين الصبي أو الشاب من قراءة ما يناسب
سنه من ألوان القراءات ! ...

ولا تقلق أيها الوالد ، ولا تظن ابنك - وهو اليوم غارق في هذه المطالعات التافهة
اليسيرة - سائرا منساقا في تيارها إلى آخر العمر ! ... إن تيار الحياة هو الذي يغير لون
المطالعات ، وأنت نفسك ، أيها الوالد ، الذي تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة
والاقتصاد ، أو تعنى بالتاريخ ، أو بالأدب الرفيع ، أو بعلم النفس ، أو بعلم الرياضة ؛ كنت
في صباك مشغوبا بقصص « روكامبول » أو « أبي زيد الهلالي » ! ... ولكنك لا تذكر
ذلك العهد ؛ كأغلب الآباء ! ... ويخيل إليك أنك لم تقرأ قصة قط ، لأن تيار حياتك اليوم
دفعك في مجرى بعيد عن حياة الخيال ، وبدالك عقلك ؛ وكأنه لم يعد يطبق هضم القصص ! ...
أيها الوالد ! ... أترك ولدك لسنه ! ... وافهم طبيعة جيله ! ...

حرمان الأبناء

كم سعدنا في طفولتنا الجميلة بشهر «رمضان»، وكم شقينا أيضا... من ذا الذي لا يذكر خفقة قلبه الصغير، في صباح، وهو أمام حانوت «السمكري»، يقلب أنظاره الشائعة، وأبصاره الرائعة، في مختلف «الفوانيس» بزجاجها ذي الألوان؟... ما أبهج ذلك الفانوس الأصفر، الأخضر، الأحمر. المعلق في القمة... ولكن ثمنه ولا شك باهظا... ترى هل يرضى الأهل ببذل هذه التضحية من أجله؟... إنه على كل حال لن يكلفهم شططا ولكنه سيفعم قلبه بسرور، لن يقدر الكبار مداه أبدا... ما أفسى الكبار أحيانا... إنهم قد يظنون ببضعة دراهم لن تغنيهم، هي الفرق بين لعبة ولعبة... ولكنها - في الواقع - هي الفرق بين سعادة وسعادة... ما أشد نسيان الكبار... لقد كانوا كلهم صغارا في يوم من الأيام... لماذا لا يذكر ذلك العالم السحري العجيب، الذي تفتح للأطفال أبوابه الذهبية فجأة، كلما أرادوا الحصول على شيء من تلك الأشياء التي يحملون بها... عالم من هباء سماوى، لن يتاح لاحد غيرهم أن يعيش فيه بهذا الثمن الزهيد بعد أن يتجاوز أعمارهم... لو تذكر الكبار ذلك العالم الذي أغلقت دونهم أبوابه بخروجهم من طور الطفولة لما ضنوا على أولادهم بشيء... فهم الآن وفي أيديهم القدرة، وفي جيوبهم المال، لن يستطيعوا فتح كوة في ذلك العالم مهما يشتروها بثروة الدهر وذخر العمر... ما أعجب تلك المعجزة التي يسمونها الطفولة... فيها تستطيع أن تدخل الفردوس - الذي لن تدخله بعد ذلك أبدا - بقروش معدودات... سل كل صاحب ملايين في أمة من الأمم: هل في مقدورك أن تشتري اليوم بملايينك لحظة سعادة؛ كتلك التي كنت تشتريها في صباحك بدرهم أو درهمين؟

أرأيتم ياملوك المال ؟ .. تلك ملايينكم قد تضاءلت أمام ثروة طفل !... وذلك ذهبكم قد تحول إلى تراب أمام كنوز الطفولة !...

هنالك مع ذلك مشكلة تحتاج إلى تفكير وتدبر :

إذا كانت لك القدرة على إشباع رغبات طفلك ، وتحقيق أحلامه ، فهل تفعل أو تتمهل ؟ ... هل من مصلحة الطفل أن تروى كل رغبته ، أو أن تبقى فيه بعض ظمأ لم ينطفئ ؟ ...

أقول ذلك لأنني لم أظفر في طفولتي بكل ما كنت أتوق إليه من لعب ، وأصبر إليه من أشياء ... فكنت أخلقها لنفسى بنفسي ، بخيال مشبوب ، وكان من أقراني وجيراني من يملك لعبا نفيسة عجينة تملأ حجرتة ، وتملأوني دهشة ، أقف بينها مشدوها ، وأحلق فيها معجبا ، وأمسها مكبرا ! ... وصاحبها الصغير يعبث فيها بيده الصغيرة محطما ومحقرا .. كنت ولا ريب أدرك قيمتها أكثر منه : وأرى فيها أشياء باهرة ، لا تراها عيناه ؛ وكان كل لولب فيها ، أو لغز ، أو مفتاح ، يحرك كل مخيلتي ، ويهز كل واعيتي ! ... كل ذلك ؛ لأنني لا أملكها ، ولا أستطيع أن أحصل عليها ! ...

ترى ، يا علماء التربية ، ما الواجب أن يتبع في تنشئة الطفل ؟ ... تلبية نداءاته أو صمم الأذن أحيانا عن مطالبه ؟ ... منحه لذة الامتلاك ، أو تعريفه بمرارة الحرمان ؟ ... إذا جاء « رمضان » ، وتطلع الطفل إلى الفانوس المزركش المبرقش في قمة الدكان - فهل تترك خياله معلقا به ، وأحلامه تهتز معه ، وتبتاع له الفانوس الآخر ، أو تتأق له بالأول ؛ - تضيء زجاجه وشمعته ، وتطفى خيال الطفل ولوعته ؟ ! ...

صنع الأجيال

يؤكد عالم « بيولوجي » أمريكي أنه - في خلال خمسة أعوام - سيصبح في مقدور كل زوجين أن يختارا نوع المولود الذي يريد أنه ... فمن شاء مولودا ذكرا جاء له ذكر ، ومن شاء الأنثى جاءت له الأنثى ! ...

إن العلم يريد أن يضع في يد الإنسان مفتاحا رهيبا ، من مفاتيح الطبيعة الحكيمة ! ...
العلم ! ... هذا النهم الذي يسكن رأس الإنسان ، ويدفعه إلى نيل ما لا ينبغي له أن ينال ! ... لكأني بالطبيعة - هذه الأم الرحيمة ، وقد لمحت يد طفلها الإنسان ، تمتد خلصة إلى وسائلها : لتجذب من تحتها المفتاح ، تهب قائلة لنفسها مرتابة قلقلة :
أيها الاحتمق ! ... تريد أن تصرف كل أمورك بيدك ؟ .. أخشى ألا تكون على ذلك قديرا ، ولا به جديرا ! ... إني أدبر لك شأنك ، متحللة من كل نزواتك ، مرتفعة عن كل صغائرك ... أرى مصيرك لا في نطاقه الفردي المحدود ، بل في علاقته بمصائر غيرك من الأحياء ! ... إذك - تتقدم على هذا الترق يوما ! ...
وكأني بالإنسان يقول للطبيعة بلسان العلم :

لم أعد طفلا ، مادمت قد عثرت على مفتاحك : فإني أهل لأخذه واستخدامه ! ...
فتمهمس الطبيعة :

كل الأطفال يقولون ذلك ! ... ويمضون بالمفاتيح إلى الخزائن الممنوعة ، بحثا عن الحلوى ، أو المتعة : فيبعثون ما فيها ، وبلقون الاضطراب في نظامها ! ...
افعل ما شئت ، وسنرى منك ما يكون ! ...

ولأن يكون غير أمر واحد: ما إن يعلم الناس أن في الامكان اختيار نوع الولد، دون أن يتكلفوا أكثر من جرعة دواء، بقليل من المال، حتى يندفعوا كلهم أفواجا إلى الصيدليات، يطلبون الدواء الذى ينبج لهم المولود الذكر!... فما يمضى جيل حتى نرى الدنيا قد زحرت بالذكر!...

وتظهر عند ذاك مشكلة عالمية: هى البحث عن الأثني!..
وقد تقع المعارك والحروب بين الرجال من أجل المرأة: كما وقعت حروب «طروادة» من أجل «هيليينا»...

عندئذ تنقلب الكفة فجأة، ويندفع الناس من جديد إلى مخازن الأدوية، يطلبون الدواء الآخر، الذى ينبج الإناث!... فلا يمضى جيل، حتى نرى الدنيا قد زحرت بالنساء!...

وتظهر مشكلة البحث عن الرجل: — فيعود الاندفاع إلى المخازن والصيدليات طلبا له وهكذا دواليك -- حتى يحدث نوع من التوازن بعد أجيال!...
ذلك أن هذا الطفل الإنسانى الكبير غير قدير على أن يقر التوازن فى شئونه إلا بشئ باهظ من الجهد، وبعد زمن طويل ينقضى فى الاضطراب بين التناقض، والترنح بين الأضداد!...

هذا فرض قائم على حسن الظن بالإنسان، وعلى أنه يستطيع بنفسه — آخر الأمر — أن يسيطر على نزعاته ونزواته... وأنه فى إمكانه أن يحل محل الطبيعة، فى تنظيم ملكاته... ولكن هنالك فرضا آخر يقوم على عجزه وإخفاقه!... هنا لا نرى مناصا من تدخل «الطبيعة»، هذه الأمّ اليقظة الصابرة، لا يمكن أن يبلغ بها التغاضى، والتسامح حد الإهمال!... فهى ما تكاد تلمح العبث من طفلها، —

قد انتهى إلى الحد الذى يفسد النواميس ، حتى تنهض مسرعة إليه ، تمسك زمام الأمر بيديها ، لتقر النظام فى نصابه بطرائقها ، وتعيد التوازن إلى حاله بأساليبها ! ... فإذا كان عدد الذكور قد طغى طغيانا لا سبيل إلى كسر شرته ، أيقظت «الطبيعة» الفتن ، وأقامت الحروب ؛ فخصدت بنيرانها ما لا بد أن يخدم من هذا المحصول الفائض ! ... وإذا كان تعداد الإناث هو الغالب ، أشاعت الإباحية ، والأوبئة ، والثورات الاجتماعية ؛ فأخذت بموجاتها ما لا بد أن يخدم من هذا الفوران الزائد ! ... وعند ذلك يتم لها النصر ، وتقنع من الإنسان بهذا الدرس ... فلا تزيد منه إلا أن يشعر بغزوره ، ويعترف بنزقه ، ويسمع همسها وهى تحنو عليه باسمه ، غافرة ، مشفقة :

أشبع لعباً ؟ ... ألا يحسن بك الآن يا بنى أن تدعنى أتولى أمرك ؟ ... !

أجيال الطبيعة

يقول المفكر الصيني « يوتانج » : إن من الناس من يرفض أن ينتج ذرية ! ... فهل تستطيع الأشجار أو الأزهار أن ترفض إنتاج البذور ، التي تكفل استمرار البقاء لنوعها ؟ ... إن مشكلة العصر الحاضر هي أن كثيرا من الناس لا يتزوجون ، وأن كثيرا ممن تزوجوا يرفضون إنتاج الذرية لأسباب شتى : كارتفاع مستوى المعيشة ، وازدياد تكاليف الحياة ، ومشقة الكدح في سبيل الرزق ! ... لكن ما من سبب من الأسباب ، ينبغي — في نظره — أن يحول دون قيام البشرية بواجبها الطبيعي ، الذي تقوم به الشجرة والزهرة ! ...

هذا قول حق ! ... لكن هنالك فرقا في رأي بين الشجرة أو الزهرة ، وبين الإنسان ! ... إن الشجرة لا تفكر في معارضة القوانين الطبيعية ... إنها لا تدسى أبدا أنها جزء من الطبيعة ذاتها ، وأنها عند ما تنتج البذور تترك للحياة مهمة فرز الصالح من الطالح ، ولا تتعجل النتائج ، وتدع للزمن حرية العمل ، ينضج من الأنواع ما ينضج ، ويميت منها ما يميت ، ويضحي بمئات الآلاف ، أو آلاف الملايين ؛ ليخرج فصيلة ممتازة رائعة كاملة بعد حين ! ...

أما الإنسان فأمره مختلف ... إنه حيوان يفكر أو نبات يعقل ... وعمل العقل والتفكير هو استخراج مبادئ واستنباط قوانين ... وهذه القوانين والمبادئ كثيرا ما تعارض قوانين الطبيعة ... ذلك أن الإنسان العاقل يضع مبادئه في نطاق زمنه المحدود ... ولكن الطبيعة تضع مبادئها في نطاق زمنها غير المحدود ... من هنا ينبع سوء التفاهم بين الطبيعة والإنسان في أغلب الأحيان ؛ فأكثر الذين لا يتزوجون

قد اتخذوا هذا القرار ، بناء على مبدأ من مبادئ العقل ، الذى يزين لهم الحرية الفردية . ويجعلها فى صورة مغرية من صرور السعادة الإنسانية !... هذا الرجل الفرد المخلق كالعصفور - بغير عيش فى كل الأجواء - لا يخشى الغد ، ويتحدى الأنواء !... ما أسعده فى وحدته ، وراحة باله ، وعدم مسئوليته ، ويظل هذا الرجل فى الحياة يصفق بجناحيه لا يظل بهما أحدا ... إلى أن يموت بردا ؛ بغير عيش . أو يمضى راضيا ؛ بغير ندم !... وهكذا ينتصر العقل على الطبيعة !... وإما أن يشمر العصفور أن التحلىق فى الهواء لا يمنحه الحرية بل يمنحه التيهان ، وأن سعاده ليست فى نشر الجناح على الهواء بل على بيت وقرين !... عندئذ تمتصر الطبيعة على العقل ، ويتزوج الرجل غير أن العقل لا يتركه وشأنه بل يعود إليه ليضع له المبادئ ، ويسن له القوانين ، ويقول له : «إيرادك صغير ؛ فلا تنجب ، أو أنجب طفلا !... أو إيرادك متوسط ؛ فأنجب طفلين !... ويصغى الرجل إلى قوانين عقله ؛ ولا يصغى إلى قوانين الطبيعة !... قانون عقله يريد وصل الإراد بالذرية ، وقانون الطبيعة لا يرى صلة بين الإراد وبين الذرية ... العقل الإنسانى المحدود يريد أن يحبس نتائج النسل الآدمى ، فى نطاق الزمن الآدمى القصير ؛ وفى حدود التكاليف المالية والمعاشية !... وعقل الطبيعة - غير المحدود - لا ينتظر نتائج هذا النسل إلا بعد أجيال . تتعاقب فيها الدول ، وتتغير النظم !...

وهنا السر فى أن الإنسان الفطرى ، ينتج من الذرية كثيرا !... والإنسان المتعلم ينتج منها قليلا !... ذلك أن الإنسان الفطرى أكثر مقاومة لعقله واندماجا فى الطبيعة وخضوعا لقوانينها ، ولكن الإنسان المتعلم أكثر مقاومة للطبيعة وخضوعا لعقله !... الإنسان الفطرى هو وحده الذى ينطبق عليه قول المفكر الصينى !... وهو وحده الذى مثله مثل الشجرة والزهرة ، ينتج وينسل بلا تفكير ، وعلى الطبيعة

أن تفرز إنتاجه الصالح من الطالح ، وتبقى القوى وتميت الضعيف ، وهو يتقبل حكمها باستسلام وإذعان! ...

أما الإنسان المتعلم فلا يقبل حكم الطبيعة في ذريته! ... إنه هو الذى يريد أن يقرر بنفسه مصايرها ، ويوجهها في الحياة تبعاً لبرنامج يضعه بعمله، ويرسمه بعقله! ... إنها الحرب إذن بين الإنسان المتعلم المفكر ، وبين الطبيعة! ...

وما دامت الحضارة تقاب كل إنسان إلى متعلم منسكّر ، فلا بد أن تتسع هوة الخلاف بين الطبيعة والإنسان إلى حد نرى فيه النسل يوماً يكثر أو يقل تبعاً لبرنامج رسمى تضعه الدولة ، وتطبقه على الأفراد! ...

على أن الحضارة الحقيقية في نظرى ليست تلك التى تخالف الطبيعة ، بل تلك التى تصاحبها وتهذبها . تلك التى تتيح للدولة أن تقول لأفرادها : « تناسلوا كما تشاءون ، ولا تخشوا شيئاً ؛ فكل نتاجكم هو خير لى وللبشرية ، وسأ كفل له التعليم ، والترىض ، والتنشئة ، والإعداد ، وتوجيه المواهب ، وتوفير العمل! .. »

إذا تم هذا فإن الحضارة عندئذ ، تسير فى اتجاه الطبيعة ، وتعمل معها ، وتصبح منها : فى موضع البستانى تجاه الشجرة أو الزهرة .. ذلك البستانى الذى يقول للشجرة : « أنتجى وأثمرى وأنا أنعده! ... »

تنوع الأجيال

في سورة « هود » من القرآن الكريم آية ، قل من فطن إلى مرآتها البعيدة .

تلك هي :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ... » .
يكن من أمر التفسيرات التي شرحت بها هذه الآية ، فإنه يبدو لي أن في جوفها وميضاً ينم أحياناً عن أسلوب الله في خلق الكون ... فذلك الاختلاف بين الأجرام في الأحجام هو سر تجاذبها وتماسكها وتعاونها ، ولو أن الله جعل الأجرام حجماً واحداً ، وشبهها واحداً في كل العناصر والأوزان والصفات لانفطر عقدها ، وانحل رباطها .. أما في مجال أرضنا - وسكانها من آدميين - فإن قانون الاختلاف له مثل هذه الضرورة واللزوم ! ... ولقد قرأت أخيراً للمفكر الإنجليزى « جون هادهام » فخيّل إلى أنه يكتب - بوحى من تلك الآية القرآنية - هذه السطور : لو أن كل بلد كان له من الهيئة ومن المواد الخام مالمئات البلاد ؛ - لكان كل بلد يستطيع الحياة مستقلاً تمام الاستقلال عن جيرانه ، ولكن الله نظم خريطة الدنيا على نحو يجعل كل بلد في حاجة كبيرة أو صغيرة إلى كل بلد ! ... وهذا القول يصدق أيضاً على الشعوب ، فكل شعب قد جعلت فيه مزية يستطيع بها أن يضيف شيئاً إلى مجموع الشعوب ، وكل شعب مدين للشعوب الأخرى بشيء يعوزه في إنتاجه أو ينقصه في تركيبه ! ... وما يقال في شعب يقال في الأفراد الذين يتكون منهم ؛ فامن مجتمع صحيح البنیان إلا كانت صحته بنيتة ناتجة من أفراد لا يتشابهون في نوع العمل واتجاه التفكير .. لأن تلك الصحة إنما قوامها تلك المساهمة التي يؤديها إلى المجموع كل فرد بعمله

الخاص ، وتجاربه الشخصية ، ومزاجه المختلف عن سواه ، وطبيعته ونظرته ... ! وهل نستطيع أن نتصور قيام مجتمع ، يتكون من أفراد كلهم متشائمون في النظرة أو كلهم متفائلون ... وكلهم ذوو حرص أو كلهم مهملون ؟ ... وكلهم شعراء ، أو كلهم مهندسون ، أو كلهم خطباء ؟ ! .

وإذا أردنا أن نكمل الصورة ، فلنهبط إلى الأعضاء في جسم الفرد ... ! فالصحة في جسم الفرد قوامها أيضا ذلك الاختلاف في وظائف الأعضاء ... ! فالرأس يفكر ، والقلب يشعر ، واللسان ينطق والأذن تسمع ، والقدم تسير ! ... وإن هذه الصحة لشئنا يوم نرى كل هذه الأعضاء تترك وظائفها المختلفة ، وتوجه كلها إلى وظيفة واحدة متشابهة للجميع ، وهي : التفكير ! ... نعم ، ماذا سيكون حال الجسم لو تمرد القلب ، واللسان ، والأذن ، والقدم وقالت كلها : لن نشعر ، ولن ننطق ، ولن نسمع ، ولن نسير ! ... نريد كلها أن نكون مثل الرأس : فلانصنع شيئا سوى أن نفكر ؟ ! ... معنى ذلك ولاريب هو شلل الجسم كله وسقوطه في مكانه ، لا يتحرك ، ولا ينطق ، ولا يشعر ، ولن يغنيه تفكيره شيئا ! ... !

أسلوب الله في خلقه ، يبدو إذن من ذلك الاختلاف في الصفات ، والهبات ، والسمات ... ! هنا سر التناسق في الخليقة : أي سر تضامنها : فأعضاء الجسم متضامنة في العمل : لأنها مختلفة في الوظيفة ، ولو أنها تشابهت في الوظيفة ، لما تضامنت فيما بينها ، ولاستقل في الحال كل عضو عن كل عضو ، وبهذا الاستقلال يتفكك الجسم ويتفتت الفرد ! ... !

فإذا انتقلنا إلى مجال الرأي ، وجدنا أن اختلاف الآراء في المجتمع البشري

ضرورة من ضرورات الطبيعة: أى مظهر لإرادة الله...! وهناك فرق بين الاختلاف فى رأى، والاختلاف فى العقلية: فقد تتشابه العقلية فى شخصين، ويختلف الرأى بينهما...!

والمجتمع السليم يجب أن يقوم على قدر من الوحدة والانسجام، فى عقلية الأمة، وأجيالها، ومقومات شخصيتها العامة: — دون أن يؤثر ذلك فى اختلاف الآراء فيها...! فلا ينبغى أن يشط بنا غرورنا الإنسانى، فنعتقد أن ما يحول فى رأسنا، من رأى يجب أن يسود الناس أجمعين...! ما من رأى واحد يمكن أن يسود هذه الأرض...!

إن العالم اليوم منقسم إلى: معسكرين، ورأيين، كل منهما يريد أن يمحو الآخر من الوجود محوًا: الرأسمالية فى جانب، والشيوعية فى جانب — وكل منهما يعد من الذرة قبلة، يزيل بها خصمه من خريطة الدنيا...! وقد تقع الحرب الفاصلة بينهما، فى يوم قريب أو بعيد...!

ولكن الذى لن يقع، هو وحدة الرأى فى هذا العالم، حتى وإن ظفر أحد الجانبين بالانتصار الساحق الماحق...! ذلك أنه — فى تلك اللحظة عينها — لا يلبث أن ينقسم هذا الرأى الواحد المنتصر إلى آراء تختلف وتشتجر...! وهكذا دواليك...! لأن هذا ناموس الخالق الأزل:

«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين...!

مبدء الأجيال القادمة

الدينا مركبة زاهية الألوان ، مذهبة الحواشي ، مطهمة الخيول — سائقها الشيطان !...

هذا السائق اللبق يعرف دائما كيف يخاطب الركب ؟ ... إنه لا يجهل حب الناس للخير ، أو التظاهر بحب الخير ... فهو يتحاشى أن يخاطبهم بلسانه الحقيقي ! ... لقد ابتدع لهم لغة بارعة براقة ، يقطر منها النبل والسمو ! ... فهو ينحن بجوار باب مركبته ، حتى تكاد جبهته تمس الأرض تواضعا ، ثم يفتح الباب ، ويقول للناس :

هلموا اصعدوا ، أوصلكم إلى أنبل الغابات ! ...

فيصعدون : بعضهم عن إيمان ، وبعضهم عن غرض ، وبعضهم عن تورط ! ... أما صاحب الإيمان فيقول في نفسه :

الدينا بخير ! ... وأحمد الله أن أتاح لنا هذا السائق الطيب ، يذهب بنا إلى ما نؤمن به من غاية شريفة ! ...

وأما صاحب الغرض فيقول :

ليس يعنيني الجهة التي يذهب بي إليها هذا السائق ، ولكن الذي يهمني هو أن أصعد إلى جوار هؤلاء الناس المؤمنين الشرفاء ! ...

أما المتورط فيقول :

لم يكن في نيتي الركوب ، ولكن مادام الناس من حولي يصعدون كلهم مع هذا السائق ، فما الذي يبقيني أنا من دون الناس ؟ ... !

ويغلق السائق على الجميع باب المركبة وهو يتسم!... ويقفز إلى مكان القيادة ويسك بالآعنة، ويلهب بالسوط ظهور الجياد!... فإذا المركبة تنطلق؛ كالمنجونة تسابق الرياح!...

ولا يمضى قليل، حتى يشعر الركب برجات عنيفة، تكاد تحطم المركبة، وتصيبهم بالدوار، وتلقى بعضهم على بعض!... عند ذاك ينظرون من النافذة، فإذا هم يتبينون أن السائق قد ترك الطرق السوية، وانحرف عن السبل المستقيمة، ونزل بالمركبة يخب في السكك الوعرة، ويخوض في المسالك الموحلة!... فيصبح به أصحاب الإيمان مرتاعين:

ويلك!... مهلا!... ما هذا الطريق الذي تخوض بنا فيه!؟...

فيلتفت إليهم السائق، قائلاً بخبث مستتر:

هو أقصر الطرق!...

فيقول المؤمنون:

ولكنه ليس نظيفاً!...

فيجيب السائق:

المهم الغاية!... الغاية التي تقصدون إليها!... مادامت الغاية نبيلة، فلا

تنظروا إلى الطريق!...

ويعود إلى سوطه يلهب به خيوله، فتندفع المركبة في وجهتها، تاركة الركب

المؤمن في داخلها، ينظر بعضهم إلى بعض متسائلين:

- أحقاً!؟... يجدر بنا أن نسير في هذا الوحل والطين؛ من أجل الوصول

إلى غايتنا الشريفة!؟..

ويشترك في الحديث غير المؤمنين ، من هواة التظاهر والمتورطين ، فيقول :
 مادام هذا هو أقصر الطرق للوصول : فما الضرر ؟ ...
 فيصمت أصحاب الإيمان ، وقد أسلبوا أمرهم إلى الله ، وهم ما أسلبوه في
 حقيقة حالهم إلا إلى الشيطان ! ...

* * *

تلك هي مركبة الدنيا من قديم منذ سلم فيها الجميع بمبدأ « الغاية تبرر الطريقة !... »
 أخطر مبدأ عرفته أجيال البشرية المتعاقبة ! ... هذا المبدأ وحده هو المسئول
 عن كل هذه الكوارث ، التي حاقت بالعالم حتى عامنا هذا جيلا بعد جيل ! ...
 كل سياسة العالم وقادة الشعوب ، في الأمس واليوم — وفي الغد أيضا ولا
 ريب — يسرون على هذا المبدأ . مخدوعين بالوهم أنه أقصر طريق : للوصول
 إلى غاياتهم ، التي قد تكون في بعض الأحيان نبيلة ، ولكن الذي يحدث
 دائما هو ما يحدث لركب المركبة ، التي يقودها الشيطان ! ... إنهم لا يظفرون إلا
 بالطريق الموحد ، أما الغاية فلا تظهر لهم أبدا في الآفاق ! ...
 ذلك أن الطريق الملتوي القذر ، لا يوصل أبدا إلى الخير ولا إلى الشرف ! ...
 إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل ! ...
 إن الطريق إلى الشرف هو الشرف نفسه ، ولا شيء غير ذلك ! ...
 والخير هو في ذاته الطريقة والغاية : لأنه شعاع من أشعة الله ، والله
 تعالى غاية : لا بد أن يكون طريقها نورا وخيرا ! ...

فلو اتفق قادة العالم ، المجتمعون حول موائد السلام ، وقادة الشعوب والمجتمع
 والفكر ، الباحثون في مستقبل الإنسانية : — على أن يحطموا أولا مبدأ « الغاية
 تبرر الوسيلة » — ل جاءت النتائج باهرة ! ... فإن مناورات السياسة ستختفي ،

وأساليب الكذب والمداورة والنفاق والخداع ستزول ، ولن يبقى أمام الجميع
غير طريق واضح نظيف !... إذا أوصلنا إلى الخير العام ؛ فهو الهدف ، وإن
لم يوصلنا إلى إصلاح سريع ؛ فحسب العالم أنه سار في طريق خال من الشر والقذرا...
وإذا لم يكن هذا الطريق النظيف هو في ذاته إصلاحاً وخيراً ؛ فلن يعرف العالم
الإصلاح والخير عن طريق التدمير والشر !...

هل لنا أن نأمل في الأجيال الجديدة ظهور مبدأ جديد ، يتخذه العالم كله
ديناً وعقيدة ، ويكون شعاره :

« الغاية النبيلة في الطريق النبيل !... »

شبح خيل

ذهبت إلى شارع « بلبور » ذلك الحى النأى من أحياء « باريس » — حيث كنت أقيم بعد الحرب العالمية الأولى — فماذا وجدت ؟ ... وجدت الشارع الضيق كما كان ، ووجدت حجرى كما كانت ، مفتوحة النافذة على الفضاء الواسع ، وأعترف أنى تأثرت ، وشعرت برجفة : فقد خيل إلى أنى أرى شخصا فى النافذة ، شخصا أعرفه ، شابا نحيل الجسم أسود الشعر ، يرسل البصر إلى الأفق البعيد : كأنما يريد أن يهتك حجب الغيب : ليطلع ما خط فى لوح قدره ! ... ولكن القدر — فيما يبدو — ما كان قد خط بعد حرفا واحدا فى اللوح ! ... إنما وقف ممسكا به ينتظر — ينتظر الرسم الذى خطه الشاب لحياته ! ... نعم ، لقد كان ذلك الشاب قد وضع لحياته شبه « خريطة » واضحة المعالم ، دقيقة التفاصيل ! ... كان قد طرح فى مصر مهنة المحاماة والقانون : ليمضى فى حمل القلم ، ويقول للناس أشياء ، يعتقد أنها قد تنفعهم ! .. وما كان يريد غير ذلك ، ولا يطمع من حياته فى غير ذلك — فلا الجاه العريض كان يغريه ، ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه ، ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه ، أو يرضيه ! ...

وعندما يضع « إنسان » لحياته خطة ، فإن « القدر » أحيانا يأخذ وينفذ ! ... لذلك تقدم « القدر » ، فيما يظهر ، إلى الشاب ، وتسلم منه الرسم ، ونقله إلى لوحه ، وهو يهمس باسم : « مادمت أنت » المهندس « الدقيق لبناء حياتك ، فلن أكون أنا غير « المقاتل » المنفذ الأمين ! ...

ولقد بر « المقاتل » فعلا بالوعد ... وأنتم العمل ... وأقام البناء ،
طبقا للرسم ... لا أكثر ولا أقل ...

* * *

وددت لو أستطيع أن أسأل ذلك الشاب الذى تخيلته فى النافذة :

أيعجبك هذا البناء ؟ ! ...

لم ألتق بالطبع جواب ذلك الشاب ! ... ولست أدرى بماذا كان يجب فى
مثل سنه ؟ ... ولكنى سمعت الجواب من أعماق نفسى أنا :

لا ... لا يعجبنى ...

وهنا ... خيل إلى أنى أسمع « القدر » يقول بنبرة تهكم :

الذنب ليس ذنبى ... لقد نفذت ما تسلمت ... إن كان هناك عيب ... فهو

عيب الرسم !

فقلت له فى الحال :

اطمئن ... مامن أحد يتهكم أنت ... ما من شك أن المشول هو ذلك

المهندس « الغشيم » ! ...

فقال مزهوا :

عندما يترك لى أنا القدر مهمة الرسم ، فإنى أفعل المعجزات ! ...

فقلت له :

بالتأكيد ... ولكن ماذا تقول فى أولئك الاغرار الذين يتصدون للمهندسة

ووضع الخرائط ، فيحبسون حياتهم داخل رسم خيالى ... لا يستطيعون منه

خروجا أبد الدهر ؟ !

فقال :

مهما يكن خيال الإنسان فهو لن يطاول خيالى ...! أستطيع أن أدلك على عشرة تعرفهم ، ولا شك أنهم اليوم من أصحاب الملايين ، أحدهم كان حوذاً فى عربة نقل ، والآخر بائعاً جائلاً من باعة « الخردوات » ، والثالث عاملاً فى حانوت فواكه ... وهلم جرا ... ما من واحد منهم ، وضع لحياته خطة أو تخيل لمصيره رسماً ...! تركوا كلهم لى أنا مهمة الرسم ، وعهدوا لى بهندسة بناء حياتهم . فصنعت لهم مالم يخطر لأحد منهم على بال ...!

فقلت له :

ماذا صنعت لهم ؟ ...

— أمت بناء حياتهم ، على أعمدة من الذهب ...!

— أعطيتهم المال ...!

— نعم ... أغرقهم فى المال ...!

— نعم ...! أغرقهم ...!

قلت لها مأساً ، وأنا أهرز رأسى ، تلك الهزة الطويلة التى تطوى التهمك المستتر ...!

فقال « القدر » :

ماذا تقصد ؟ ... ألم أعطيهم أكثر مما كانوا ينتظرون ؟ ...

فقلت على الفور :

هذا صحيح ؛ لأنهم ما كانوا ينتظرون من الحياة أكثر من ذلك ...

فقال متخابثاً :

— وماذا فى الحياة أكثر من ذلك ؟ ...!

فقلت باسماء :

— ألا تعرف أنت ؟ ... !

فقال :

أعرف أنت ضوءاً أشد من وهج الذهب ... !

فقلت في الحال :

القلوب الصغيرة هي التي تضاء بالذهب ، أما القلوب الكبيرة فلا تستطيع
جبال الذهب أن تضيء أرجاءها وأعماقها ... !

فقال :

أنا الآن إذن في نظرك مهندس ومقاول من نوع رخيص ... !

فقلت :

أنت مهندس ومقاول ، اعتاد أن يرسم ويقيم البيوت الصغيرة ... ! لقد تبين
لي الآن أن البيوت الكبيرة لا يرسمها غير أصحابها ... !

فقال بخبث :

ولماذا شكوت الساعة إذن من بناء حياتك ؟ ... !

فقلت مطرقاً :

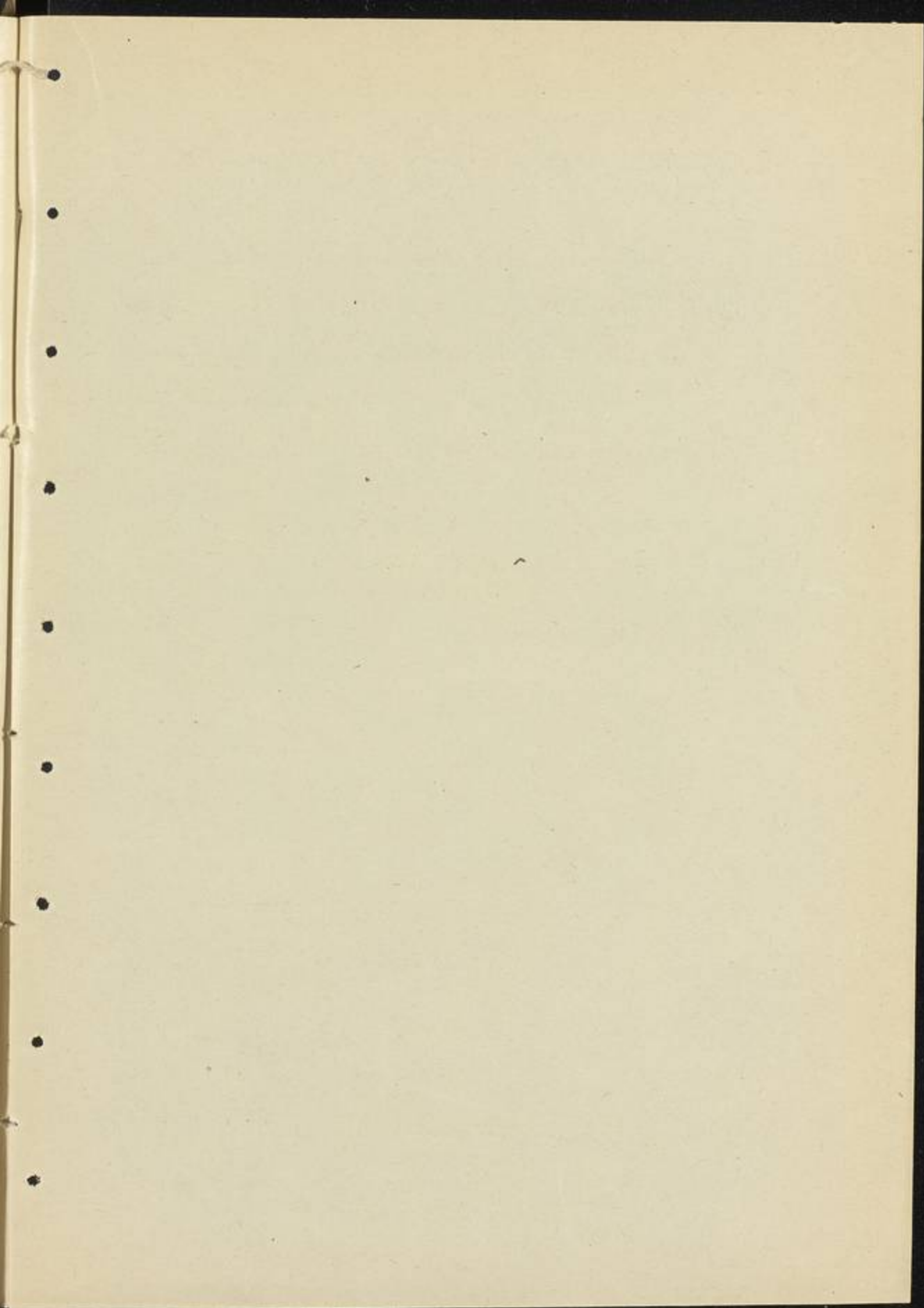
لأن الشاب الذي وضع الرسم ، كان حسن الظن ، واسع الخيال ، لقد خط
على صفحة ذهنه بيتاً كبيراً ... ! كبيراً جداً ، لم أستطع أنا أن أملاه أو أتخذ
مكاني فيه ... ! إني حبيس قصر رجب ، لم يستطع إيماني ، ولا جهدي ، ولا
قدرتي ؛ — أن تشغل كل قاعاته وأبهائه ... !

قلت ذلك وانصرفت خارجاً من شارع « بلبور » بعد أن ألقيت نظرة أخيرة.

على شبح الشاب الواقف في النافذة ، وهمست :

وداعاً... عفوا... لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك... لعلك أنت الذى
بالغت فى التفاؤل ! .

ومشيت فى الطريق الذى كانت تقام فيه السوق ، كل أسبوع ، ويذهب إليها
الشباب ؛ ليحمل مؤنته من الأرز والبيض ، وينفق «الفرنكات» القليلة ، التى لا يملك
غيرها على مدى الشهر الطويل ، ولكنه كان سعيداً ؛ لأنه ما بالطعام وحده يعيش
الإنسان !... نعم كان سعيداً ؛ بالأمل الذى يلمع فى الأفق ؛ كأنه نجم !...
ما تغير شيء فى ذلك الحى القصى ، إلا ذلك النجم الذى اختفى ، والأفق الذى
غشاه الضباب !...



الباب الثاني عشر

الأدب والتزاماته

الأديب يلتزم ...
ولكن الأدب لا يلتزم ...

الأديب يلتزم

كثر الكلام بين أدباء «أوروبا» - في العصر الحديث - حول الأدب الحر ، والأدب الملتزم ، حتى كاد المتبع للجدل ، يحسب أن الموضوع جديد ، تمخضت عنه النظريات الجديدة في الدولة والمجتمع ...!

والحقيقة المسطورة في التاريخ ، هي أن الالتزام في الأدب والفن قديم ، بل ربما كان الأصل - في الأدب والفن - أنهما ولد أمقيدين ، وأنهما لم يعرفا الحرية إلا فيما بعد ...! فالشاعر في المجتمع البدائي ، ولد ملتزماً بالدفاع عن القبيلة ، مشيداً بفضائلها ، مزيهاً بخصوصها ...! ولم ينسلخ تفكيره عن تفكير قبيلته ، ويأخذ في التعبير عن أفكاره الفردية ، ومشاعره الشخصية ، إلا عندما بدأ المجتمع يتطور نحو التقدم ...! على أن المجتمع المنطور ، البالغ درجة من الرقي ، قد يظهر فيه الالتزام : في الفكر ، والأدب ، والفن - إذا ظهرت فيه فكرة من الأفكار ، أو عقيدة من العقائد ، ذات أثر في نفوس الناس ...!

وهذا ما حدث عند ظهور الإسلام ؛ فقد نهض - من بين الشعراء - «حسان بن ثابت» ، يؤيد هذا الدين الجديد بشعره ، ويحارب أعداءه ، ويجاهد بقصيدة في سبيله ...! كما أن طريقة الحكم في مجتمع ، وعمق الإيمان عند شعب : لهما أقوى الأثر في ظهور الالتزام ...! وهذا ما حدث في «مصر» القديمة ...! ولنرجع إلى ما قال العلامة «موريه» ، في كتابه «النيل والحضارة المصرية» : فقد ذكر أن الفن والأدب والعلم ، أشياء كانت دائماً في خدمة الدين والدولة ، وأن «مصر» القديمة : ما عرفت - إلا في النار - ما يسمى بالثقافة الخالصة والفن للفن والبحث العلمي المقصود لذاته والتفكير النظري والأدب الشخصي ... وأن آثارها الكبرى بروحها الجماعي لا تحمل حتى اسم صانع بعينه ، وأنها كلها خاضعة لمذهب قى واحد ،

يتجه بكل دقة إلى أهداف اجتماعية دينية... هذا المذهب الفنى المصرى : كما يقول « موريه »، قد ضيق أحياناً كثيرة مجال الابتكار، عند أولئك الفنانين العظام، ولكنه عبر على كل حال عما يكن الشعب، من تقديس للسلطة والعقيدة... ذلك الالتزام المصرى القديم تقابله حرية شبه مطلقة عند اليونان القديمة... فطريقة الحكم والإدارة فيها، والاتجاه إلى الديمقراطية، وضعف الإيمان الدينى وغلبة الفزعة العقلية... كل ذلك سلخ الفكر والفن عن سلطان الدولة والدين، فظهرت مذاهب الشك، والبحث العلمى، والفلسفى المتحرر من كل هدف نفعى، والفن المتجرد من خدمة سلطان دينى أو دنيوى...!

هل لنا أن نستنتج من ذلك أن أساس الحرية والالتزام واحد لم يتغير فى الماضى والحاضر؟... وأن دوافع الالتزام والحرية هى بعينها فى العصور القديمة والحديثة؟... لو تتبعنا مواطن الفكر الملزم فى عصرنا الحاضر، لوجدناه فى عنفوانه وتألقه فى البلاد التى تقدر هى أيضاً الدولة والعقيدة، ولما كانت العقيدة الدينية آخذة فى الضعف فى بلاد الغرب؛ فقد حل محلها فى القوة والتمسك العقيدة الاجتماعية، أو المذهب السياسى...! فحينما وجدنا اليوم شعوباً تدين كلها بدين اجتماعى جديد فى كنف سلطان الدولة القاهر، نجد الفكر فيها ملتزماً بخدمة الدولة والدين، ونرى من النادر أن يتجه فيها مفكر، أو أديب، أو فنان، إلى خدمة فكرة خاصة تعارض المذهب العام الذى اعتنقه الشعب والدولة...!

فإذا نظرنا إلى بلاد الديمقراطية، حيث سلطان الدولة ضعيف بالقياس إلى حرية الفرد، وجدنا الفكر فيها يكاد يشبه ما كان عليه فى بلاد اليونان القديمة، من حيث عدم الالتزام بخدمة سلطان دينى أو دنيوى...! فالمفكر أو الأديب أو الفنان فى تلك البلاد لا يستطيع أن يلتزم على الصورة السابق ذكرها؛ لأن سلطة الدولة

عنده تناوبها حكومات متغيرة ، وعقيدة الشعب منتشرة في مذاهب متناقضة متعددة ، وهو - بين الشك واليقين - يؤثر في أغلب الأحيان الاحتفاظ بفنه لنفسه ... وهو لو أراد أن يلتزم لما وجد أحداً هناك يلزمه غير نفسه ! ... وهذا هو المظهر الوحيد للالتزام ، عندما يظهر من حين إلى حين في البلاد الديمقراطية ! ...

فالأدب الملتزم في البلاد الديمقراطية لا يعدو اليوم أن يكون في صورة مذاهب شخصية ؛ لأمثال « سارتر » و « كاموس » ؛ في فرنسا ، وأضرابهما في البلاد الأخرى ! ... مذاهب أدبية ينشئها ، أو يروج لها أفراد من الأدباء ، يلزمون أنفسهم بمبادئها فيما يكتبون وينتجون ! ... فالالتزام عند « سارتر » ليس دافعه « الدولة » ، بل شخصه وحياته ... ولقد سئل عن مبدل اعتناقه مذهب الأدب الملتزم ، وهل هو ناشئ عن تجربة الحرب الأخيرة ؟ .. فقال : « نعم ، إن الأحداث الاجتماعية هي التي تأتي باحثتنا عنا ، ولكن التجربة الحاسمة كانت في أيام الأسر - بين الأسلاك الشائكة - تيقظ الضمير متسائلاً عن حقيقة الحرية ... » أما « كاموس » فقد نبغ التزامه من أعماق تفكيره ؛ فقد قال : « إن فكرتي عن الفن سامقة الارتفاع ... وهذه الفكرة المرتفعة هي التي تجعلني أريد للفن أن يخدم شيئاً . إن غاية الفنان الخالق هي أن يصور مشاعر عصره ... ولقد كانت مشاعر العصر في القرن السابع عشر تدور في الغالب حول الحب ... أما اليوم فإن مشاعر العصر هي مشاعر جماعية ، لأن المجتمع اليوم يسبح في الفوضى ... » على أن « كاموس » نفسه لا يحلو له كثيراً أن يوصف بأنه أديب ملتزم ... فقد علق على كتيب نشر عنه بقوله : « إني شاكر لمؤلفه ، إذ لم يصفني بأني كاتب مذهبي خاضع لمذهب بعينه ... »

إذا استثنينا هذين الأديبين ، كان من الصعب أن نجد في بلاد الديمقراطية قادة للأدب الملتزم من هذا الطراز ... على أنهما وأتباعهما لا يكادون يورثون في الصفة الغالبة

على الأدب الفرنسى المعاصر ...! فهذا الأدب فى مجموعه بعيد عن كل التزام ،
لا فى أدب الكتاب وحده ...! وهو بطبيعته أقرب إلى الفردية ، بل فى أدب
المسرح ذى الطبيعة الجماعية ... ولنصغ إلى الكاتب الناقد المسرحى المشهور
« جبريل مارسيل » ، فى محاضرة أخيرة له إذ قال : « إنه لمن الغريب أن نلاحظ
إلى أى مدى يغيب عن المسرح الفرنسى المعاصر كل مظهر اجتماعى للواقع الحاضر ؛
بمشكلاته الحقيقية التى تعرض لكل واحد منا ...! »

وهذا صحيح إلى حد يدعو إلى الدهشة لمن يتتبع روايات المسرح الفرنسى
الآن رواية رواية ... أغلبها حقاً بعيد كل البعد عن معالجة المشكلات المباشرة
للمجتمع ...! ومع ذلك فإن ذلك المجتمع يقبل عليها إقبالا يثير العجب ...! فلقد
لبثت رواية « الكوخ الصغير » أندريه روسان ، تمثل بلا انقطاع ثلاث سنوات
متتالية ...! وهى ملهة تدور حول زوج وزوجته وعشيق ، كانوا على ظهر سفينة
غرق بهم ، فنجوا هم الثلاثة وعاشوا وحدهم فى جزيرة نائية ...! ولقد سئل
مؤلفها هذا السؤال : « أليس من التناقض العجيب أن ينجح مثل هذا المسرح هذا
النجاح كله فى لحظة مؤلمة من تاريخنا ؟ ... » فأجاب المؤلف : « هذا بالضبط هو
السبب ...! إننا نعيش فى مأساة ، فما من نوع يلائم عصرنا غير الملهة » ...!
فإذا تركنا « فرنسا » ، وذهبنا إلى « إنجلترا » وجدنا الأمر مثل ذلك وأكثر : فالعقيلة
الإنجليزية لا تطيق قيوداً على الفكر والمتعة ، مهماتكن فائدتها ...! لهذا قلنا نجد
ظاهرة الالتزام — بالمعنى المذهبى المذكور — فى الأدب الإنجليزى المعاصر ...!
أما المسرح فهو أيضاً بعيد كل البعد عن تصوير مشكلات حقيقية مباشرة للمجتمع
وأكثر المسرحيات نجاحاً عند الجمهور الإنجليزى روايات « نويل كوارد » وهى
من طراز روايات « أندريه روسان » الفرنسى ...!

فإذا اتجهنا إلى «أمريكا» ألفينا نفس الأمر، ولنستمع إلى الناقد الأمريكي الشهير «بروكس أتكنسون»، يصف في جريدة «نيويورك تيمس» حالة المسرح في الولايات المتحدة بقوله: إن الحياة الفكرية والفنية في هذه البلاد تكاد تكون غائبة على السطح... فالناس هنا لا يودون التعرض لأي مخاطرة فكرية، ويترددون في التصريح بما يعتقدون... والخوف من الشيوعية جعل أصحاب الذوق المبتذل هم الذين يتحكمون في الإنتاج الفكري والفني؛ كما هو الحال في «روسيا» الآن. فأصبح المسرح تافهاً هنا كما هو هناك...! ولن نأمل في أن يكون لنا فن مسرحي حتى مادامنا نقلد الدور الدكتاتورية في فرضها الرقابة على الحياة الثقافية، ووضعها في زمام هذه الرقابة، في أيدي أجلاف، مغلقى النفوس عن كل فهم، وفن، وذوق!...

من هنا يبدو - كما يعقب أحد الباحثين في حالة الفن الأمريكي المعاصر - أن المنتجين يتجنبون الموضوعات التي تنجح إلى نقد المجتمع، ويتوخون السلامة والعافية في إنتاج كوميديات موسيقية خفيفة من نوع «الموزيكل»...! ذلك النوع الذي تمثل فيه «جودي جارلاند» وضرباً تهايناً يحتاج «برودواي» اجتياحاً...! ذلك النوع من الإنتاج يدر على منتجه ربحاً لا ينضب معينه، ويجنبهم في عين الوقت المثول يوم ما أمام لجنة من لجان تحقيق الكونجرس!...

تلك خلاصة لقول بعض النقاد الغربيين، في شأن الحرية والالتزام في العصر الحاضر. فإذا كان لا بد لي من إبداء رأي فيما ينبغي للأديب - ولا بد لي من إبداء رأي هنا صريحة؛ لأن طبيعة هذا الكتاب - كما لاحظ القارىء - هي عرض لشؤون الأدب والفن من خلال أفكارى، ومطالعاتى، وكتاباتي، وتجاربى في الثلاثين سنة الماضية؛ من حياتى الأدبية والفنية...! فإني أقول - وقد قلتها من قبل كثيراً - إن الأديب يجب أن يكون حراً؛ لأن الأديب إذا باع رأيه، أو قيد وجدانه ذهب عنه في

الحال صفة الأديب ... فالحرية هي نبع الفن ، وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن ! ...
 تلك هي النصيحة التي ينبغي أن تزجى إلى الأديب أو الفنان ، ولا تتصور
 نصيحة أخرى خالصة يمكن أن تقدم إليه ؛ لأن الذى يقول لفنان ، أو أديب :
 التزم بكذا ، أو بكيت ؛ - فقد قتله ... إنما التزم الأديب أو الفنان شئ ينبع حراً
 من أعماق نفسه ؛ فإن لم ينبع الالتزام حراً من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تلزمه
 أنت ، ولا تلزمه قوة في الوجود ! ... يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان
 الأديب أو الفنان ، ويجب أن يلتزم وهو لا يشعر بأنه ملتزم ؛ مثله مثل حمام زاجل ،
 ينقل رسالة وهو حر طائر ، لا يشعر بقيد في ساقه ، ولا بغل في جناحه . فإذا شعر
 الفنان لحظة واحدة أنه يؤدي بفنه ضريبة عليه أن يؤديها وجوباً ، فإن الذى
 سينتجه لن يكون فناً ... فإذا لم يشعر بأن الالتزام واجب وإنما هو شئ طبعى -
 شئ لو أرغمته على ألا يؤديه لعصاك وأداه ؛ لأنه جزء من طبيعته وتفكيره
 وعقيدته ، فإن الذى سينتجه مع الالتزام سيكون هو الفن ! ...

هكذا كان الالتزام عند الفنان المصرى القديم ، فيما اعتقدا ... كان منه ملتزماً بخدمة
 عقيدة دون أن يشعر بإرغام على ذلك ؛ لأن العقيدة فعلاً عقيدته التى نشأ عليها ،
 وركبت في طبيعته ! ... فالالتزام المثمر للفنان في رأيه هو الالتزام الذى ينبع
 من طبيعته ، وهنا لا يتعارض الالتزام مع الحرية — بل هنا ينبع الالتزام نفسه من
 الحرية ! ... لذلك لم أقل يوماً لأديب أو لفنان التزم ! ... بل قلت وأقول : كن حراً ! ...
 هذا موقفى تجاه الأدب والادباء على وجه العموم ! ... ولكن الموقف مختلف كل
 الاختلاف فيما يختص بآنتاجى أنا على وجه خاص ، فعلى الرغم من منادى بالحرية ،
 فإن عملى فى أكثر كتبى هو من صميم الأدب الملتزم ، ولست أدري أهذا راجع إلى
 رواسب ماضينا وتاريخنا القديم ، أم إلى طبيعتى الخاصة ؟ ... إنما الذى أعرفه هو

أنى منذ أمسكت بالقلم ما حاولت قط أن أنشئ لنفسى أسلوباً جميلاً، يتميز بجزالة اللفظ، وحسن الديباجة، مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين...! هذا الفن للفن فى الأسلوب، ما خطر لى أن أمارسه... ولكنى أردت أن أتخذ من الأسلوب خادماً لأهداف أخرى، غير مجرد الإمتاع...! هذه الأهداف، كما ظهرت واضحة للناس كانت قومية، وشعبية، وإصلاحية؛ فى «عودة الروح»، وفى «عصفور من الشرق»، وفى «يوميات نائب فى الأرياف»، وفى «مسرح المجتمع»...! وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان؛ كما لم تظهر بوضوح لكل الناس خصوصاً فى «مصر»؛ فى «أهل الكهف»، وفى «شهر زاد»، وفى «سليمان الحكيم»، وفى «بجماليون»، وفى «الملك أوديب»... الخ الخ.. أقول لم تظهر لكل الناس، لأن كثيرين منهم هنا لم يروا فيها أكثر من أساطير أخرجت فى إطار قى... والقليل أدرك أن الأسطورة لذاتها لم تكن هى المقصودة، فهذه القصص لم تكتب لإظهار جمال الأسطورة، كما كتبت «مجنون ليلى» لشوقي، فأظهرت جمال الشعر والعواطف والشعور، وأبرزت روعة الفن للفن نفسه...! إنما كانت هذه الأساطير والقصص وسيلة لهدف آخر، لا غاية فى ذاتها... فلم يكن الغرض منها مجرد رواية «حادثة الكهف»، أو حكاية «ليالى شهر زاد»... الخ.. بل وضعت كلها لخدمة قضية خاصة بالإنسان ومصيره...! قضيه يعتنقها المؤلف، ويبدو اتجاهها فى هذه الأعمال كلها...! فقد جاء فى صحيفة «النوفيل لتيرير» الباريسية، هذه الملاحظة التى تلخص رأى كله فى عبارة: «هذه المسرحيات العشر على تباينها فى نواحي الإلهام، تكشف عن روح واحد يسيطر على المؤلف: هو ذلك الاتجاه الملحوظ عنده دائماً إلى موضوع خالد، عجز الإنسان أما مصيره...»

وسأبقى تفسير ذلك فيما يلى من فصول...!

الأديب وليد عصره

لابد للفنان المثمر أو الأديب الحق من ان يكون وليد عصره وابن بيئته...
بغير ذلك يصبح الأديب، أو الفن شيئاً ضعيف الأثر ضئيل القدر، بعيداً عن قضايا
العصر، منعزلاً عن مصائر البشر!... ولقد سبق لي أن قلت ذلك في كتابي «تحت
شمس الفكر»، في فصل بعنوان «الفكر والشعب» جاءت فيه هذه الكلمات:
«إن الأديب في مصر لم يكن إلى عهود قديمة - حتى مطلع هذا القرن غير حلية
عاطلة في معاصم الأدباء... لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب، ليس فقط على هامش
المجتمع. بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء. لم يكن الأديب
في مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع، ولم تكن أقلام الكتاب
أبواقاً توقظ النائمين، ولكنها كانت معازف، تنعس على أنغامها المترفون!... الخ...»
على أن تناول الأديب والفن لشئون البيئة والزمن، والمجتمع؛ لابد - أيضاً
من أن يكون على نحو، لا يشبه - من قريب أو بعيد - ماتع رضه الصحف، أو الدعايات،
أو المناسبات!... فأداة الفن والأديب لا تعنيها المادة الإخبارية الطارئة المتغيرة،
بل هي تعني بالجوهر الثابت، والمبدأ العام المستخلص، مما يجري في الزمان والمكان!...
وهنا يختلف الحال أيضاً بين أديب وأديب وفنان وفنان!... فحوادث
البيئة وقضايا العصر عملة ذات مراتب وطبقات؛ فيها قروش النيكل وفيها عشرات
الفضة، وفيها جنيهات الذهب!... فهناك الأديب أو الفنان الذي لا يرى من حوادث
البيئة غير الحى، أو القرية، أو المدينة، التي يعيش فيها، ويعرف أهلها، وأحوالها؛ فيصفها
ويصورها أدق وصف، وأبرع تصوير!... وهناك الأديب أو الفنان الذي يضيف

إلى هذا التصوير الدقيق للحى، أو القرية، أو المدينة؛ نفوذ إلى روح مشكلاتها العامة - لا الخاصة بكل شخصية من الشخصيات - ليخرجك بعد مطالعة تصويره الممتع للبيئة والناس، بشيء أكثر من مجرد تصوير أمكنة وحوادث، وأشخاص؛ - شيء يمس قضية عامة تتصل بوضع هذه الجماعة البشرية، فى الظروف المحيطة بها، شيء يشعرك بأن الأديب أو الفنان ليس مجرد مصور لبيئة، وسارد لقصة، وخالق لأشخاص، ولكنه - أكثر من ذلك - محرك لقضية، ومفسر لوضع. ثم هنالك أخيراً الأديب أو الفنان الذى لا يكتفى بسرد القصة، وخلق الأشخاص؛ ليحرك قضية بيئية معينة ويفسر وضع مجتمع خاص، ولكنه يرمى من وراء عمله الفنى إلى تحريك قضية العصر كله، وتفسير وضع المجتمع البشرى، فى الجيل الذى يعاصره والزمن الذى يعيش فيه أو الأزمان المختلفة التى يتطور خلالها... هذه المهمة الأخيرة للأديب أو الفنان هى كالعلة الذهبية التى تصلح للتعامل الدولى فى العالم أجمع... والقول بأن الأدب أو الفن وليد بيئته ليس معناه فى كل الأحوال أن يكون هذا الأدب أو هذا الفن هابطاً فى مستواه الفكرى إلى مدارك الطبقات الدنيا... مهما تكن البيئة بدائية، فالفنان الرفيع قد ينتج فناً رفيعاً من بيئة متواضعة، والفنان السوقي قد ينتج فناً سوقياً من بيئة مرتفعة؛ فى الموسيقى مثلاً نجد «الجازبند» ينبع ويعيش فى بيئة مرفهة، فى حين أن بيئة الشعب المكافح أخرجت اليوم فناً شاباً مثل «شوستا كوفتش»، الذى تبجل موسيقاه الرفيعة عواصم العالم المتحضر، فقد وصف الناقد «دافيد راينوفتش» «سانفونياته» الشهيرة، التى أوحى بها الحرب الأخيرة بأنها تعبير عن مأساة الإنسان فى المصير الذى كتبه عليه هذا البرزخ المسدود بين الفرد والعالم المحيط به، فقد عبرت هذه الموسيقى الرفيعة - بما فيها من تفكير عميق عن حقيقة الإنسان باعتباره جزءاً من العالم،

منتهية إلى أن خلاصه من مصيره القلق هو في أن يغمر نفسه في الواقع... واقع الجماعة التي يعيش بينها كجزء منها... ولقد قارن الناقد ختام «السانفونية» الخامسة «لشوستا كوفتش» بختام سانفونية «البطولة» لـ «بيتهوفن»...!

كما أن الأدب أو الفن الذي يحرك قضية، ويفسر وضعاً لبيئة اجتماعية، قد يكون مستساغاً للجمهور واسع من الشعب، كما أنه قد يكون أيضاً مغلفاً بالشعر والرمز؛ كما هو الحال في مسرحيات «هنريك إبسن» المستساغة، لخاصة الناس دون عامتهم، مع أنها ثورة على صميم الأوضاع الاجتماعية في «النرويج»... فأولئك الذين يفهمون؛ ويتذوقون مسرحيات مثل «براند»؛ أو «بير جنت»؛ - لا شك هم من الصفوة المثقفة، دون الكثرة الغالبة. ذلك أن الأديب أو الفنان، لا يؤثر في كل الأحيان مباشرة في كتل الجماهير؛ كما ينبغي للصحنى والسياسى، ولكنه يؤثر أولاً في قادة الجماهير، وهم الذين يتلقون عنه التوجيه الفكرى للعصر والمجتمع، ويضعونه موضع التنفيذ والعمل... فإذا تركنا المجال القومى والتفتنا إلى المجال العالمى، ونظرنا إلى الأديب أو الفنان باعتباره وليد العصر الذى يكتنف العالم بأسره، وجدناه مطالباً - خصوصاً في العهود الحديثة - يبحث قضية العصر كله، وتفسير وضع المجتمع البشرى برمته...!

ولنتخذ مثلاً لذلك في الأدب: «جان بول سارتر»، بمذهبه المعروف عن «الوجودية» فقضية العصر عنده هي قضية الحرية... «حرية الإنسان». ذلك أنه يرى وضع الإنسان في المجتمع البشرى المعاصر مهدداً، في حريته من ناحيتين: ناحية السلطة الدينية، وناحية الدكتاتورية السياسية...! لهذا قام ينادى بتحرير الإنسان المعاصر من كل سلطة...! ويعلن أن الإنسان حر!... حر بطبعه وسليقته، وأنه لا يستطيع الخلاص من حريته، دون أن يتخلص من وجوده...! وهو حر في إرادته ومسئوليته أمام الذات الإلهية، التي لا تملك معه حلاً ولا عقداً؛ لأنه هو نفسه إله هذا الوجود - إلى آخر

تلك الأفكار ، التي ضمنها كتاباته ، وعرض لبابها في مسرحيته « الذباب » ، التي أجمع النقاد على أنها ، تمثل آراءه في قضية الحرية أعمق تمثيل !... وهذه المسرحية الفلسفية مفرغة في إطار الأسطورة الإغريقية ، التي سبق أن تناولها « إيشيل » ، و « سوفوكلس » ، و « إيريبيد » من قبل !... ولكن « سارتر » استخدم أشخاص الأسطورة ؛ للرمز عن اتجاهاته ، والتعبير عن نظراته ؛ في موقف الإنسان من العصر الحديث !...

ولقد أخرجت هذه التمثيلية - على المسرح الفرنسي - في نطاق جمهور ضيق ، من خاصة المثقفين !.. فهي أيضاً ؛ كـ « مسرحيات » « إبسن » في عصرها ، ليست مما يهبط إلى مستوى سواد الناس !... ولكن ذلك لم يحل دون ذبوع أفكار المسرحية ؛ عن طريق النقاد ، والمفسرين ذبوعاً كاد يبلغ آذان الجماهير في جميع أركان الدنيا ..

هذا الموقف من قضية العصر قد وقفته وتأملته ، وعرضت فيه نظرتي باعتباري شرقياً مسلماً .. فالإنسان عندي ليس إله هذا العالم . وهو ليس وحده في الوجود وليس حراً ... ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية ... هذه الإرادة التي تتجلى للإنسان أحياناً في صور غير منظورة من عوائق وقيود ، على الإنسان أن يكافح لاجتيازها والتغلب عليها ... فأنبياء الشرق أنفسهم يبعثهم الله ويضع أمامهم العقبات ... فطريق النبي ليس معبداً ، ولكنه يجاهد في تبليغ رسالته وسط أشواك من غرائز الناس ... إن قضية العصر اليوم ، وهي التي تقوم على حرية الإنسان سواء باعتبار فرداً أو باعتباره جماعة ، إنما تتحد وتتلاقى في أمر واحد . هو إنكار الله ... وإنكار القوى غير المنظورة التي تؤثر في مصير الإنسان ... وهذا ما لم أسلم به عقلاً وإيماناً ... فقول بعض النقاد الأوربيين إن مسرحياتي تسيطر عليها فكرة عجز الإنسان أمام مصيره صحيح إلى حد ما ... وأصح من ذلك ما لاحظته البعض من أن مصير الإنسان عندي مرتبط دائماً بجهاذه أمام القوى

غير المنظورة ، فهو بشعوره الداخلي - أنه ليس وحده في الكون ، وأنه ليس حراً - أدرك أنه يحين تلك القوة الخفية التي تسمى « الزمن » ، وأن مصيره مرتبط بالزمن ارتباطاً وثيقاً ، وأنه ليس حراً في التخلص من زمنه ، وليس في مقدوره أن يعيش طليقاً في كل جو ، وكل زمن . . . هذا محور مسرحية « أهل الكهف » التي كتبت ، ونشرت قبل أن يظهر « سارتر » ، في عالم الكتابة والأدب بأعوام . . . كما أن مصير انسان مرتبط بأرضه تمام الارتباط ؛ فالقوة الخفية الأخرى التي تسمى « المكان » - المكان المادى أو المعنوى - لها قبضتها القوية على كيان الإنسان . . . وهذا محور مسرحية « شهر زاد » . . . لقد أراد الإنسان في هذه القصة أن يتخلص من الأرض ليبلغ السماء ، فظل معلقاً بين الأرض والسماء ، ولكن مصير الانسان مهدد أشد تهديد بقوة أشد خطراً من تلك القوى - هذه القوة الخطرة ، هي التي تنفجر من صميم قدرته ، كما تنفجر النواة في الذرة . . . إن حكمة الإنسان - خصوصاً في عصورنا الحديثة - ليست هي التي توجه مصيره ، بل الذي يوجه مصيره هو قدرته - ذلك العفريت المنطلق من ققم الحكمة ، هو العلة المباشرة لازمة الإنسانية في العصر الحاضر . . . هذا محور مسرحية « سليمان الحكيم » . . . على أن شعورى بعجز الإنسان ، أمام القوى المؤثرة في مصيره ؛ ليس مؤداه التشاؤم ، كما أنى لست أرى في النظريات الأوربية - القائلة بحرية الانسان أمام مصيره - ما يدعو إلى التفاؤل . . . العكس هو الأصح ؛ فإن فكرة تأليه الإنسان وحده على هذه الأرض ، كانت في رأي من الأسباب التي أدت إلى كوارث العالم اليوم ؛ فالإنسان - الإله الحر ، الذي لا شريك له ، ولا سلطان لقدر عليه ، مع ما ركب فيه من غرائز الحرب والكفاح - عندما جحد وجود غيره على الأرض ، وأنكر كل قوة غير قوته في الدنيا ؛ لم يجد ما يوجه إليه غرائز حربه ، ونشاط كفاحه غير نفسه ،

فالقلم محارباً نفسه ، هادماً ذاته !... وهذا ما يفسر لنا انقسام العالم الأوربي اليوم على نفسه ، وهدم المدنية الأوربية لذاتها !... في حين أن فكرة الشعور بالقوى الأخرى التي تواجه الإنسان وتؤثر في إرادته وحرية ، تدفع به في نهاية الأمر أن يحشد غرائز حربه ونشاطه وكفاحه ، لا ضد نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة ، وهذه القوى الخفية !... فالشعور بعجز الإنسان أمام مصيره ، هو عندى حافز إلى الكفاح ، لا إلى التخاذل !... في « أهل الكهف » كالخوف ضد الزمن ، ولبث أحدهم متعلقاً بالحياة ، يقارع الزمن بسيف بثار هو « القلب » ، إلى آخر لحظة !... و « شهرزاد » جاهدت محاولة أن ترد - إلى الصواب - زوجها ، الذي أراد أن ينبذ أرضه وآدميته وأن تعيد إليه إيمانه ببشرية !... و « سليمان » جاهد ضد إغراء القدرة التي كادت تخرس صوت الحكمة !...

وهكذا كان الإنسان يجاهد دائماً ضد العوائق الخفية ، التي شعر بتأثيرها في حرية ، وإرادته ، ومصيره !... وهو جهاد - لا من نوع هدام ؛ كجهاد الإنسان المتأله ضد نفسه - بل جهاد بناء ، كجهاد المصريين القدماء ، ضد الزمن وعوامل فناءه ؛ بإقامة الهيكل الكبرى ، واختراع التحنيط والأصباغ ؛ وكجهاد أهل الدين السماوى فى الشرق ، ضد قلق النفس ، وغرائز الإنسان ؛ بتثبيت العقائد ووضع الشرائع !... ومهما يكن من عجز الإنسان ، وإخفاقه أمام مصيره ؛ فإن العبرة هى بجهاده - جهاده المنتج الشريف !... ذلك ما أرادت القدرة الإلهية للإنسان ؛ فبى قد ألقت فى سبيله الأحجار ؛ ليجاهد فى تحطيمها ، والعوائق ؛ ليكافح فى إزالتها !... وليس المهم للإنسان أن ينجح ، بل المهم أن يكدح ، وليس الشرف للإنسان فى أن يقول أنى حرر ، بل فى أن يقول إنى سجين ولكنى أجاهد للخلاص !... لولا شرف الجهاد لهدى الله الناس - بغير أنبياء مجاهدين - ولجعلهم ينجحون فى هداية الناس من أول

كلية ؛ بدون كفاح . . . لا ، إن الإنسان ليس إلهاً ، وإن الإنسان ليس حراً ؛ ولكنه مجاهد - بإرادة الله - ضد قيود ، مكافح ضد سجون . . .

لو اتجه تفكير الأدب الأوربي المعاصر إلى هذه الوجهة ، ودعا إلى حشد قوى الإنسان ؛ ضد القيود الخفية ، التي تكبل حريته الحقيقية ؛ - لكان في هذا النوع من التفكير ، بعض الحل لأزمة الإنسانية ، في العصر الأخير . . . فأزمة الإنسان اليوم هي حربه ضد نفسه ؛ فهو ليس له قريع آخر غير نفسه ؛ لأنه لم يعد في غروره ، يرى سوى حريته المطلقة . . . لم يعد يرى القوى الأخرى غير المنظورة ، التي تحرك وجوده ، وتلعب بمصيره ، وتستوجب فضاله ، وتتطلب تفكيره . . .

الأدب يلتزم

إذا كان الأديب يلتزم فالأدب لا يلتزم . وبمعنى أصح : إن الأديب لا يستطيع أن يلتزم الأدب باحترام التزاماته والنظر فيها ، إلا إذا توسل إلى ذلك بالقيم الأدبية الرفيعة ... فالأدب لا يمكن أن يضع في مراتبه العليا أدبياً ، استخدم أدباً رخيصاً أو فناً رديئاً ، مهما يكن شرف الغرض الذي يهدف إليه ! ... فالأدب لم يضع «حسان بن ثابت» في طبقة «المتنبي» ، مع أن «حسانا» دافع بشعره عن الإسلام ، ولم ينظم المتنبي ، إلا بدافع اكتساب المال ، والطمع في جوائز الخلفاء ! ... فالأدب أو تاريخ الأدب ينظر إلى الوسيلة قبل الغاية ؛ لأن الغاية في الأدب والفن لا تبرر الوسيلة ! ... والغرض الشريف وحده لا يستطيع أن يكون جواز مرور يدخل به أصحاب الأدب الرخيص هيكل الفن العظيم ، بل لا بد أن يكون صاحب الهدف النبيل أدبياً رفيعاً أولاً حتى يسمح له بالدخول ... وإلا قيل له : «ابتعد عن سبيل الأدب ، واسلك سبيلاً آخر تبلغ به رسالتك ! ... أمامك طريق الصحافة ، أو طريق الدعاية ، أما من يريد أن يستخدم الأدب أو الفن وسيلة لتبليغ رسالته ، فإنه يجب عليه - قبل كل شيء - أن يكون صاحب فن عال ، وأدب رفيع ! ... ولو أن الموسيقى «شوستا كوفتش» ، وضع معانيه القومية ، الإنسانية النبيلة ؛ في إطار موسيقى : «الجاز» ، أو غيرها ، من ألوان الموسيقى الخفيفة ؛ - لما أخذت هذه المعاني على سبيل الجد ، ولما كان لها صفة البقاء التي التصقت بها في هذا الوضع الفني الجدي ! ... ولو كان «إبسن» وضع أهدافه الإصلاحية وثوراته الاجتماعية ، في مسرحيات خفيفة المظهر ، سوقية الذوق ، عامة التفكير ؛ - لما استطاعت - حتى مع نجاحها ؛ في بيئتها ، وجيلها - أن تعيش بعد ذلك في كل جيل موفورة الاعتبار ! ...

على أن الالتزام في الأدب - على شرف غايته ، ونبيل مقصده ، ودلالته على شعور
الأديب بواجبه ، نحو جماعته وعصره - لا يكافئ الأديب في كل الأحيان... بل
العجيب أن « الأدب » أو « الفن » بمقياسه العام ، الخارج عن نطاق البيئة والجيل ،
قلما يلتفت إلى الدافع الكريم ؛ التفاته إلى القيمة الأدبية ، والفنية الخالصة... !
فسانفونيات « شوستا كوفتش » - التي تسمع الآن في باريس ، ولندن ، ونيويورك - لا تظفر
بتقدير الناس ؛ من أجل ما فيها من اتجاهات اجتماعية ، أو مذهبية ، بل لما فيها من فن
رائع رفيع ! .. كذلك الحال في مسرحيات « إبسن » ؛ فقد تغيرت الظروف كما
تغير المجتمع الذي ثار عليه هذا الفنان ، وحقق الزمن أكثر الإصلاحات التي
طالب بها ، وأصبحت آراؤه الاجتماعية - كما يقول أهل السياسة اليوم - « غير ذات
موضوع »... ! ولكن القيمة الأدبية الرفيعة لهذه المسرحيات - بما فيها من شعر ، وفكر -
لم تزال باقية ، يتذوقها المثقفون من أهل هذا الجيل ، كما يتذوقها المثقفون في كل
الآجيال... لأنها لم تكتب بأسلوب الدعاية الوقتية ؛ لتمضي بمضى وقها ، بل كتبت
بأسلوب الأدب العميق ، الذي يبقى للفكر والأدب في كل زمان... !

أكثر من ذلك : أن الالتزام بالأغراض القومية والإصلاحية ، قد يكون من منفرات
الأثر الأدبي إذا نقل إلى بيئة أخرى تشعر شعوراً آخر... ! ولا ضرب مثلاً بتجاربى
الخاصة... !

قال أحد النقاد الأوربيين في عام ١٩٣٧ م عن كتاب « عودة الروح » : « إن
نزعة الوطنية مما يضايق قليلاً... ! غير أن ظروف الحياة المصرية الحاضرة ، تجعل
من الصعب محو هذه النزعة ، دون المساس بصدق الكتاب كله... ! وإنه لمن الظاهر
فيه - فضلاً عن ذلك - وجود بعض عناصر أدب الطبقات الفقيرة... ! إلخ
كما قال ناقد أمريكي عن كتاب « يوميات نائب في الأرياف » : إنه على الرغم

من تصوير الريف المصرى ؛ فى أدق تفصيلاته الإنسانية ، التى تجعل القارى يحس ؛ كأنه موجود هناك ؛- فإن نزعة الإصلاح الاجتماعى فيه هى «الهانديكاب» ، أى هى الحمل الذى يثقل على القارى الأمريكى... وقال ناقد صحيفة «ماريان» : إن القارى «الاجنبى ينسى فى أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التى حركت المؤلف ، لوضع كتابه ، بل إن القارى يتمنى ألا يتغير شىء فى عالم هذه المخلوقات الإنسانية...» وأشارت صحف إنجليزية ؛ مثل «السنر» و «السبكتاتور» ، وغيرهما إلى الفقر ، والظلم فى بيئة الفلاحين ، وفساد الأداة الإدارية لإشارات عابرة ، ولم تقف طويلا إلا عند الصور الفنية ، والأشخاص ، وأسلوب الفكاهة ، والسخرية... كل ما جاء فى هذه الصحف -متصلا بالوضع الاجتماعى ؛ اتصالا يوحى بالمشاركة فى الشعور القومى- هو قول إحداها : إن فى هذا الكتاب ؛ عن مهزلة الفساد الاجتماعى الخالدة أكثر من مجرد استنكار ، وكما حدث مع كتاب الروس فى القرن التاسع عشر ، وكما حدث مع كاتبنا «ديكنز»- يشعر الكاتب المصرى أن مجرد العطف لا يكفي ، وأن الغضب عبث ، وأن السخرية وحدها هى أمضى سلاح للهجوم... الخ .

من هذا الاختيار الشخصى خرجت بهذه الحقيقة ، وهى أن الشعور القومى خاص بأهله وبيئته ، وأن الإصلاح خاص بمجتمعه وزمنه...!

على أن الأديب -الذى يشعر بإحساس بيئته ، ووطنه ، وجيله- يحزنه على كل حال أن يرى الناس فى بيئة أخرى ، تنصرف عن شعوره الإصلاحى إلى الأدب الخالص... من الواجب إذن على الأديب ، أن يتوقع ذلك ، دون أن ينصرف عن جهاده ، فالأديب الملتزم لا يلزم غير بيئة واحدة فى زمن واحد... فإذا اختلفت البيئة ، أو تغير الزمن ، فإن الأدب يتحلل عندئذ من كل التزام ، ولا يعيش بعدئذ إلا بقيمته الذاتية...!

الأدب لكل عصر

مشكلة الأديب هي أنه إنسان قبل أن يكون أديباً! ... إنسان ابن بيئته، وجيله، ومجتمعه، وعصره! ... لا بد له أن يحس إحساس مجتمعه، وأن يتأثر بما يحدث في بيئته وزمنه! ... ومع ذلك، لا بد له من أن ينتج أدباً أى شيئاً، يستطيع الحياة في كل بيئة وعصر، والشئ الذي يستطيع الحياة في كل بيئة وعصر هو ذلك الذي يهتم الإنسان في كل بيئة وعصر، هو ذلك الذي يتصل بالإنسان، باعتباره نوعاً بشرياً، ممتد الوجود في الزمان والمكان! ... الخالد، هو ذلك الذي يصل عصره بكل العصور، ومجتمعه بكل مجتمعاته، ونفسه بكل النفوس! ... هو ذلك الذي يستخرج من جيله المحدود مادة، تحيا في أجيال غير محدودة! ... هو ذلك الذي يتأثر، ويؤثر في بيئته، وزمنه، ثم يستمر بعد ذلك، يؤثر في كل مكان، على مدى الأزمان! ... معنى هذا أن الأثر الأدبي الخالد، لا بد إذن من أن ينطوي على شقين: شق يعنى أهل زمنه خاصة، وشق يمكن أن يعنى الناس كافة؛ في كل زمن ومواطن! ...

على أن هذا القول - على إطلاقه - قلما يحدث بهذه الصورة - في أغلب الآثار التي اعتبرت خالدة؛ فأذواق الأمم متغيرة، ومدارك الأجيال متطورة؛ فمن الآثار الباقية ما أغفل في عصر، ولمع في عصر، وما غمض في بيئة، وفهم في بيئة! ... فأعمال «شكسبير» لا يمكن أن تكون قد فهمت في بيئتها وعصرها؛ كما تفهم في العالم الآن، بعد أن شرح غوامضها، وألقى الضوء على أغوارها نقاد الألمان! ... بل بعد أن استطاع علم النفس في العصور الحديثة أن يحوس بمصباحه خلال أشخاصها وما تسكن من نفوس! ... أكثر من ذلك قد نجد بيئتين - في عصر واحد - متساويتين

في المدارك، ولا تتفقان على فهم أديب في الوقت عينه، وهذا ما حدث لبرناردشو، وهذا سبب من أسباب سخطه على أنباء لغته الإنجليزية؛ فقد لبثت مسرحياته وقتاً لا تظفر بإقبال هؤلاء المواطنين، إلى أن التفت إليها الألمان، وأقبلوا على نقلها، وتمثيلها، وشرحها؛ فهدوا بذلك طريق استساغتها للعقل الإنجليزي...!

ومن الآثار ما دفنت في عصرها، لظروف شخصية أو سياسية، وبعثت في عصر آخر، عاشت فيه موضع عناية الأدباء والباحثين، وأقرب مثل لذلك، في الأدب العربي، آثار «أبي حيان التوحيدي»...

وهكذا لو تأملنا أغلب آثار الأدب والفن؛ تأمل الباحث عن سر حياتها؛ - لوجدنا أنها لا تعيش حياة واحدة في كل العصور؛ لأنه ما من عصر ينطبق حاله على عصر آخر تمام الانطباق...! فالآثار قد تعيش في كل عصر، بشخصية مختلفة بعض الاختلاف، ويرى فيها أهل كل عصر الناحية، التي تتفق مع مزاجهم، وذوقهم، وتفكيرهم، ومداركهم...! فهي أحياناً تعيش في زمان؛ بوجهها البراق المشرق، وتعيش في زمان آخر؛ بروحها الخفيف الجذاب، ثم تعيش في زمان آخر؛ بتفكيرها الدقيق العميق... والقليل جداً من بين هذه الآثار تلك التي تستطيع أن تعيش بوجه واحد في كل العصور...! وحتى تلك التي استطاعت أن تعيش لناحية واحدة فيها، فإن نقاد كل عصر يختلفون في أسباب تذوقها، وأساليب بحثها، وطرائق تفسيرها؛ فالبراعة اللغوية - التي التزم بها «أبو العلاء» - لا تهمنا اليوم بمقدار ما يهمنا تفكيره، الذي صبه في تلك الصور الشعرية الرفيعة...!

بل إن اختلاف البيئات، في مجتمع واحد، وعصر واحد؛ قد يجعل للأثر الواحد حياتين مختلفتين، ولا ضرب هنا أيضاً مثلاً بتجربتي الخاصة، فأقول ملاحظاً إن مسرحيات؛ مثل «أهل الكهف»، و«شهرزاد»، و«سليمان الحكيم»، إلخ؛ استطاعت أن تحيا بعض الحياة في

الكتب، ولكنهم لم تستطع الحياة، حتى الآن، فوق مسرحنا العربي — بما جعلني يوماً أعتقد أنها لم تكتب إلا لتنتشر في كتب! ... إلى أن نقلت إلى لغات أجنبية، واطلعت أخيراً على بعض تقارير متحمسة، لبعض رجال المسرح الأدبي عن صلاحيتها هناك لحياة التمثيل، فسألت نفسي. أترأه اختلاف البيئة الثقافية لدينا، بين قراء الكتب الأدبية، ورواد المسارح العامة، ذلك الاختلاف — المتسع الشقة، حتى الآن — هو الذي يجعل لمثل هذه الأعمال هاتين الحياتين المختلفتين! ...

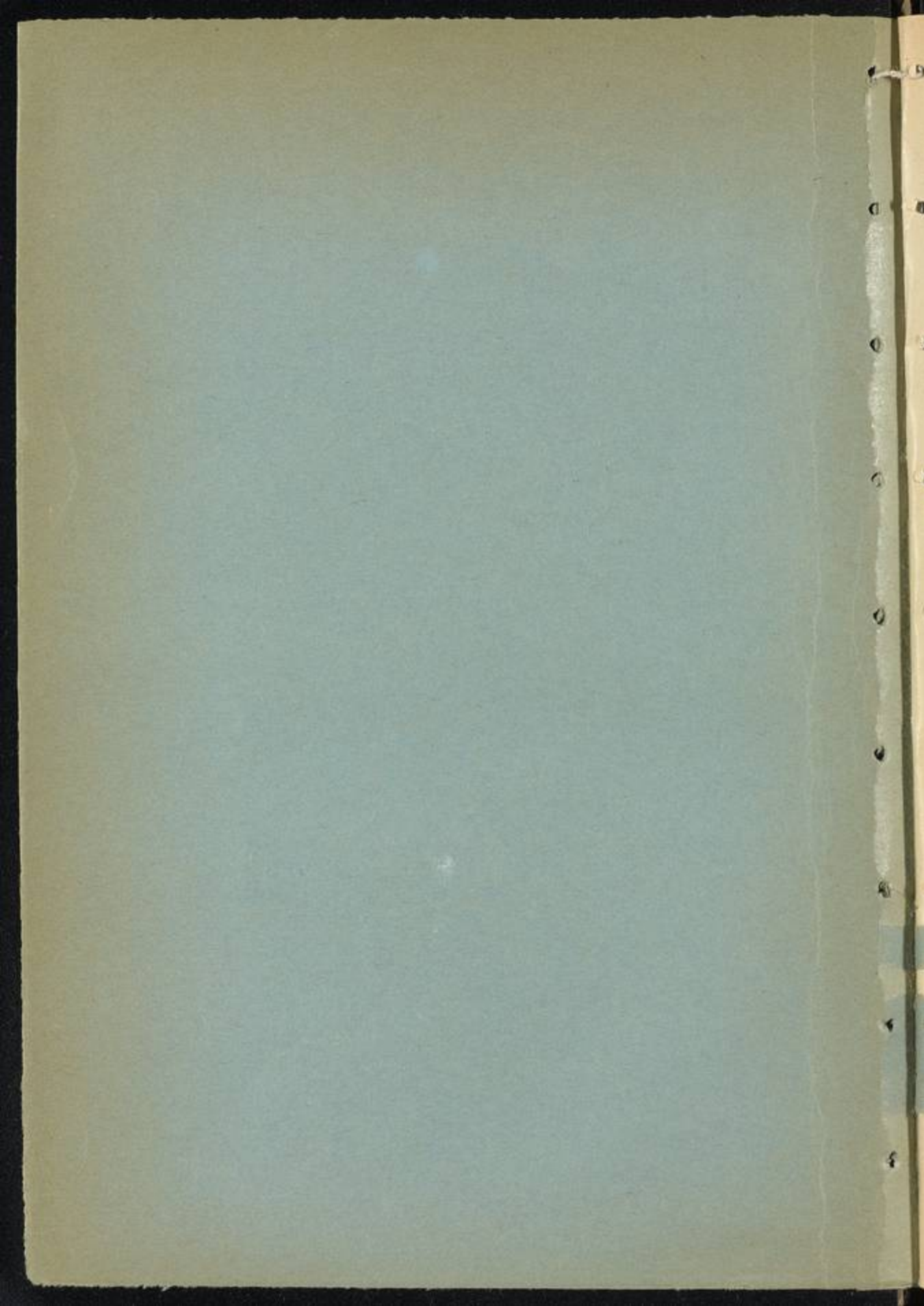
على أننا نبالغ أيضاً إذا قلنا: إن الآثار الأدبية والفنية تعيش في كل العصور؛ كما خلقها مؤلفوها، ذلك أن الذي يحدث عادة هو أن أغلب هذه الآثار، تعرض في كل عصر عرضاً، قد يختلف عن الأصل قليلاً أو كثيراً! ... فأثار «أرسطوفان» و«سوفوكلس» و«شكسبير» — قلما تعرض في غير اقتباسات، أو إعدادات، فيها من الحذف، والتعديل والتبديل — ما يلائم النظرة وفن المسرح، وظروف الحياة الاجتماعية في كل زمن! ...

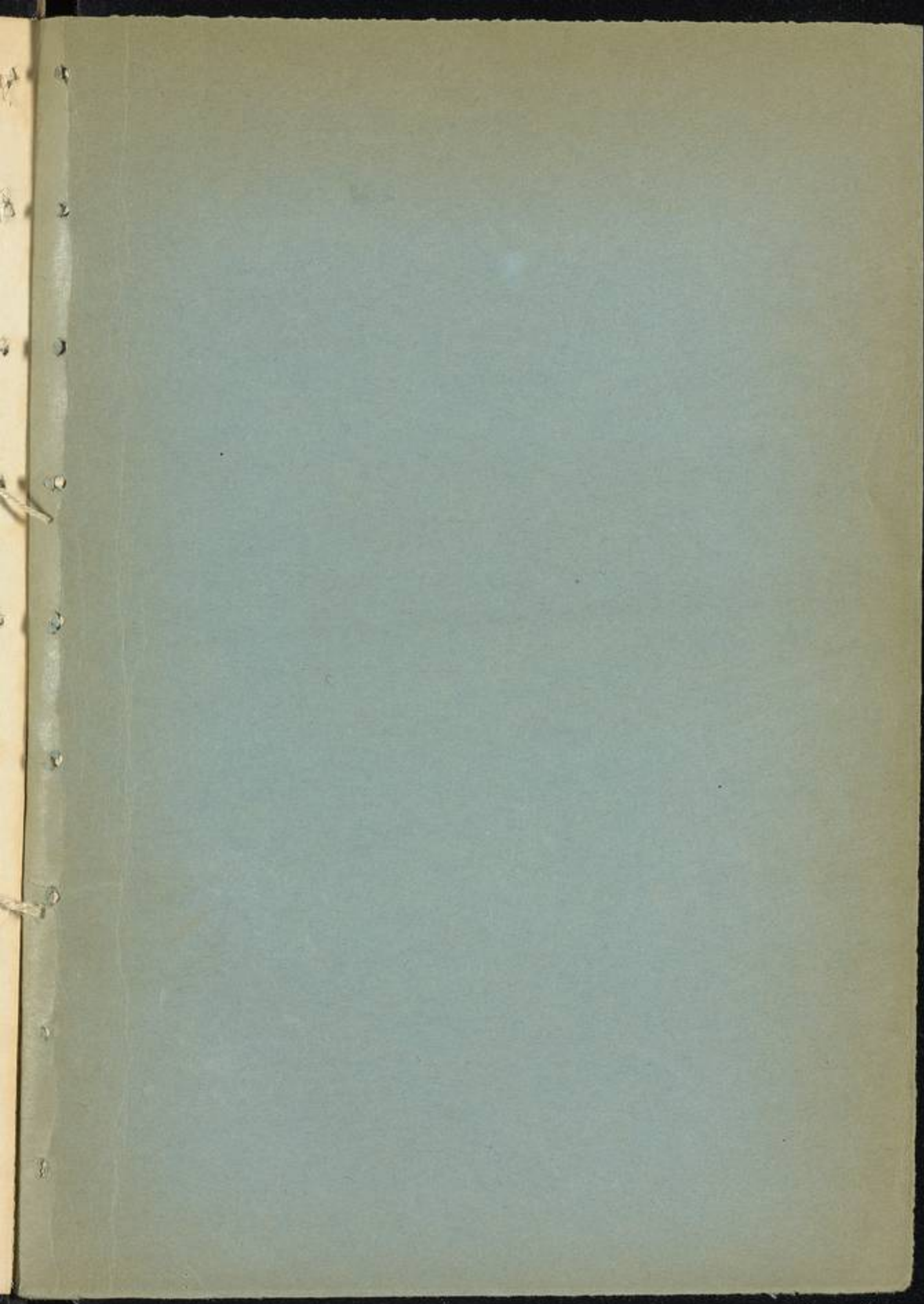
كما أن الملاحظ في الآثار الأدبية، التي تنتقل من عصر إلى عصر، أنها تكاد تكون محصورة في نطاق أدب الخاصة! ... فالأدب الشعبي قلما ينتقل من جيل إلى جيل، ومن موطن إلى موطن بالكمية والسرعة التي ينتقل بها الأدب الرفيع! ... لقد كان «راسين» يقول إنه يكتب لمائتين فقط من الصفوة! ... وها هو ذا «راسين» يعيش إلى اليوم، حياة موفورة في ثقافة كل أمة متحضرة، على حين أنه يصل عصرنا كثير من شعراء الشعب أو مؤلفيه الذين صنف لهم في المحافل والمسارح وطرب لهم في المغاني والمشارب! ... أترى الخلود الأدبي لا يصنعه غير نفر قليل من الصفوة في كل بلد وعصر؟ ... إذن كان هذا صحيحاً فما هو السبب؟ ... أهو في عجز الأدب الشعبي عن الحياة في بيئة أخرى، غير بيئته، وزمن آخر غير زمنه؟ ... إلا في القليل النادر، عندما يسمو على نفسه بقوة في الخلق، ترفعه فوق اللغات، واللهجات، والحدود،

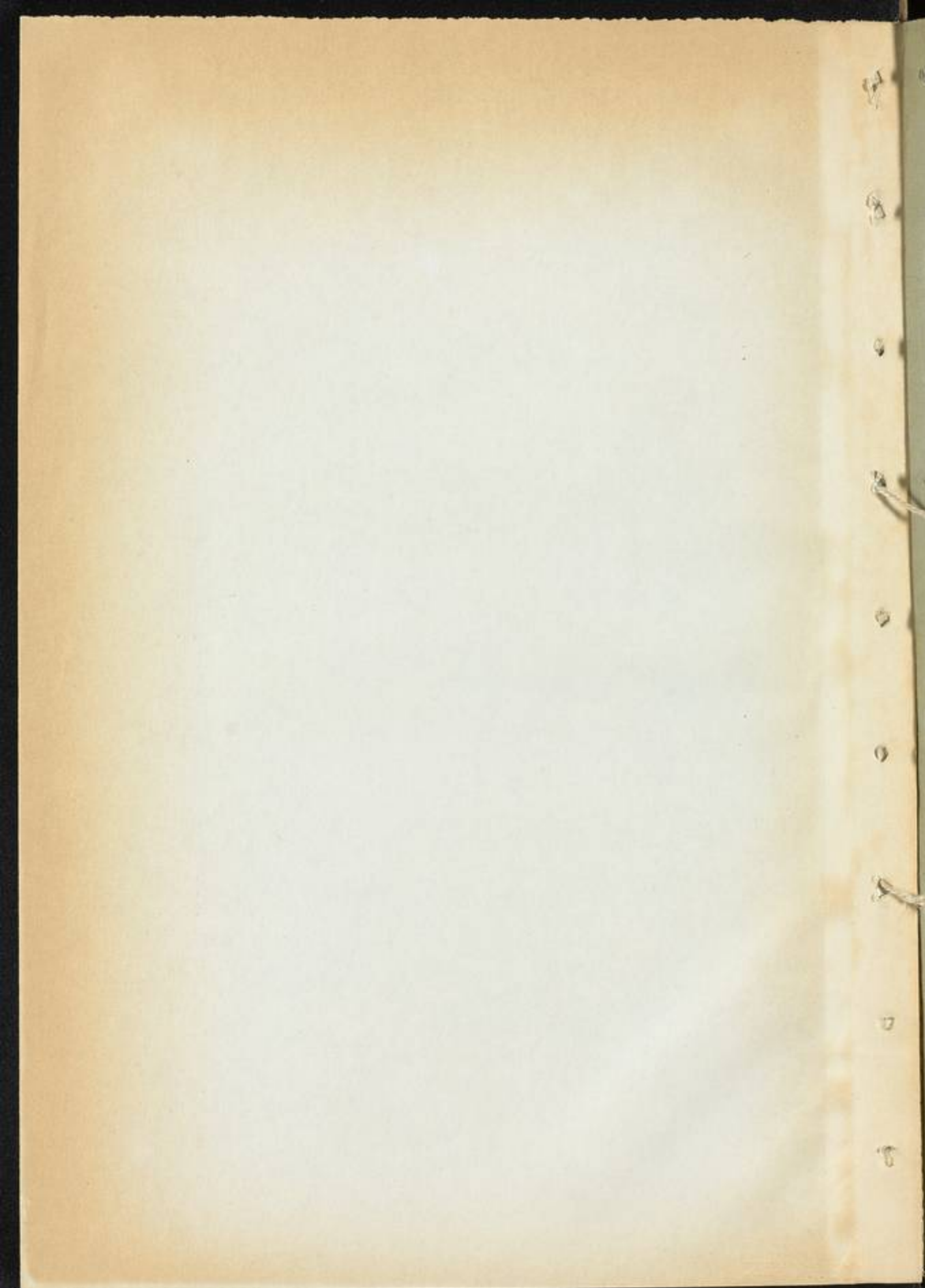
والأزمان، والاجناس؛ كما هو الحال في قصص ألف ليلة وليلة؟... ومع ذلك من الذى نقل هذه القصص إلى مرتبة الفن العالى والآداب العالمية؟.. أليسوا هم خاصة من الصفوة، التفتوا إلى قيمتها الذاتية، وفطنوا إلى استحقاتها للبقاء والتقدير؟... إذا كان هذا أيضاً صحيحاً فما هو السر؟... لماذا تختص الصفوة المثقفة بمهمة التخليد؟... لماذا خلدت لنا كل من تناولته بالناية من الشعراء، والأدباء، والفنانين؛ - حتى إن كانوا قد عاشوا حياتهم في نطاق ضيق من اهتمام الناس؟...

ربما كان السبب هو أن الصفوة المثقفة هي التي تكتب، وتفسر، وتسجل، في حين أن سواد الناس يكتفون بالتلقى العابر!... وربما كان السبب هو أن الصفوة المثقفة هي التي تصدر الاحكام الثابتة على أساس من فهم ثابت، في حين أن أفهام الناس، وأذواقهم - في مجموعهم وسوادهم - متقلبة متموجة، تتحرك وتتطور كلها ازدادت حظاً من المعرفة والإدراك!...

أما بعد، فإنني أستخلص من كل ذلك، الرأي الذي سبق أن أشرت إليه وهو: أن الادب الكبير، هو ذلك الذي يصلح لعصره، ولكل عصر، وينفع الناس، ويعرض لشئونهم، ويوجه حياتهم في جيلهم، ثم يمضي بعد ذلك، ينفع الناس في كل الاجيال!... هو ذلك الذي ينظر - يا حدى عينيه - إلى الوطن الصغير؛ مثلاً في بيئته وزمنه، وبعينه الاخرى إلى الوطن الاكبر؛ مثلاً في الانسانية إلى نهاية الدهر!...









LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

